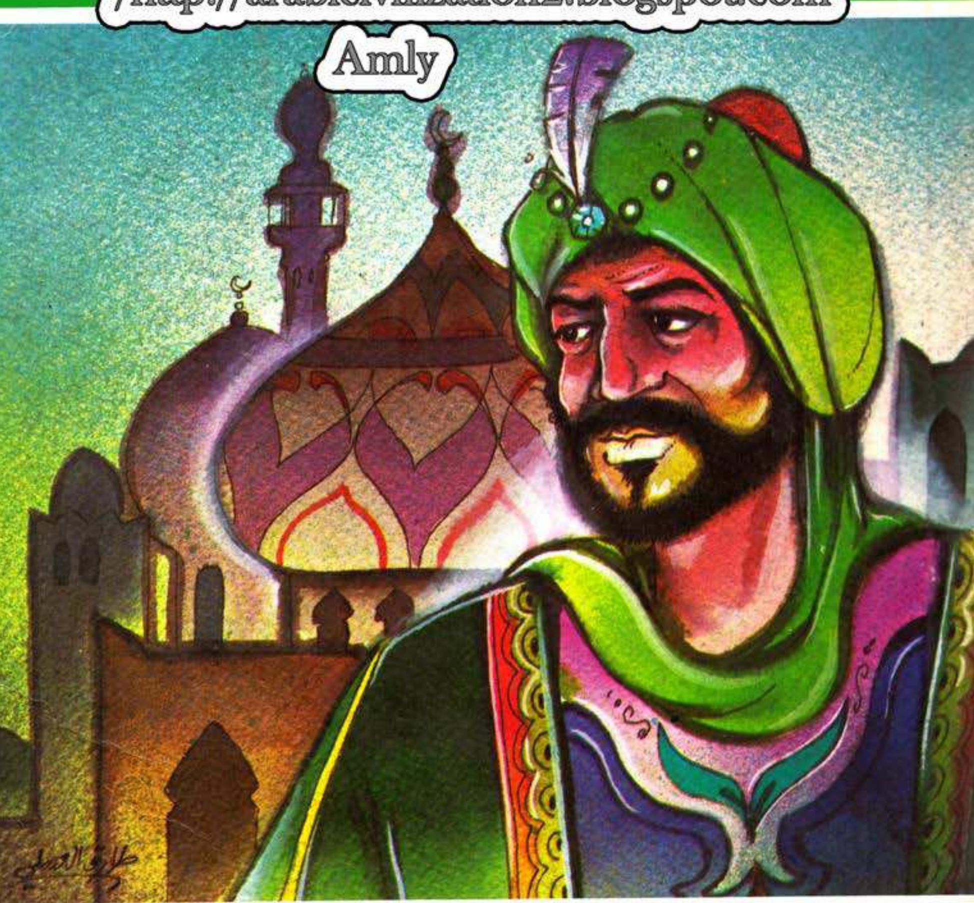
روايات تاريخ العرب والإسلام

اميل حبشي الأشقر

النّعمان الثالث



دار الأندلس

النعمان الثالث

ملك العراق



روايات تاريخ العرب والاسلام

أميل حبشي الأشقر

النعمان الثالث

ملك العراق

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الثانية
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

دار الأندلس - بيروت، لبنان
هاتف: ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب: ١١٤٥٥٣ - تلكس ٢٣٦٨٣

بيان

ايها القارىء العزيز .

لقد قرأت في روايتنا ، الحارث الاكبر الغساني ، كلمة مختصرة جدا عن دولة المـلوك اللخميين في العراق وعن واضـع الحجر الاول فيها ، جذيمة الابرش ، او الابرص ، او الوضاح ، ابن مالك بن فهم الازدي، او القضاعي ، على قول بعضهم.

قرأت ذلك في معرض البحث التاريخي الذي اقتضاه سياق الرواية السابقة .

ولكنك الآن ؛ في روايتنا هذه ؛ النعمان الثالث ؛ ستقرأ تاريـخ العراق كله بالقالب الروائي الذي اخترناه على قدر ما يسمح لنا الاسلوب الخاص الذي نهجنا .

وللعراق دولة عظمة ومجد ؛ وحروب وعبر ، وبين ملوكها من تنحني له إجلالا رؤوس الملوك ؛ فاذا عمدنا الى نشر تاريخها فانما نعمد الى نشر اثر عربي له مكانته الاولى بين دول ذلك الزمان .

على انك ستقرأ في الرواية الثانية ما لم تقرأه في الرواية الاولى ؛ من بحث مستفيض ؛ وبيان واسع ؛ ووضوح تاريخي لم يكن منه في رواية الحارث غير الشيء القليل الذي اثبته لنا مؤرخو العرب وجماعـات المستشرقين

ذلك لان تاريخ آل لخم ، اوضح من تاريخ آل غسان واكثر جلاء ؛ حتى اننا لنستطيع ان نسمي الحوادث باسمائها ونعين الزمان بل السنوات التي جرت فيها .

بناء عليه ؛ فقد رأينا ؛ قبل ان نبدأ السياق الروائي ، ان نفصل الكلام عن ملوك العراق ؛ ونسمي لك هؤلاء الملوك ؛ جاعلين لكل ملك بحثاً صغيرا ، هو سطور قليلة ترشدك الى حياة ذلك الملك ، وحوادث دولته ؛ والعمل الذي اشتهر به ، حتى نصل الى النعمان الثالث الذي هو موضوع البحث .

وفي ذلك من الفائدة ما فيه ؛ اذ انك وانت تقرأ رواية النعمان ؛ تقرأ في الوقت نفسه تواريخ آبائه واجداده في فصول صغيرة لا تملها حتى تستوعب تاريخ العراق كله بعد قراءتك رواية واحدة ليس غير

اما المؤرخون الذين نستند الى قولهم ورأيهم فهم : حمزة الاصفهاني وابن الاثير ، وابن خلدون ، وابو الفداء ، والطبري ، وابو الفرج ؛ والمسعودي وغيرهم .

وهنالك كتاب العرب قبل الاسلام ؛ واقوال بعض الباحثين الفرنج المستشرقين ؛ نذكر منهم في سياق الرواية اسم من نستشهد بقوله

فعسى ان يوفقنا الله فنخدم امتنا بنشر تاريخها الاول الذي كاد يطمس اثره الزمان.

(المؤلف)

مقدمة

كان الملوك اللخميون في العراق ، عمالا للفرس كما كان الغساسنة في الشام عمالا للروم ، يعود عهد هذه العلاقة بين الدولتين الى زمان ازدشير بن بابك ملك الفرس ، يوم غزا العراق واستولى عليه ، في الجيل الثالث للمسيح .

وكان على العراق جذيمة الابرش وقد قدمه ابوه مالك من البحرين مع زعيم آخر يدعى مالك بن زهير حالفه على التعاون في القتال ، فسمي الفريقان « تنوخاً » (١) .

واختلف المؤرخون في نسب مالك بن فهم ، فبعضهم يرى انه من بني الازد ، اما المسعودي وحمزة فيقولان انه من تنوخ قضاعة وهو الراجح .

وكانت دار ملكه وملك جذيمة في المغيرة ، بين بلاد الخانوقة وقرقيسيا ، فلما زحف ازدشير الى بلاد العرب ودانت له ملوكها والامراء ، كانت تنوخ اول من خضع له ، فبسط على العراق نفوذه ، ومد فوقها رواق هيبته وحمايته .

ومنذ ذلك الحين ، نشأت العلاقة بين ملوك الفرس وملوك العراق ،

(١) تنخ بالمكان يتنخ تنوخاً اقام به ، وفي محيط المحيط ، ان لفظة تنوخ علم لامرأة من قضاعة سميت بها القبيلة

وأصبح هؤلاء عمالا للاولين بحكم القوة ، ولو استطاعوا لقطعوا هـــذه العلاقة واستقلوا .

على ان نفوذ الفرس في العراق ، كان اشد وابلغ من نفوذ الروم في غسان ، يولون من يشاؤن من الملوك ويخلعون من يشاؤن ، لهم القوة والشأن ، والامر والسلطان ، ودولتهم في أوج العز وسماء المجد ، من فتح الى فتح ، ومن ساحة شرف الى ساحـــة شرف اخرى لا يلوي لهم عود .

واي ملك من ملوك العرب يجرؤ عـــلى الوقوف في وجـــه العاهل العجمي ، وجنوده تملأ العراقين ، وأفياله تغطي سطح البلاد ؟

فرأى جذيمة بن مالك وخلفاؤه من بعـــده ، ان دعائم عرشهم لا تثبت الا اذا حالفوا الفرس بل قل اذا خضعوا لهم ، ولم يكن هـــذا الخضوع ليمنعهم ؛ في بعض الاحيان ، من توسيع نطاق الملك في القطر العربي ، واخضاع القبـــائل الكبرى لسلطانهم دون ان يستأذنوا ملك الملوك ، وفي ذلك ما فيه من النفع للفرس ، فكلما ازداد نفوذ العراقيين ازداد ضمنا نفوذ الاعجام ، فخراج العراق والبلاد الخاضعـــة له ينتهي بعضه الى بيت مـــالهم الذي يضيق بأكداس اللآلىء والذهب الواردة عليه من مختلف الاقطار .

اما ابناء قوم جذيمة ؛ فلم يخضعوا كلهم لازدشير ، وقـــد رأيت في رواية الحارث الاكبر ، كيف عاد بعضهم الى البحرين ، وكيف انتشر البعض الآخر في مشارف الشام .

وهابت العرب سطوة جذيمة وقوته ، وكان موفقاً اصاب من النصر

في مغازيه مـــا اراد ، فلم يغز بلاداً الا وعاد منها تخفق فوق صفوف جيشه أعلام الظفر .

وانتهت حيانـــه كما مر ، في قصر الزباء ، فخلفه ابن اخته عمرو بن عدي مؤسس دولة آل نصر او آل لخم ، بعد ان قتل الزباء عبد لخاله اسمه قصير ، كما عرفت .

تلك خلاصة ما جاء في روايتنـــا الاولى عن تأسيس دولة العراق ، بقي علينـــا ان نذكر لك اسماء الملوك اللخميين ، ونصف لك الحيرة عاصمة ملكهم ، قبل ان نبدأ بالسياق الروائي كما تقدم.

* * *

١

الحيرة

تقع الحيرة على شاطيء الفرات الغربي بين البادية وبين العراق ؛ في مكان يقال له ، النجف ، يبعد عن الكوفة ثلاثة اميال ، وهي الان في الجنوب الشرقي من مشهدعلي (١).

وقد كثرت اراء المؤرخين العرب في تحليل اسمها وتعليله ، على عادتهم في إرجاع الاعلام الى مشتقات عربية ، فقالوا : « سميت بذلك من الحيرة أي الضلال ، لان تبعاً ملك اليمن لما بلغ الحيرة على ما يزعمون ، ضل دليله ، وتحير ، وزعم آخرون ان مالك بن فهم لما قدمها ، جعلها حيراً أي حظيرة او بستاناً وأقطعه قومه ثم صارت الحيرة ، وقال غيره بل سميت الحيرة من الحوار ، أي البياض ، لبياض أبنيتها ، والحقيقة ان لفظها سرياني معناه الحصن او المعقل حوله الخندق « حيرتو » وهي والحير العربية من اصل واحد كما ترى من تقارب اللفظ والمعنى .

ولذلك كانت تعرف بقولهم ، حيرة النعمان ، أو ، حيرة المنذر ، اي حصنه أو معقله ، على عادة الناس في انشاء المدن في ذلك الزمان » .

فكان الملك او الامير ، يختار في البر موضعاً ، فيبني فيه له ولحاشيته حصناً ، ثم يلجأ الناس الى جوار ذلك الحصن فيبنون منازلهم حوله ، فتكثر البيوت ، ويزدحم الناس فيتسع المكان بحكم الحاجة حتى يصير مدينة كبيرة بتوالي الايام .

---

(١) Rothstein

وعلى هذه الصورة نشأت البصرة والكوفــة والفسطاط وبغداد في الاسلام ، وعلى هذه الصورة ايضاً ، جعل الغساسنة معاقلهم وقصورهم على حدود البادية في شرقي حوران ، فقد كان المراد ان يحمي الملك او الامير حدود ملكه من جهة البادية ، كما كان الغرض من بناء الحيرة في العراق .

وما لبثت الحيرة حتى اصبحت مدينة العراق العظمى ، بعـــد ان اتخذها عمرو بن عدي منزلا له ولاهل دولته ، وشاد فيها الملوك اللخميون منازلهم وقصورهم ، وأحاطوها بالجنات الغناء وجداول الماء ؛ وفيها قال الشاعر عاصم بن عمرو :

صبحنا الحيرة الروحاء خيلا ورجلا فوق اثباج الركاب
حضرنا في نواحيها قصوراً مشرفـــة كاضراس الكلاب

واشتهرت الحيرة بصحة هوائها وجودة مناخها لوجودها في ذلك البر الفسيح النقي الهواء ، حتى قالوا « يوم وليلة في الحيرة خـــير من دواء سنة » .

وظلت عامرة بعد الاسلام عدة اجيال ؛ وفي جوارهـــا قصران كبيران هما الخورنق والسدير ، سيأتي ذكرهما في ما يلي من الفصول .

وكان بعض ولاة الكوفة ، في ايام ملوك بني امية ، يذم الحيرة ،فقال رجل من اهلها وكان ظريفاً عاقلا :

« اتعيب بلدة يضرب بها المثل في الجاهلية والاسلام ؛ قال : وبماذا تمدح قال : بصحة هوائها وطيب مائها ونزهة ظاهرها ، تصلح للخف والظلف « أي للحيوانات ذوات الخف كالجمـــال ، وذوات الظلف كالبقر » .

الى ان قال : هي سهل وجبل وبادية وبستان ، وبر وبحر ، محل الملوك ومزارهم ومسكنهم ومثواهم ، وقد قدمتها اصلحك الله مخفاً فرجعت مثقلا وزرتها مقلا فأصارتك مكثراً، قال: فكيف نعرف ما وصفتها به من الفضل قال : بأن تصير الي ثم أدع ما شئت من لذات العيش فوالله لا اجوز بلك الحيرة فيه ، قال ، فاصنع لنا صنيعاً واخرج من قولك ، قال افعل، فصنع لهم طعاماً وأطعمهم من خبزها وسمكها وما صيد من وحشها من ظباء ونعام وارانب وحبارى ، وسقاهم ماءها في قلالها وخمرها في آنيتها ، ولم يستخدم لهم حرا ولا عبدا الا من مولديها ومولداتها من خدم ووصائف كأنهم اللؤلؤ لغتهم لغة أهلها : وحياه برياحينها وشربوا بفواكهها ، ثم قال له ، هل رأيتني استعنت على شيء مما رأيت وأكلت وشربت وشممت وسمعت بغير مافي الحيرة ؟ قال لا والله لقد احسنت صفة بلدك ونصرته فبارك الله لكم في بلدكم» .

تلك هي الحيرة عاصمة اللخميين ، ولوجودها في طرف العراق من الغرب رغبت فيها قبائل العرب ، فكان البدوي يقصدها لابتياع حاجاته ثم يميل الى السكنى فيها فيدق فيها اوتاد خيمته ويبني في جهة من جهاتها منزله .

واذا ضاقت المعيشة في بلد ، خرج اهل ذلك البلد الى ريف العراق، ثم يقيمون في الحيرة بطوناً وجماعات فراراً من جور أو من ضيق لاجل ذلك كان اهلها خليطاً من امم شتى معظمهم عربان وقد قسمهم هشام الكلبي الى ثلاثة اقسام :

القسم الاول ؛ تنوخ ؛ وهم بقية العرب الذين قدموا مع مالك بن

فهم والد جذيمة ؛ وكانوا يقيمون في بيوت من الشعر او الوبر في غربي الفرات ما بين الحيرة والانبار .

والقسم الثاني ؛ العباد وهم سكان الحيرة نفسها الذين نزلوا بها وشادوا فيها المنازل .

اما القسم الثالث ، فهم الاحلاف ؛ الذين لحقوا بأهل الحيرة وحالفوهم وهم ليسوا من تنوخ سكان بيوت الشعر ولا من العباد .

وللعباد على ما يقول كتاب العرب قبل الاسلام ـ شأن في تاريخ العراق قبل ظهور النبي العربي الكريم وبعده ؛ وقد اختلف الناس في حقيقتهم كما اختلفوا في غير ذلك من الامور ؛ فقال بعضهم ان المراد بهم نصارى الحيرة على الاجمال وهم في الاصل قبائل كثيرة من بطون العرب ؛ اجتمعوا على النصرانية في الحيرة ؛ ومعظمهم على المذهب النسطوري ؛ وابتنوا هناك بيعة كبرى لهذه الطائفة تولاها عدة اساقفة ؛ وزادت اهميتها على الخصوص بعد ان تنصر ملوكها ؛ يدل على ذلك كثرة ما بنوه من البيع والاديار ؛ هم ونساءوهم وبناتهم اللواتي كانت لهن العناية في انشاء المعابد ومعاهد الدين ؛ اشهرها جميعاً دير هند الكبرى في الحيرة ؛ بنته هند ؛ ام الملك عمرو بن هند ، اي زوجة المنذر ابن ماء السماء الذي مر ذكره ؛ وكان على صدر الدير نقش هذا نصه :

« بنت هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر ؛ الملكة بنت الاملاك ؛ وام الملك عمرو بن المنذر ؛ آمة المسيح وام عبده وبنت عبيده ؛ في ملك ملك الاملاك خسرو أنو شروان ؛ في زمن مار افريم الاسقف ؛ فالاله الذي بنت له هذا الدير يغفر لها خطيئتها ويترحم

عليها وعلى ولدها ويقبل بها وبقومها الى امانة الحق ؛ ويكون الله معها ومع ولدها الدهر الداهر » .

وهي هند بنت الحارث بن عمرو الكندي الذي اجلسه قباذ على عرش الحيره ثم طرده صهره ابن ماء السماء بعد حين؛ كما تقدم.

* * *

٢

سيادة اللخميين

قلنا في روايتنا الاولى ، ان قبائل كثيرة في بادية الشام والعراق والجزيرة والحجاز والبحرين ؛ كانت من اهل الرحلة لا دولة لها ولا جند ، ولا حصون ولا قلاع ، يتولى امرها رؤساؤها والامراء

وكانت دول ذلك الزمان تتسابق الى الاستعانة بهم واخضاعهم ، كالغساسنة وآل لخم والكنديين ؛ حتى اصبح عرب الشمال جميعهم سبباً للتنازع بين هذه الدول الثلاث ، وسبباً لحروب كثيرة طال امرها حتى ابعدت الاخ عن اخيه وجعلت ابناء القبيلة الواحدة خصوماً واعداء .

والقبائل نفسها ؛ من وجه آخر ، كانت تتسابق الى الدخول تحت حماية احدى الدول الثلاث ، لما فطر عليه اهل البادية من حب الغزو والرغبة في القتال ، فكانت القبيلة منها تستنجد عند الحاجة دولة منظمة يحميها جندها من غارات العدو ؛ وقد تتسابق الى التقرب منها لتفاخر

جارتها بخدمتها ؛ كما كان بنو يربوع مثـــلا ؛ يتفاخرون بردافة ملوك الحيرة .

وبقيت الحال على هذه الصورة زمنا طويلا ، كان الانتماء فيه الى احدى تلك الدول المتحضرة فرضا واجبا ، فمن لا ينتمي الى دولة منها سموه « الاحمس » والجمع الحمس » (١) واشهر هؤلاء الحمس في الجاهلية حمس قريش ؛ لانهم كانوا مستقلين في امورهم وكعبتهم لا يدينون لاحد « ياقوت» .

على ان تلك القبائل ؛ كانت اكثر تعظيما لامر دولة اللخميين ؛ منها لدولة آل غسان ؛ واشد رغبة في الانضمام اليها والدخول في حمايتهـــا فامتد نفوذ آل لخم في بلاد العرب ؛ واتسعت دولتهم اتساعاً كبيرا يمد لهم الفرس يد المساعدة لا سيما في ايام ضعف الروم وقوة دولة الاعجام

وليس من الهين ان نعين حدود دولة العراق ؛ فتلك الحدود تطوى وتنشر على مر الزمان وتبدل الاحوال فلا تقع تحت حصر وتحديـــد ؛ ولكن في التاريخ شواهد كثيرة ؛ على ان هذه الدولة ؛ كانت دولة مجد وعمل ؛ وملوك آل لخم كانوا مرجع اللاجئين والمستنجدين ؛ ومجالسهم كانت مجالا واسعاً للشعراء والمادحين .

* * *

---

(١) الاحمس : الصلب في الدين والقتال ، الشجاع

٣

ديانتهم

كذلك اختلف المؤرخون والباحثون في ديانة ملوك الحيرة ؛ فمنهم من قال انهم تنصروا في ايام امرىء القيس الاول ابن عمرو بن عدي ملكهم الثاني ؛ في اوائل القرن الرابع ومنهم من قال ان اول من تنصر من اولئك المللوك ؛ النعمان بن المنذر الذي نكتب روايته الآن ؛ في آخر الجيل السادس .

على ان هنالك ؛ في تلك الفترة من الزمان ؛ اي من اوائل القرن الرابع الى آخر القرن السادس ؛ اقوالا كثيرة وآراء متناقضة ؛ ليس من الاخلاص في خدمة العلم؛ ان نرفضها اونجزم بصحتها ؛ لان اختلاف القائلين فيها ، اختلاف صريح يبعد فيه الواحد عن الأخر بعداً شاسعاً كثير المصاعب والعراقيل.

ولكن ذلك الاختلاف ؛ لا يمنعنا من ان نذكر للقارىء العزيز كل ما نعرفه عن هذا الامر ؛ مستندين الى بعض هذه الاقوال والى قوة الاستنتاج .

« لقد جاء في سجل الكنيسة الشرقية ؛ ان الحيرة كان عليها اسقف سنة ٤١٠ ، وان ملكها حمى النصرانية سنة ٤٢٠ » .

وانت ترى ، ان هذا القول ، من جهة ، لا يثبت ان ذلك الملك النعمان « الاول الاعور » الذي حمى المسيحيين كان مسيحياً ، فقد تكون

السياسة قضت عليه في ذلك الحين ، بهذه الحماية ؛ وليس من المعقول ؛ من الجهة الاخرى ؛ ان تكون للمسيحيين في العراق جامعة ، تجمعهم . واسقف برأسهم ، في ظل ملك وثني يعبد الصنم ويذبح له الذبائح من البشر

وجاء ايضاً « ان النساطرة واليعاقبة اشتد جدالهم في اوائل القرن السادس ، وتنافسوا في الرئاسة ففاز الاولون . وان ملوك الحيرة كانوا الى أواسط الجيل المذكور على الوثنية . وان المنذر بن امرىء القيس ابن ماء السماء كان يتقدم ذبائحه الى العزى . وكان بين نسائه امرأة اسمها هند الكبرى . كانت مسيحية . فبثت مبادىء النصرانية في ابنها عمرو بن هند . فنشأ نصرانيا . يؤيد ذلك ما نقشته على ديرها وقد مر ذكره »

والذي نراه ان الملك من ملوك الحيرة لم يكن يتبع اباه في دينه . فقد يكون ابوه وثنياً فينشأ هو على دين المسيح . وقد يكون مسيحياً فيؤثر هو عبادة الاصنام . تبعاً لحالات الملك والسياسات في ذلك الزمان

اذاً فملوك آل لخم لم يكونوا كلهم مسيحيين . كما انهم لم يكونوا من عبادة الاوثان

واما سكان الحيرة . فثابت في تواريخ العرب واقوال المستشرقين ، بل هو ثابت من الآثار التي اكتشفوها هناك . ان معظمهم كان من العباد النصارى

تلك هي نظريتنا في الحيرة وملوك الحيرة الذين نكتب تاريخهم في الفصول التي ستقرأ

اما عدد هؤلاء الملوك . فاثنان وعشرون ملكاً ، ستة عشر من نسل

عمرو بن عدي من آل نصر او لخم . وستة ملوك دخلاء ألبسهم ملوك الفرس تاج العراق . وهم اوس بن قلام ، والحارث بن عمرو بن حجر الكندي، وعلقمة بن يعفر ، واياس بن قبيصة ، وزيد بن حمار ، وزاديه الفارسي ، وعاصمة ملكهم جميعاً ، الحيرة ، وقد ملكوا ثلاثمائة وستين سنة كما سيجيء

٤

واول هؤلاء الملوك :

عمرو بن عدي

هو ابن اخت جذيمة ، استخلفه خاله على ملكه يوم ذهب الى الزباء، وجعل عمرو بن عبد الجن الجرمي على خيوله كما مر في الرواية الماضية ، فلما قتل جذيمة ، انقسم الناس في الحيرة قسمين ، فريق يؤيد عمرو بن عدي ، والاخر عمرو بن عبد الجن الجرمي ، حتى كاد يتفاقم الشر وتنشب الحرب ، لولا (قصير) عبد جذيمة الامين ، الذي اصلح بين الاثنين وجعل ابن عبد الجن ينقاد لابن عدي ويعترف له بالملك

وقضى عمرو بن عدي أيامه موفقاً في ملكه ، ويقول العرب انه عاش مائة وعشرين سنة وهو قول فيه غلو على ما نرى ؛ فقد تولى الملك سنة ٢٦٨ وتوفي سنة ٢٨٨ ؛ اي ان مدة ولايته كانت عشرين سنة فلا يعقل ان يتولى ملك العراق وهو ابن مائة

ثم خلفه ابنه :

امرؤ القيس بن عمرو

« وهو امرؤ القيس الاول ويقال له البدء ، وقد اتسع سلطانه وطالت ايام ملكه ؛ فبالغ العرب فيها فجعلها بعضهم مائة سنة وبعض المائة وهي لا تزيد على الاربعين

وامرؤ القيس اول ملك من ملوك العراق عثر النقابون على اسمه محفوراً على قبره وفيه تاريخ موته

وحكاية ذلك . ان المستشرق الفرنسي ، دوسو ، عثر في خرائب النمارة « قصر من قصور الغسانيين في حوران » على حجر من الباسليت مربع الشكل . طوله اربعة امتار واربعون سنتيمتراً . وعرضه ثلاثة امتار وثلاثون سنتيمتراً هو العتبة العليا لقبر هذا الملك . وعليه خمسة سطور كتبت بالحرف النبطي واللسان العربي الشمالي . اي بلغة بني عدنان وليس بالحرف المسند او اللغة الحميرية لغة آل قحطان . والحرف النبطي اقدم الحروف العربية التي قرأوها منقوشة على الاثار . والخط العربي الشائع بيننا الآن ، مأخوذ من ذلك الحرف الذي كان شائعا في مملكة الانباط.

وهذه صورة الكتابة التي قرأها دوسو على عتبة القبر :

« هذا قبر امرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي تقلد التاج واخضع قبيلتي اسد ونزار وملوكهم وهزم مذحج الى اليوم وقاد الظفر الى اسوار نجران مدينة شمر واخضع معداً واستعمل بنيه على القبائل وانابهم عنه لدى الفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه الى اليوم ، توفي

سنة ٢٢٣ في اليوم السابع من ايلول وفق بنوه للسعادة »

وكان اهل الشام وحوران وما جاورهما يؤرخون بالتقويم البصروي (نسبة الى بصرى عاصمة حوران) الذي يبدا بدخولها في حوزة الروم سنة ١٠٥ للميلاد. فاذا اضفنا ١٠٥ ان ٢٢٣ ، كان المجموع ٣٢٨ وهي السنة التي توفي فيها هذا الملك

ويرى المستشرق الفرنسي الآخر . موسيو كليرمون غانو . ان لفظة التاج في السطور التي قرأت . كافيـة وحدهـا للدلالة عـلى ان امرأ القيس هذا هو ملك الحيرة . وذو علاقة بملوك الفرس وان وجـدوا قبره في ارض تابعة حوران . ذلك لان لقب (ذي التاج) من القاب ملوك الحيرة .

واما وجود قبره في منطقة نفوذ الشام بعيداً عن العراق . فسببه انه كان ذا علاقة بالقبائل النازلة ببادية الشام ، وقد قدم حوران في مهمة أو شأن له فتوفي فيها ، فبنوا له هنالك قبراً ودفن فيه

ويقول عنه ابن خلدون : « انه كان عاملا للفرس على مذحج ؛ من ربيعة ومضر ، وعلى سائر بادية العراق والجزيرة والحجاز

ويقول دوسو « Dussand » انه كانت بينه وبين الشام علاقات ود وولاء فدفنوه في أرض رومانية وكتبوا على قبره بالحرف النبطي ؛ قـبل ولاية الشام ؛ وأرخوه بتاريخها .

وبعد موته تولى الملك ولده.

عمرو بن امرىء القيس

من سنة ٣٢٨ الى سنة ٣٧٧ ؛ وامه هند بنت كعب ؛ وطالت مدة حكمه كما ترى ولكن ملكه كان ملك راحة وسلام لا يذكر التاريخ عنه شيئاً

فلما مات ؛ رأى ملك الفرس ؛ « أزدشير الثاني ابن سابور ذي الاكتاف » ان يهب تاج العراق لرجل دخيل في دولة آل نصر ؛ يدعى أوس بن قلام ؛ فاستأثر بالملك خمس سنين ؛ حتى قتله امرؤ القيس الثاني ابن عمرو ؛ وتربع باذن ملك الفرس ؛ في عرش اجداده

وامرؤ القيس هذا ؛ يعرف بالبدن ؛ اي السمين الضخم الجسم ؛ كما انه يعرف ايضاً ؛ بالمحرق الاول ؛ لانه اول من عاقب بالنار ؛ وبقي ملكاً احدى وعشرين سنة وقد عاصر من ملوك الفرس ؛ سابور بن سابور شقيق ازدشير ؛ وبهرام بن سابور ؛ ويزدجرد الاول ؛ وليس عندنا من اخباره ما يستحق ان يذكر ؛ الا ظلمه وقتل المغضوب عليهم في بحور من اللهيب ؛ وكان موته في سنة ٤٠٣

وجاء بعده ولده

النعمان الاول الاعور « السائح »

وهو من اشهر ملوك الحيرة وأعظمهم شأناً وابعدهم مغاراً ؛ غزا الشام اكثر من مرة فقتل من قتل ؛ وخرب ما خرب . واتخذ لجيشه

نظاماً خاصاً عرف به . وكان ظالماً مستبداً . قوياً صارماً . لا يراجع في شأن من شؤونه . ولا تجادله خاصته في امر يرغب فيه

وذهب للنعمان صيت عظيم في بلاد العرب . وعرفت له القبائل قوته وحزمه . وضبط امور الملك . فنامت على جوره وجنائه . وأدت اليه كل صنوف الخراج الباهظ الذي ضربه وهي صاغرة

فاجتمع له من الذهب والخدم والعبيد والخول ؛ ما لم يجتمـــع مثله لاحد سواه من ملوك العراق لا قبله ولا بعده

فلما كثر ماله واستغنى ، وتبسط في العيش ما شاء التبسط والرفاه رأى ان يحدث في الحيرة حدثا يخـــلد اسمه . فبنى قصره « الخورنق » المشهور على مرتفع من الارض يشرف على النجف من جهة الغرب . وعلى الفرات من جهة الشرق . بناه له رجل يقال له « سنمار »

فلما فرغ من بنائه جاء تحفة في فن البناء . ذلك الفن القديم الضخم الذي يهزأ بمر الاجيال . فقال له الملك وخاصته. لقد احسنت يا سنمار. فقال « لو علمت انكم توفونني اجري وتصنعون بي ما انا اهله لبنيته بناء يدور مع الشمس حيث ما دارت » !

فقال النعمان : « وانك لتقدر على ان تبني ما هو افضل منـــه ثم لم تبنه »

وامر فقذفوا به من أعـــلى برج مـــن ابراج الخورنق فتحطمت عظامه

وفي ذالك يقول ابو الطمحان القيني :

جزاء سنمار جزاها وربهـــا وباللات والعزى جزاء المكفر

وقال سليط بن سعد :

جزى بنوه ابا الغيلان عن كبر　　وحسن فعل كما يجزى سنمار

وقال عبد العزى بن امرىء القيس الكلبي ، من قصيدة يخاطب بها قومه وهو يعني الحارث ابن مارية الغساني:

جزاني جزاه الله شر جزائه　　جزاء سنمار وما كان ذا ذنب

سوى رصه البنيان عشرين حجة　　يعل عليه بالقراميد والسكب

فلما راى البنيان تم سحوقه　　وآض كمثل الطود ذي الباذخ الصعب

وظن سنمار به كل حبرة　　وفاز لديه بالمودة والقرب

فقال اقذفوا بالعلج من فوق برجه　　فهذا لعمر الله من اعجب الخطب

وجلس النعمان يوماً في مجلسه من الخورنق ، فأعجبه ما رأى في مدينته وما جاورها من الخضرة والانهار ، والنخيل والرياحين ، ورعي الابل وصيد الظباء . وفي الفرات من الملاحين والغواصين . وفي قلب المدينة من قبائل تروح ووفود تجيء . ففكر في ذلك كله وقال يوماً لوزيره :

« هل رايت مثل هذا المنظر قط ؟ »

« فقال : لا ، لو كان يدوم لك »

« قال وما الذي يدوم ؟ »

« قال : ما عند الله في الآخرة »

« قال : فبم يُنال ذاك »

« قال : بترك الدنيا وعبادة الله »

فقال في نفسه : « اي درك في هذا الذي ملكته اليوم ويملكه غد

غيري» و بعث الى حجابه نحاهم عن بابه ، وابعد الحرس والخاصة، ولما جن الليل التحف كساءه وساح في الارض فلم يره احد بعد ذلك

وكان النعمان متزوجاً الى زهير بن قيس بن جـــذيمة سيد بني عبس واسم زوجته هذه المتجردة .

اما تركه قصره ، وهجره عرش آبائه ، فكان سنة ٤٣١ للمسيح .

وتولى ابنه :

المنذر بن النعمان

الذي له فضله الاكبر على بهرام جور . ملك الفرس وحكاية ذلك: ان يزدجرد والد بهرام . دعا بالمنذ بن النعمان . وشرفه واكرمه وملكه على العرب بعد ابيه ودفع اليه بهرام ولده ليربيه وكان طفلا . فاختـــار لمنذر نساء ثلاثا من بنات الاشراف ليرضعن الصبي. ثم احضر له المؤدبين والرماة فعلموه الكتابه والرمي والفقه . ثم نبغ في ركوب الخيل والصيد وانصرف بعد ذلك الى اللهو حتى مات ابوه وهو في الحيرة

فتعاهد اشراف الفرس على ان لا يملكوا احدا من سلالة يزدجرد لسوء سيرته فيهم . وملكوا عليهم رجلا من ولد ازدشير بن بابك

فاستنصر بهرام بالمنذر . فنصره ورد اليه التاج بالسيف ، واطاعه الجميع في حديث طويل رواه الطبري وابن الاثير لا مجال لذكره في هذه السطور

ولكن بهرام ظل على لهوه حتى طمع به ملك الترك فعاد الى رشده

وحاربه فظفر به

واعانه المنذر ايضا في حروب كثيرة منها حربه مع الروم . وذلك ان بهرام اضطهد النصارى في بلاده . فاتخذها الروم وسيلة الحرب طمعا بالفتح — كما يفعل الفاتحون اليوم — فنشبت الحرب بين الدولتين وحاصر الروم نصيبين

فعاد بهرام الى المنذر يستنجد به فلباه . ثم اكتسح له سوريا فأمعن رجاله فيها في القتل والسلب . فدب الذعر في قلوب الروند وعمدوا الى الصلاة يستعيذون بالله من ذلك الاسد العربي . ولولا تلك الثورة التي حدثت في معسكر المنذر . لدخل القسطنطينية عاصمة الروم مع رجال الفرس . وغير وجه اوروبا . كما غيره بعد ذلك باكثر من عشرة جيال . محمد الفاتح ملك العثمانيين .

وانتهت تلك الحرب الكبرى بعقد صلح بين المتحاربين

اما مدة حكم المنذر فاثنان واربعون سنة اي انه مات سنة ٤٧٣ وخلفه على عرش العراق ابنه :

الاسود بن المنذر

الذي مر ذكره في رواية الحارث الاكبر واشتهر بحرب بينه وبين آل غسان فأسر بعض امرائهم . ثم اغراه ابو اذينة بن عمه على قتلهم بقصيدة مطلعها : « ما كل يوم ينال المرء ما طلبا » فقتلهم كما رأيت . وليس له في تاريخ العرب ما يهم القارىء الاطلاع عليه غير

هذه الحادثة المشار اليها.

وكانت مدة ملكه عشرين سنة انتقل الملك بعدها الى اخيه المنذر ابن المنذر «سنة ٤٩٣» وليس لهذا في السنوات السبع التي قضاها على عرش الحيرة خبر جدير بالاهتمام .

مات في سنه ٥٠٠

فلبس تاج العراق بعده:

النعمان الثاني بن الاسود

ولم يذكر العرب عنه شيئا . غير ان مؤرخي اليونان يقولون : انه حارب الروم في سوريا والجزيرة . وقضى مدة حكمه القصيرة خارج الحيرة يشتغل في هذه الحروب

وفي ايامه تعدت بكر وتغلب على حدود ملكه فارسل اليهم جيشا فهزموه وقتلوا منه الخلق الكثير ، وفي تلك السنة نفسها سنة ٥٠٤ . مات في الرها ، وهو يحاصرها مع قياذ ، والد كسرى انوشروان

كذلك لم يورد المؤرخون خبرا هاما عن علقمة ابي يعفر ، الذي خلفه ، وعلقمة من غير آل نصر لم يملك الا ثلاث سنين

وكذلك قل عن امرىء القيس بن النعمان . الذي تولى الملك سنة ٥٠٧ وتوفي سنة ٥١٤

ولكن خليفة امرىء القيس هذا ،ملك عظيم الشأن جدا كثير العمل. ومن اعاظم الرجال الذين خلدت ذكرهم الاجيال هو :

المنذر بن امرىء القيس

المعروف بابن ماء السماء ، والذي قتله لبيد بن عمرو الغساني ، في يوم اباغ . وقد مر ذكر ذلك في الجزء السادس من روايتنا الماضية والحارث بن عمرو الكندي . الذي نازع ابن ماء السما الجلوس على عرش الحيرة كما تقدم . تدخل مدة حكمه بمدة حكم مزاحمة . وقد عرفت كيف انتهى امره وقتل في بني كلب . وكان قتل ابن ماء السماء في سنة ٥٦٣ تاركا الملك من بعده لولي عهده:

عمرو بن هند

ويعرف هذا الملك باسم امه هند ، بنت الحارث الكندي المشار اليه . وبنت عمة امرىء القيس الشاعر . وهي التي بنت في الحيرة ذلك الدير الكبير الذي يشبه القلاع . وقد تقدم ذكره في اول هذا الجزء .

ولدت هند لابن ماء السماء عمراً هذا وقابوساً

وكان عمرو جبارا عظيم السلطان كثير الزهو والعز . اشتهر بواقعة عظيمة يوم اوارة الثاني ، مع بني دارم . وبحرب اخرى مع بني تميم . غزاهم في دارهم وظفر بهم

وامعن عمرو في الكبرياء فقام في ذهنه انه صاحب الفضل على جميع الناس وليس بين امراء العرب من لايحني له رأسه ويعترف بسلطانه

فقال يوماً لجلسائه : هل تعلمون أحدا من العرب تأنف امه من

خدمة امي ؟

فقالوا : ما نعرف احدا الا ان يكون عمرو بن كلثوم التغلبي

قال : ولماذا ؟

قالوا : لان امه ليلى بنت مهلهل بن ربيعة . وعمها كليب وائل أعز العرب ،وزوجها كلثوم بن مالك أفرس العـــرب . وابنها عمرو وهو سيد قومه

فسكت ابن هند على مــــا في نفسه . وبعث الى ابن كلثوم يسأله ان يزوره وتزور امه امه

فأقبل عمرو من الجزيرة الى الحيرة في جماعة بني تغلب . واقبلت امه ليلى بنت مهلهل في ظعن من بني قومها . ونزلوا على شاطىء الفرات

فامر عمرو بن هند ، فضربت خيامه بين الفرات والحيرة . وصنع طعاما دعا اليه وجوه أهل دولته . فدحل عموو بن كلثوم على عمرو بن هند في رواقه . ودخلت ليلى على هند . في قبة لها في جانب ذلـــك الرواق

وكان ابن هند قد قال لامــــه ان تنحي الخدم اذا دعــــا بالطُرَف وتستخدم ليلى . ومدت المائدة . ثم دعا الملك اللخمي بالطرف فقالت هند لليلى « ناوليني يا ليلى ذلك الطبق »

فقالت ليلى : « لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها »

فاعادت عليها وألحت . فصاحت ليلى : واذلاه يا آل تغلب .

فسمعها ولدها ابن كلثوم فثار الدم في وجهـــه والقوم يشربون . ونظر اليه ابن هند فعرف الشر . فوثب ابن كلثوم الى سيف ابن هند

، وهو معلق بالرواق وليس هناك سيف غيره . فضرب به رأس بن هند فقتله وخرج من السرداق وهو ينادي يا آل تغلب :

فانتهبوا ما في الرواق وساقوا خيله وساروا نحو الجزيرة . وفي ذلك يقول عمرو بن كلثوم معلقته المشهورة التي مطلعها :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الاندرينا

ومنها: أبا هند فلا تعجل علينا وانظرنا نخبرك اليقينا

بأنا نورد الرايات بيضاً ونصدرهن حمراً قد روينا

وكان قام بها خطيباً في موسم مكة ، وبنو تغلب يعظمونها جداً ويرويها كبارهم وصغارهم حتى هجتهم العرب بذلك فقال بعض شعراء بني بكر :

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

يروونها أبدا مذ كان أولهم يا للرجال لشعر غير مسؤوم

وملك بعد ابن هند ، اخوه قابوس من سنة ٥٧٨ الى سنه ٥٨١ ، ملكا ضعيفا لينا دعته العرب فتنة العرس ، وليس في حربه مع بني يربوع يوم طخفة ما يستحق الذكر في هذه الفصول

واختلف اهل الحيرة فيمن يملكونه الى ان يعقد كسرى انوشروان الامر لرجل . فأشار عليهم احد عظماء الفرس المقيمين في الحيرة ، بيزيد بن حمار . وسيأتي ذكره ، وهو ليس من سلالة الملوك اللخميين ، فكان على الحيرة سنة واحدة الى ان ملك كسرى المنذر اخا قابوس وهو والد النعمان الثالث الذى نكتب روايته الآن

فلما ملك ؛ جعل ولده النعمان الثالث ، في بيت عدي بن زيد ،

فرباه عدي ، وجعل ولدا له آخر يقال له، الاسود ، في بيوت قوم يقال لهم ؛ بنو مرينا ، ينتسبون الى لخم وهم من اشراف العراق

وكان للمنذر غير هذين الولدين ، عشرة اولاد يعرفون بالاشاهب قيل لهم ذلك لجمالهم وحسن وجوههم ، وفيهم قال اعشى بن قيس ابن ثعلبة

وبنو المنذر الاشاهب في الحيرة يمشون غدوة بالسيوف

واستبد المنذر بالناس ما شاء الاستبداد والظلم ؛ واخذ من اموالهم ما أعجبه ، ولم يكن ذلك الرجل الحكيم العادل الذي يحفظ له التاريخ العربي الاثر الخالد

ففسد امر الحيرة ، وتعاهد اهلها على قتله ، فلما تيقن انهم اجمعوا على ذلك ، بعث الى زيد بن حمار ، وكان على الحيرة قبله كما مر وقال له :

يا زيد ، انت خليفة اخي قابوس وقد بلغني ما اجمع عليه اهل الحيرة من امر قتلي ، فهذا ملككم لا حاجة لي اليه فملكوه من شئتم

فقال له زيد : ان الامر ليس الي ولكني اسبر لك غوره وانصح لك

فلما اصبح زيد ، غدا اليه الناس فحيوه تحية الملك وقالوا له :

الا تبعث الى عبدك الظالم « يعنون المنذر » فتريح منه الرعية ؟

فقال لهم : بل نفعل خيراً من ذلك

قالوا : اشر علينا

قال : تدعونه على حاله فانه من اهل البيت المالك وانا آتيه فاخبره

انكم قد اخترتم رجلا يكون امر الحيرة اليه الا ان يكون غزو او قتال فله اسم الملك وليس اليه سوى ذلك

فقالوا : رأيك افضل

فأتى زيد المنذر فأخبره بما قالوا ، فقبل ذلك وفرح وقال :

ان لك يا زيد علي نعمة لا اكفرها ما عرفت حق سبد « وسبد » صنم كان لاهل الحيرة »

فولى اهل الحيرة زيدا على كل شيء سوى اسم الملك فانهم اقروه للمنذر

وبقي الامر كذلك حتى هلك زيد

اما المنذر فلم تطل ايام ملكه ، فلما احتضر ، وخلف اولاده ؛ اوصى بهم الى رجل من بني طيء ؛ اسمه اياس بن قبيصه ؛ وملكه على الحيرة الى ان يرى كسرى رأيه (١)

وكانت وفاته سنة ٥٨٥

* * *

عدي بن زيد

بقي لنا ان نذكر لك حياة هذا الرجل قبل ان نبدأ بحياة النعمان فلولا عدي بن زيد لاستأثر بملك العراق واحد من ولد المنذر غير

---

(١) هو هرمز بن كسرى انوشروان

النعمان الثالث

وهذه هي حياة عدي ونسبه :

هو عدي بن زيد . بن حمار بن زيد بن أيوب . وكان من شعراء الجاهلية وله في زمانه الشعر الكثير

وكان نصرانيا ، وكذلك كان ابوه وامه وجده واهله . ولا يعدمن فحول الشعراء

اما سبب نزول قومه الحيرة . فهو ان جده ايوب بن مجروف ،كان يقيم في اليمامة في بني امريء القيس بن زيد مناة . فأصاب دما في قومه فهرب ولحق بالحيرة . وملكها يومئذ اوس بن قلام الذي مر ذكره بين الملوك

وكان بين ايوب وبين اوس بين قلام هذا نسب من جهة النساء

فلما قدم ايوب ، اكرمه اوس وانزله في داره . فمكث معه ما شاء الله ان يمكث

ثم ان اوسا قال له يوما :

يا ابن خال : اتريد المقام عندي وفي داري ؟

فقال له ايوب : نعم فقد علمت أني ان اتيت قومي وقد اصبت فيهم دماً لم اسلم . ومالي دار الا دارك آخر الدهر

قال أوس . اني قد كبرت وانا خائف ان اموت فلا يعرف اولادي لك من الحق مثل ما اعرف . واخشى ان يقع بينك وبينهم امر يقطعون فيه الرحم . فاختر احب مكان في الحيرة اليك فاعلمني به لابتاعه لك

وكان لايوب صديق في الجانب الشرقي من الحيرة يقال له ، عصام بن عبدة . فقال له :

لقد احببت ان يكون المنزل الذي تسكنيه عند منزل عصام

فابتاع له اوس منزل داره بثلثمائة اوقية من ذهب . وانفق على الدار مئتي اوقية ذهبا . ووهب له مائتين من الابل برعائها وفرسا وقينة « اي امة مغنية »

فمكث في منزل اوس حتى هلك هذا ؛ فتحول الى داره التي بناها له قبل موته.

واتصل ايوب بملوك الحيرة بعد اوس ، فعرفوا حقه وحق ابنه زيد فلم يكن منهم ملك يملك الا ولابناء ايوب منه جوائز واحسان حتى مات ايوب .

فتزوج ولده زيد امرأة من آل قلام ؛ فولدت له حمارا . فخرج زيد يوما من الايام يريد الصيد في ناس من اهل الحيرة . فانفرد في السهل وتباعد عن اصحابه . فلقيه رجل من بني امرىء القيس الذين كان لهم الثأر عند ابيه . فقال له وقد عرف فيه شبه ايوب

ممن الرجل ؟

قال : من بني تميم

قال : من ايهم ؟

قال : من بني مرة

فقال له الاعرابي . واين منزلك ؟

قال : الحيرة

قال : امن بني ايوب انت ؟

قال : سمعت بهم . ولم يقل له انه قد عرفه.

فاستوحش من الاعرابي وذكر الثأر الذى هرب ابوه منه . فقال له:

من اى العرب انت ؟

قال : انا امروء من طيء

فأمنه زيد وسكت عنه

ثم ان الاعرابي تغفل زيدا فرماه بسهم فوضعه بين كتفيه ففلق قلبه. فمات

ولبث اصحاب زيد في موضعهم ينتظرونه . فلما كان الليل طلبوه فلم يجدوه . فظنوا انه قد امعن في طلب الصيد . فباتوا يطلبونه حتى يئسوا منه .

ثم غدوا في طلبه . فاقتفوا اثره حتى وقفوا عليه وراوا معه اثر راكب يسايره . فاتبعوا الاثر حتى وجدوه قتيلا . فعرفوا ان صاحب الراحلة قتله . فمشوا في طلبه فادركوه مساء الليلة الثانية . فصاحوا به . وكان من ارمي الناس . فامتنع منهم بالنبل حتى حال الليل بينهم وبينه . وقد اصاب رجلا منهم فارداه . فرجعوا وقد قتل منهم اثنين .

فمكث حمار ولده عند امه . في اخواله بني قلام حتى ايفع وشب. فحولته الى دار ابيه وعلمته الكتابة . فكان حمار اول من كتب من بني أيوب ، فخرج من اكتب الناس

وطلب حمار حتى صار كاتب النعمان الاكبر « الاعور السائح الذي تقدم ذكره » فلبث كاتبا له حتى ولد له ابن من امرأة تزوجها من

طيء فسماه زيدا باسم ابيه

وكان لحمار صديق من عظماء الفرس يقال له فروخ ماهان ، فلما حضرته الوفاة ، اوصى بابنه زيد الى هذا العظيم الفارسي ، فاخذه اليه فكان عنده مع اولاده ، وكان قد حذق الكتابة والعربية قبل ان يأخذه اليه ، فلما صار عنده ، علمه الفارسية فنبغ فيها وكان لبيبا ، فاشار على كسرى « انو شروان » ان يجعله على البريد في حوائجه ؛ ولم يكن كسرى يفعل ذلك الا باولاد المرازبة من رجاله ، فمكث زيد يتولى ذلك لكسرى زمانا

فلما هلك قابوس ، بن المنذر ابن ماء السماء ، واختلف أهل الحيرة فيمن يملكونه الى ان يعقد كسرى الامر لرجل ، اشار عليهم ماهان بزيد بن حمار فكان على الحيرة الى ان ملك كسرى المنذر اخا قابوس، كما مر.

وولد لزيد ، عدي ، المقصود بهذه المقدمة ، والذي قلنا عنه ، انه لولاه لم يملك النعمان ، ولم تخلد له كتب العرب لا اسما ولا ذكرا .

لقد كان عدي بن زيد . من اولئك الفتيان النابغين في كل شيء . علمه ابوه وتعب في تعليمه . ولما كبر بعثه صاحبه ماهان . مع ولده شاهان مرد . الى كتاب الفارسية . فتعلم الكتابة والكلام حتى خرج من افهم الناس بهما وافصحهم بلغة العرب . ثم قال الشعر . ونبغ في الرمي واللعب على الخيل . فكان في كل فن يسبق رفاقه من ابناء الفرس وفتيان العرب .

ثم وفد ماهان مع ولده على كسرى . فبينما هما واقفان بين يديه سقط طائران على السور . فقال كسرى لماهان وابنه :

ليرم كل واحد منكما طائراً من هذين الطائرين . فان قتلتماهما ادخلتكما بيت المال وملأت افواهكما بالجوهر . ومن اخطأ عاقبته

فاعتمد كل منهما طائراً ورميا فقتلاهما جميعا .

فبعثهما كسرى الى بيت المال فملئت افواههما جوهرا واثبت اولاد ماهان في صحابته

فقال ماهان عند ذلك للملك :

ان عندي يا مولاي غلاما من العرب ربيته في حجري . فهو افصح الناس واطولهم باعا في اللغتين . والملك يحتاج الى مثله

فقال : ادعه .

فارسل الى عدي بن زيد . وكان فائق الحسن جميل الوجه. والفرس تتبرك بالجمال

فلما مثل بين يدي كسرى . رآه اظرف الناس واحضرهم جوابا فرغب فيه واثبته مع خاصته . فكان عدي اول من كتب بالعربية في ديوان انوشروان.

فاحترم اهل الحيرة عديا ورهبوه .

واقام في المدائن . في ديوان الملك . يؤذن له عليه مع الخاصة وكسرى معجب به قريب منه . وابوه زيد بن حمار يومئذ حي

الا ان ذكر عدي قد ارتفع وخمل ذكر ابيه . وملك المنذر اخو قابوس . فاحب عديا . ووثق به الوثوق كله . فاذا دخل عليه في مجلسه قام جميع ما عنده حتى يقعد عدي . فانتشر ذكره وبعد صيته

وكان اذا اراد المقام بالحيرة . في منزله ومع ابيه واهله . استأذن

كسرى فاقام فيهم الشهر والشهرين . واكثر واقل . ثم يعود الى المدائن

وبقي على هذا حتى مات كسرى انوشروان وخلفه ابنه هرمز . فعرف مقام عدي . فقربه اليه وانزله بالمكان الذي انزله به ابوه قبله .

وفي ذلك الحين ، دفع اليه الملك المنذر ولده النعمان ليربيه كما مر ، فاحتضنه واحسن تربيته .

وكانت الدولتان ؛ الفرس والروم ؛ قد عقدتا صلحاً بعد حروب طويلة دامت اجيالا فارسل كسرى « هرمز » عدي بن زيد ، الى طيباريوس ملك الروم . بهدية من طرف بلاده .

فلما اتاه عدي ، اكرمه وحمله الى اعماله على البريد ليريه سعة اراضيه وعظيم ملكه وكذلك كانوا يصنعون .

ثم لحق عدي بالشام وقال فيها الشعر .

وفي تلك الايام ، فسد امر الحيرة كما ذكرنا ، وتولى امرها ابوه زيد ، تاركاً للمنذر اسم الملك وقد قرأت ذلك .

ولكن اباه لم يلبث حتى هلك وهو في الشام ؛ وكانت لزيد الف ناقة اعطاه اياها اهل الحيرة حين ولوه ما ولوه ؛ فلما مات ، ارادوا اخذها ، فبلغ ذلك المنذر ، فقال : لا واللات والعزى لا يؤخذ مما كان في يد زيد شيء وانا اسمع الصوت.

ثم ان عديا قدم المدائن على كسرى بهدية قيصر ، فرأى اباه وماهان الذي رباه قد ماتا ، فاستأذن كسرى في الذهاب الى الحيرة فاذن له وتوجه اليها .

فلما عرف المنذر خرج لاستقباله ، مع اعيان الحيرة وعظمائها ورجال

الدولة فرجع معهم وهو في نظرهم انبل اهل العراق ولو اراد ان يملكوه لملكوه ، ولكنه كان يؤثر الصيد واللهو على الملك .

فمكث على ذلك زماناً ، يبدو في فصلي السنة ، فيقيم في « جفـــير » ويشتو بالحيرة ؛ ويأتي المدائن في خلال ذلك فيخدم مولاه ملك الملوك .

وكان يحب بني يربوع « بطن من بطون بني تميم » ولا يؤثر بـــلادا على بلادهم ، ولا ينزل في حي من احياء بني تميم غيرهم ، وكان اصحابه من العرب ، كلهم بني جعفر ، وإبله ترعى في بلاد بني ضبة وبني سعد لا تجاوز هذين الحيين.

* * *

ذلك كان شأن عدي بن زيد ومنزلته ومقامـــه ، عند كسرى وفي الحيرة ، يلجأ اليه ذووا الحاجات فيقضيها ، وينظر في امور العربان وهو في منزل من منازله ، فيصدر ملك الحيرة عن رأيه لا يخالفه فيه

وبقيت هذه حاله حتى قتل المنـــذر كما تقدم ، وخلفه على الحـــيرة « بالوكالة » اياس بن قيصة الطائي

فاخذ كسرى يطلب رجلا يوليه امر العراق فلم يجد احدا يرضـــاه فضجر وقال لجلسائه :

«لابعثن الى الحيرة اثني عشر الفا من الرجال ، على رأسهم قائد من الفرس ، فينزلوا على العرب في دورهم ويملكوا عليهم اموالهم ونساءهم .

وكان عدي بن زيد واقفا بين يديه ، فاقبل عليه وقال :

ويحك يا عدي ، الم يبق من آل منذر احد فيه خير ؟

فقال : نعم يا مولاي ان في ولد المنذر لبقية فيهم كلهم خير .

فقال : ابعث اليهم فاحضرهم .

فبعث اليهم عدي فحضروا ، وهم اثنا عشر فتى من احسن الناس وجوها

وكان النعمان الذي رباه عدي ، احمر ابرش قصيرا ؛ وامــه سلمى بنت وائل بن عطية الصائغ من اهل فدك

فلما نزلوا على عدي قال للنعمان في خلوة :

لست املك غيرك على الحيرة ، فاذا رأيت اني افضل اخوتك عليك في النزول فلا تستوحش ، فهكذا تقضي السياسة

ثم كان يفضل اخوة النعمان عليه جميعا ، في الاكرام والملازمــة ، ويتنقص اخاهم امامهم ، ويظهر لهم انه لا يريده ملكا بل هو لا يصلح للملك ولا يتم امر التاج العراقي على يده .

وجعل يخلو بهم واحداً واحداً فيقول :

« اذا ادخلتكم على الملك ، فالبسوا افخر الثياب واجملها ، واذا دعا لكم بالطعام لتأكلوا فتباطأوا في الاكل وصغروا اللقم ، فاذا قال لكم اتكفوني العرب ؟ فقولوا نعم ، فاذا قــال لكم : فان شذ احدكم عن الطاعة وأفسد أتكفوننيه ؟ فقلوا لا ان بعضنا لا يقدر على البعض الآخر وذلك ليهابكم ولا يطمع بكم ، ويعلم ان للعرب منعة وبأساً

فقبلوا ذلك منه

ثم خلا بالنعمان فقال له :

ألبس ثياب السفر وادخل متقلداً سيفك ، واذا جلست للاكل فعظم اللقم واسرع المضغ والبــلع ، وزد في الاكل وتجوع قبل ذلك ، فان

كسرى يعجبه كثرة الاكل من العرب خاصة ، ويرى انه لا خـــير في العربي اذا لم يكن أكولاً شرها ، لا سيما اذا رأى غير طعامه ، وما لا عهد له بمثاله ، واذا سألك : هل تكفيني العرب ، فقل نعم ، فاذا قال لك فمن لي باخوتك ، فقل له ان عجزت عنهم فاني عن غيرهم لاعجز .

اما ابن مرينا ، ذلك الذي نشأ الاسود اخو النعمان في ديار قومه ، فقد احس بمـــا يفعل عدي بن زيد ، فكرة ان يملك صاحب عدي ولا يملك صاحبه ، فقال للاسود يوماً :

ما الذي اوصاك به عدي بن زيد ؟

فقص عليه القصة . فقال ابن مرينا وهو نصراني :

والصليب والمعمودية لقد غشك عدي وما نصحك . فان اطعتني فخالف كل ما امرك به لتصير ملكا . والا فقد ملك اخوك النعمان . ولا يعرك ما تظاهر به من اكرامك فان في ذلك دهاءً ومكراً .

فقال له الاسود :

ان عديا نصحني وهو اعلم بكسرى منك . فان خالفتـــه اوحشته فيفسد علي الامر . ولولاه لما استقدمنا كسرى ولما فكر في احدنا .

فقطع ابن مرينا أمله . فقال :

ستندم ولكن بعد فوات الوقت

ودعا بهم كسرى

فلما دخلوا عليـــه . اعجبه جمالهم وكمالهم . ورأى رجالاً قلما رأى مثلهم

فاخذ يحدثهم عن احوال العراق وشؤون الحيرة .

ثم دعا لهم بالطعام ففعلوا ما امرهم به عدي . فجعل ينظر الى النعمان من بينهم ويتأمل اكله .

فقال لعدي بالفارسية :

ان يكن في احد منهم خير ففي هذا .

فلما غسلوا ايديهم . جعل يطلبهم واحداً واحداً فيقول له :

اتكفيني العرب ؟

فيقول : نعم اكفيكها كلها الا اخوتي .

حتى انتهى الى النعمان آخرهم فقال :

اتكفيني العرب ؟

قال : نعم

قال : كلها ؟

قال : نعم

قال فكيف لي باخوتك ؟

قال : ان عجزت عنهم فانا عن غيرهم اعجز .

فقال كسرى : لا يصلح للملك سواك .

فملكه ، ثم دعا قهرمانه وقال :

علي بخلعة الملك .

ثم ألبسه تاجاً قيمته ستون ألف درهم فيه اللؤلؤ والذهب

فلما خرج وقد ملك . قال ابن مرينا للاسود

« دونك عقبى خلافك لي .

ثم ان عدياً صنع طعاما في بيعـــة « أي في معبد » وارسل الى ابن

مرينا ان يأتيه بمن احب فان لـــه اليه حاجة . فأتى ابن مرينا في ناس فتغدوا في البيعة .

فقال عدي لابن مرينا :

« يا عدي . ان العاقل هو من عرف الحق ولم يلم عليه . واذا قـــد عرفت ان صاحبك الاسود بن المنذر كـــان احب اليك ان يملك من صاحبي النعمان . فلا تلمني على شيء كنت على مثله واذا لا احب ان تحقد شيئا لو قدرت وقعت فيه . فاعطني من نفسك ما اعطيك من نفسي . فأن نصيبي في هذا الامر ليس بأوفر من نصيبك.

ثم قام الى البيعة فحلف ان لا يهجوه ابداً ولا يبغيه غائلة .

فلما فرغ عدي بن زيد . قام بن مرينا «واسمه عدي ايضاً » فحلف قائلاً :

اني سأهجوك ما دمت حيا وابغيك الغوائل ما بقيت .

ثم قام فخرج وصدره يغلي من الغضب

فنشأت العداوة منذ ذلك الحين بين الاثنين . وهي عداوة ما انتهت عند حد .

* * *

٥

النعمان الثالث

تولى الملك في سنة ٥٨٥ بعد أبيه المنذر ، وهو فتى لم يجاوز العشرين من عمره ، لا عهد له بالاحكام ، وليس عنده من الخبرة وصدق النظر ما عند الرجال المجربين

كان في بيت عدي ، طـالب علم لا طالب ملك ؛ ينصرف الى الكتابة ثم الى الصيد ، فاذا مل الاثنين خرج مع اصحابه ، من ابنـاء الاعيان الى ميادين السباق .

ولم يكن ولي عهد ليطمع بالملك ، ثمانية من اخوته اكبر منه ، وهو دميم الخلقة وهم حسان الوجوه ، وكلهم اكثر مالاً منه فقد كان مسرفا الى حد التبذير ، يبيع من ارضه ليشتري الخيول الحمر .

يدلك على فقره ، انه عندما دعي الى المدائن بامر كسرى كما رأيت ، اعطاه جابر بن شمعون الاسقف احد بني قلام ، ثمانين الفا يستعين بها في بلاد الفرس .

ولكنه عندما لبس تاج ابيه ، استطاع بفضل عدي بن زيد ، أن يكون ذلك الملك العظيم الواسع السلطان الكثير المال .

اي ان عديا عرف ان يعد النعمان للملك .

وكان عزيز النفس جداً ، وجواداً كريما ، يعيش في الخورنق عيش الترف والرخاء ، في بلاط تزدحم فيه الاعيان والعظماء ، وتكثر في اروقته

وحجراته طوائف الادباء والشعراء .

وكان شرابا للخمر حتى لا يرتوي ، وهو يخلو في مجالس شرابه ، بواحد او اثنين من ندمائه او شعرائه لا يحب ان يشرب مع الجماعات ، فاذا سكر كانت الاحكـــام التي يصدرها امثالا بليغة جداً في الجور والظلم . ولم يكن احد من رجاله يجروء ان يجادله في امر وهو سكران.

وقد يدل عليه حاجبه . عصام بن شهبرة . وغـــيره من الخاصة والمقربين ولكن هـــذا الادلال لا يكون الا في ساعات صحوه فقط . حتى انهم قدروا اكثر من مرة ان يفوزوا بعطفه عـــلى من لا يستحق العطف . وبعفوه عن المغضوب عليهم من رعيته التي تملاء بلادالعرب .

وبلغت الدولة في ايامه . الحد الاقصى من العظمة في الملك. والتبسط في النفوذ . حتى ان مرازبة كسرى وندماه كـــانوا يخافون ان يحجب نفوذ النعمان . نفوذ كسرى نفسه في القطرالعربي .

ذلك لان له اسلوبا خاصا يستميل به الناس . وفي حديثه نغمـــة ملكية جذابة كان جده المنذر ابن ماء السماء . يجذب بمثلها خصومه ، وبقدر ما كان جذابا في ساعات صحوه . بقدر ذلك كان فظا غليظا وحشي الطبع في ساعات السكر .

وكل شيء في قصر الخورنق . كان مطبوعا بطابع النعـــمان الخاص حتى ان معظم رجاله وندمائـــه تتبعوا اثره في حياته الخاصة وتخلقوا باخلاقه . او تظـــاهروا بدلك مراعاة له . واحتفاظا بالنفوذ الذي يتمتعون به . في ظل هذا الملك الكبير .

وكان من اولئك الابطال الاجلاد أصحاب الخبرة في الميادين . تعلم

وهو في بيت عدي . كل صفوف القتال . ولكنه لم يترك عرشه ليحارب خصومه . بل يبعث اليهم بالجيوش يرأسها احد اخوته او احد قواده . وهو لا يفعل ذلك عن خوف . بل عن عز بلغ من نفسه المبلغ الكثير الى حد انه كان أرفع من ان ينازل خصومه بنفسه.

فقالت العرب : النعمان ابو قابوس . يخلف في العز كليب وائل.

ولم يكن احد في الجزيرة والعراق — الا النفر القلائل — يطمع من دهره . في ايام النعمان الثالث . بأكثر من رضاه . فرضاه كان النعيم والجاه . والشرف والعز . واذا لم يرض فخير لذلك المغضوب عليه ان يموت .

ورجال النعمان . الذين يعيشون في الخورنق . خليط من اشراف العرب واعيانهم . وفصائحهم وشعرائهم . من بني تميم وزبيد ، وبني بكر وطيء . أولئك الناس الذين يسودون قومهم . ولهم في الحرب والشعر ، والادب والجود . الآثار التي خلدها الزمان .

وهنالك نفر آخرون لم يكونوا من رجال الخورنق . ولكنهم من صحابة النعمان . ومن اصحاب الرأي والمشورة في مجلسه . وقواد الجيوش في الملمات . يدعوهم فيلبون دعوته ويندبهم لامر او قتال فيمشون مجتمعين في خدمته لا يسألونه لماذا.

وكلهم من سادات عصرهم الذين يعرفهم الجيل العشرون . كأكثم بن صيفي . وحاجب بن زرارة من بني تميم . والحارث بن ظالم وقيس بن مسعود . من بني بكر . وعمر بن معدي كرب الزبيدي . واوس بن حارثة من بني طيء . والربيع بن زياد من بني عبس وخالد بن مالك

الربعي . والاسود بن يعفر . يقيمون في الحيرة ما طاب لهم المقام فيخلع عليهم النعمان الخلع الغالية . ثم ينصرفون الى بلاد قومهم بما يحملون من خيرات الحيرة . فلا يمكثون الا قليلا حتى يعودوا. وهكذا على التوالي.

اما الشعراء الذين يفدون عليه . فكثيرون ، منهم عبيد بن الابرص الاسدي وكان شيخا . وبشر بن ابي خازم . وحسان بن ثابت. سيدهم جميعا النابغة الذبياني احد الاشراف (١)

وكان النابغة كبيراً جداً عند النعمان خاصا به . وهو من ندمائـــه واهل انسه .

كذلك كان الربيع بن زياد العبسي ينادمـــه وينشده الشعر . ويقيم في قصره الفصل والفصلين من السنة لا يخرج من الخورنق الا الى الفرات يصيد السمك مع الخاصة .

وكان يقال للربيع الكامل لرجاحة عقله وبعد نظره وحكمة نفسه .

وعلى هذا القياس . كان الخورنق . ذلك القصر العظيم المشرف على الحيرة والفرات والنجف . سوقا للعرب يتبـــارى فيه الشعراء مدحـــا واستجداء كالاسواق التي كانت تقام في عكاظ . ودومـــة الجندل . وهجر وعمان . وصحار والمشقر . في البحرين يتبارون فيها في الحماسة والفخر ويذكرون وقائعهم وحروبهم في الشعر الذي يقولون .

---

(١) هو زياد بن معاوية ويكنى ابا امامة وهو احد الاشراف الذين غض الشعر منهم وهو من الطبقة الاولى المقدمين على سائر الشعراء وانما لقب نابغة لطول باعه في الشعر ، وكان يضرب للنابغة قبة من ادم بسوق عكاظ فتأتيه الشعراء فتعرض عليـــه اشعارها ، فيفضل هذا الشعر على الاخر ويدل على الجيد والفاسد منه

وكانت عطايا النعمان الثالث لا تقل عن عطـايا هرمز الرابع وكسرى ابرويز اللذين عاصرهما ، وعطايا جده الاعلى النعمان الاول . بل لم تكن تقل عن عطايا الحارث الغساني الوهاب الذي سار ذكره في الخافقين .

وكان اذا سمع بجواد من اجواد العرب . يستقدمه اليه فيبره ويجزل صلته ويقول لخاصته . تعلموا الكرم فالكريم لا يموت .

أما اعز ندمائه عليه ، فاثنان من بني اسد احدهما خالد بن المضلل، والآخر عمرو بن مسعود .

وكان حاجبه الكثير الادلال عليه . عصام بن شهبرة الذي مر ذكره وهو احد الرجال المقربين . العارفين بالاسرار . المطلعين عـلى خفايا البيت المالك لا يفوته شيء . وابن شهبرة . ينتمي الى آل قلام .

ويقول البعض انه لم يكن منهم . بل كانت امرأته من سلالة ذلك البيت العالي الرفيع العماد . بين بيوتات العراق .

وكانت رادفة الملك لبني يربوع « بطن من تميم » يتوارثها الابن عن ابيه لا يطمع بها غيرهم من بطون العرب بل لا يجـرؤ الشريف العربي مهما عظم شأنه ان يمني بها نفسه . وذلك لمنزلة بـني يربوع من العرب وشدة بأسهم . وعظيم نفوذهم في البلاط العراقي .

اما الرادفة عندهم فكالوزارة عندنا . وهي ان يجلس الملك فيجلس الردف عن يمينه . واذا شرب الملك شرب الردف قبل جميع الناس . واذا غزا قام الردف مقامه في ادارة الملك حتى يرجع .

ومن حق الردف ان يأخذ المرباع . اي ربع الغنيمة . ومن ذلـك

قول حاجب بن زرارة التميمي :

ورثت عن آبائي المرباعا . وكان جدي ملكا مطاعا « اراد بذلك إن اباءه كانوا اردافا لملوك الحيرة فكانوا يأخذون مرباع الغنائم »

ولاجل هذه الردافة . نشبت الحرب بين النعمان الثالث وبين اردافه بني يربوع . سعرها بين الفريقين . حاجب بن زرارة المشار اليـــه كما سيجيء . اما نظام الجند في الحيرة . في ايام النعمان . فمن احسن الانظمة لكل جندي في الحرب جعالة من بيت المال اذا خسر الجيش . وان فاز فليس له من بيت المال شيء ولكن يأخذ حصته من الغنيمة . وهنالك حد اوسط بين هذين النظامين . هو ان بيت المال والغنائم يتعاونان على جعالة الجندي . فيعطونه من بيت المال شيئا . ومن الغنائم شيئـــاً حتى يصل الى حقه ، وذلك في حالة القلة وعـــدم التوفيق ؛ اي اذا كانت الغنيمة قليلة والتجارة خاسرة ...

واما مراتب الجيش ودرجاتهِ واقسامه فكما هي الحـــال في دولة الفرس ، بل كما هي الحال في الدول الراقيـــة اليوم ، من تفـــاوت في درجات القيادة ، وطاعة عميـاء . وشدة في القصاص ، ولكن كبـــار القواد ــ الا القائد الاكبر ــ لا يعينهم الملك ، بل يتوارثون القيادة على التعاقب تبعا لحقهم المعروف من قديم الزمان . ولا يطيع الجيش قادته خوفا من القصاص فحسب بل تسود القوم روح عسكرية فطروا عليها فقد تلد الامهات في ساحات القتال . والعربي يصبح جنديا بحكم العادة والحاجة عندما يصبح قادراً على حمل السيف .

والغزو في بلاد العراق . مقدس محترم . في النهـــار وفي الليل . في

نظام أو في خدعة ، لسبب او لغير سبب ، على شرط ان يظهر الملك رضاه عنه ويأمر به .

أما القبائل التابعة للحيرة ،والبعيدة عنها فهي حرة في إعلان الحرب ساعة تشاء ، تغزو بدون اذن الملك ، وتسبي النساء والاطفال والأموال لا يمنعها شيء من ذلك ، واذا أحوجها ملك الحيرة ، اخرجها عن حدها . فحاربته هو نفسه ولا ترجع عنه حتى ينصفها .

وليس في ذلك شيء من العجب ، فسيد القبيلة ملك مطاع في قومه يحرق ويقتل ،ويحيي ويميت ،وهو يكره ان تكون للملك الاكبر يد او نفوذ في عشيرته،مخافة ان يضعف شأنه وتذهب هيبته من صدور القوم.

وملوك العرب جميعهم . الغساسنة وآل لخم ، وملوك اليمن والكنديون والذين تقدموهم من آل تنوخ وملوك الأنباط، لم يستطيعوا كلهم . على مر الأعوام والأجيال ، ان يمنعوا الغزو ، او يقيدوه بنظام على الأقل ، إلا الحارث الأكبر الغساني الذي منع عشائره إياه . إلا لسبب من اسباب الدفاع كما تقدم في روايتنا الأولى .

ولم يكن في الحيرة ، في ايام السلم ، غير كتائب النعمان الخمس ، المقيمة في منازل جعلوها لها وراء الخورنق ، على ضفة الفرات الغربية بحيث يرى النعمان هذه المنازل تموج برجاله المغاوير، اذا هو اشرف على الفرات من اعلى ابراج القصر .

اما اسماء هذه الكتائب فهي هذه :

الرهائن ، والصنائع ، والوضائع ، والأشاهب ، ودوسر .

اما الرهائن فخمسمائة رجل.تجعلهم قبائل العربان رهائن في الحيرة.

فيقيمون على باب الملك سنة ثم تستبدلهم برجال آخرين عندما ينقضي العام فيغزو ملك الحيرة بهم ويبعثهم في اموره وحاجاته .

وللرهائن اسباب . اهمها ان هذه القبائل لم تكن تحفظ عهد الحيرة بـــل لم تكن تخضع لملوك آل لخم إلا بقوة السيف على اثر حرب تفنى فيها الرجال . فكان الجند العراقي . بصورة مستمرة . واقفاً بسلاحه يتحفز للوثوب على العصاة المتمردين . وكان هؤلاء المتمردين كلما طار في الجو طائر ينادون جموعهم قائلين : إلى الحرب إلى القتال .

فتبعت الحيرة . وملوك الحيرة ــ اجداد النعمان ــ من هذا العصيان الذي لا ينتهي . وعمدوا اخيراً الى ضربهم . ضربة تقضي على امانيهم . ثم لجأوا الى هذا الصنف من الضمان . يأخذون من كل قبيلة عشرة غلمان او عشرين او خمسين غلاماً . على قدر قلة القبيلة او كثرتهـــا . فيقيمون في الحيرة يخدمون الملك ويرافقونه في مغازيه حتى تنقضي السنة كما تقدم . فاذا ارتفع لهذه القبيلة ــ في خلال السنة ــ صوت عداء أو عصيان . كانت رهائنها عرضة للقتل بل قل للرقاد ، في اعماق الفرات .

وهؤلاء الغلمان لا يكونون الا من الاشراف . ابناء السادة الامراء وهم الأبطال الأشداء الذين تشهد لهم الميادين انهم رجالها واربابها .

وانت ترى ان هذه الرهائن ابلغ ضمان لطاعته . وخـــير الوسائل للاخلاد الى السكينة والخضوع .

فأمن العرش العراقي بذلك . لاعداء القبائل العاصية فحسب ، بل استطاع ان يضم إليه جموعها عند الحاجة . فتمشي في الملمات تحت لوائه .

واما الصنائع فبنو قيس . وكانوا خواص الملك لا يبرحون بابه ولا يغادرون الحيرة إلا في مصلحته وامره .

وهم من اولئك العربان ، الذين عاونوا ملوك الحيرة في حروبهم ما نكثوا لهم عهدا . وما شذوا عن الطاعة .

فاصطنعهم ملوك الحيرة لانفسهم . وجعلوهم من صحابتهم على اختلاف حالاتهم وتعاقب دولهم والملوك .

فعرف بنو قيس . من بين جميع الناس . انهم خواص الملك وصنائعه . واخلاؤه المقربون إليه . فبعد بذلك صيتهم . وانتشر ذكرهم في الأقطار .

اما الوضائع ، فألف رجل من رجال الفرس ، يضعهم ملك الملوك بالحيرة نجدة لملك العرب، وهم غلاظ الرقاب ضخام الاجسام ، يركبون الافيال وقد يركبون الخيل ، فاذا ندبهم الملك لحرب مشى في المقدمة جنده العربي ، وسارت اصحاب الافيال في آخر الصفوف يبغتون العدو بافيالهم عند الحاجة

على ان الوضائع ذوو شراهة وطمع ، يتناولون جعلهم كل شهر من بيت المال العربي ، ثم يقاسمون جيش العراق ــ من غير حق ــ حصته من الغنائم ، وملك الحيرة لا ينهاهم ولا يغضبهم ، لئلا يثير اغضابهم ثائر كسرى ، وهناك البلية الكبرى تنزل بالملك وبالرعية

ولكن النعمان الثالث كان جريئاً ، فقد خلف سلفاءه في هذا « التقليد » الجائر ، ووضع لذلك الطمع الغريب ، حداً لا يجاوزه الفرس وان جاوزوه نهاهم اولا ثم اذا لم ينتهوا بعث بالمتجاوزين الى المدائن

وكتب الى كسرى « هؤلاء الرجال لايصلحون ان يكونوا نجدة وغيرهم خير منهم »

فسيتقدمهم كسرى اليه ويرسل سواهم الى الحيرة

والوضائع ، من حيث الاقامة في الحيرة ، كالرهائن ، يقيمون سنة ثم ينصرفون فيجيء بدلهم ، على توالي الاعوام

وفي الباطن ، لم يكن غرض كسرى ، من جعل الوضائع في الحيرة، ان ينجد الملك العربي ويكون عوناً له على عدوه ، بل كانت غايته ، وهو الملك الاكبر ، المسيطر على عرب العراق ، ان يجعل رجاله في عاصمة آل لخم ، عيوناً على اولئك الملوك عماله ، وصلة بين الحيرة والمدائن ، يطلعونه على كل ما يجري ، في تلك البلاد الواسعة التي يبسط عليها نفوذه

وفي الحيرة رجل آخر من رجال الفرس، ومن مرازبة كسرى وعظماء دولته ، ترجع اليه الوضائع في الشؤون الخاصة ، وينقلون اليه ما يعرفون عن حالات السياسة ، في الادارة وفي الجيش ، يفعلون ذلك بالسر وفي الخفاء بحيث لا يعلم الملك المتوج ما يفعلون وما ينقلون

واما الاشاهب ، فأخوة الملك واتباعهم ، وبنو عمهم واعوانهم ، قيل لهم الاشاهب لانهم كانوا بيض الوجوه

وهم كتيبة كثيرة العدد ، فاتباع الملوك واعوانهم كثيرون في كل زمان ، وهؤلاء الاتباع طوائف جرارة من اهلهم ينتمون كلهم الى الاشاهب

وقد يتبادر الى الذهن . اولئك الاخوة وابناء العم ، يخلصون

النصيحة والحب للملك بالنظر الى روابط النسب التي تربطهم به

غير ان الواقع يكذب هذا الظن ، فالحسد والسعاية اذا وجدا فانهما يوجدان في صدر ذلك الاخ الطامع بالملك وذلك النسيب الذي منعه الملك الاستئثار بالمراتب والمال

اجل ان في اخوة الملك وابناء عمه ، من يدب الحسد في صدره فيتمنى لو استطاع ان يبيد ذكر النعمان عن وجه الارض

ولكن الكتيبة الكبرى ، مثل كتيبة الاشاهب ، لا تخلو من المخلصين الصادقين في خدمة العرش العراقي

واما دوسر فانها كانت اخشن كتائبه واشدها بطشا ونكاية ، وليس لدوسر جامعة نسب او قرابة ، فهي خليط من كل قبائل العرب ، ومعظمهم من ربيعة ، ذلك البطن القوي من بطون عدنان وسميت دوسر اشتقاقا من الدسر اي الطعن بالثقال لثقل وطأتها ، وفيها قال الشاعر :

ضربة دوسر فيهم ضربة أثبتت اوتاد ملك فاستقر

ويقول بعضهم ، ان الشهباء كتيبة من رجال الفرس ، ودوسر كتيبة من تنوخ ، كانتا من كتائب النعمان الاول السائح ، ولكنه قول يخالف قائله فيه معظم المؤرخين

ودوسر ، غضب الله على الارض ، ما غزت الا انتصرت ، وما ضربت حتى حطمت ودمرت ، فهي جماعة لا تحتكم الا الى الصوارم واذا بعثها الملك في حرب فالويل لذلك العدوا من شر دوسر

وكانت العرب جميعها ، تهاب كتيبة النعمان هذه ، وتحسب لها حسابا ، فاذا كتب لحي من احياء العربان ان يحارب دوسر ، استقبلها

بكل جنوده وقواده وقوى حلفائه وجيرانه لا يترك وسيلة واحدة من وسائل الدفاع الا ويعتصم بها ليذود عن نفسه

وقد قتل من دوسر كثيرون ، فكلما قتلت فئة انضم الى دوسر فئة اخرى اكثر منها عدداً وابعد اثراً وأشد بأسا ، وهي ، وكتيبة الصنائع، أشد الكتائب اخلاصا للملك واكثرها عملا واسبقها الى الطاعة

ولكل كتيبة من هذه الكتائب الخمس ، رئيس مطاع ، كما هي الحال في الجيش العام ، ولكن الرؤساء اي القواد في الجيش العربي وجيش الفرس يقلون كثيراً عن امثالهم في جيش الروم ، او في جيش آل غسان لان مرازبة الفرس كانوا يعتقدون وجاراهم اللخميون في هذا الاعتقاد ان كثرة القواد في الجند من بواعث الفوضى ، ومن اسباب الخلاف في الميادين

على ان عادات العشائر في الامارة وفي القيادة لا تمس ، فلكل عشيرة مطلق الاستقلال في شؤونها الداخلية ، يولي رئيسها من يشاء ويعزل من يشاء من رجاله . واذا حكم بموت هؤلاء الرجال فالموت والحياة من شأنه وحده لا شريك له ...

اما القواد في العراق ، فاخوة الملك ، اي انهم قواد الجيش المقيم في الحيرة والذي لا يلحق بعشائره في ايام السلم . وهم يقودون ايضا الجيوش الزاحفة الى العدو . مع الاحتفاظ بسلطان رؤساء العشائر الداخلي كما تقدم

والقائد المقدم . من اخوة الملك . على الجميع . هو اخوه حسان بن المنذر . يعاونه أخوه الاخر لامه . وبرة بن رومانوس الكلبي.

ولكن . لا تنس ان القائد الاكبر دائما . هو الملك او ولي عهده . ويوم كان حسان سيد الجيش جميعه . كان قابوس ولي العهد غلاما ما اشتد ساعده بعد ، فلما كبر ، حل محل عمه في القيـــاده العليا . وبقي اعمـــامه جميعهم « اركان حربه ونوابه منذ ما يغيب» .

زواج النعمان

تزوج النعمان وهو صغير . يوم كان في بيت عدي بن زيد .

وحكاية هذا الزواج : ان عديا زار بني طيء وكان النعمان معه

وبنو طيءمضرب المثل في الجود ، منهم حاتم بن عبدالله ، وأوس بن حارثة . وسعيد بن حارثة ، وهم اجود العرب .

وكان حاتم يوم قدم النعمان وعدي . صغيرا يرعى نوق ابيه . فنزل الاثنان مع اتباعهما ضيوفا على سعيد بن حـــارثة بن لام ولسعيد بنت اسمها فرعة هي آية في الجمال ، فأحبهـا النعمان وقال لمربيه ، اريـــد ان اتزوج فرعة ، فقال عدي : نرجع الى الحيرة وننظر في الامر

ثم انتقل القوم الى بيت أوس بن حارثة

فرأى النعمان بنته زينب ، فسحرته عيناهاالسوداوان ، فقال لعدي: من هي هذه ؟

قال : هي زينب بنت اوس

فقال : وهذه اريد ان اتزوجها

فضحك عدي وقال لابن مولاه :

اراك ستتزوج نساء بني طيء جميعا .

وكان النعمان على الوثنية ، فلما عادوا الى الحيرة استشار عدي الملك المنذر فقال له :

كل من اراد لنا الزواج من اولادنا زوجناه

فقال عدي للنعمان :

اتريد زينب ام فرعة ؟

قال : بل اريد الاثنتين معا فهما اهل لي .

فبعثوا الى طيء . فجهزوا العروسين وارسلوهما الى الحيره فزفت الاثنتان الى النعمان .

فولدت فرعة . قابوسا الذي اصبح ولي العهد بعد ملك ابيه . ثم ولدت هنداً .

اما زينب فولدت المنذر الذي تولى الملك بعد ابيه « باسم المنذر لمغرور » .

تنصر النعمان

ومذ ذلك الحين ، اي منذ تزوج النعمان زينب وفرعة ، رأى عدي ابن زيد ، وهو النصراني البار الذي لم يعق مذهبه ، ان ينصر النعمان ، ويجعله من اتباع الدين المسيحي ، الذي تبعه واجداده من قبله .

اجل ، ان عمر بن هند ، عم النعمان نشأ نصرانياً ، تابعاً في ذلك مذهب امه هند الملكة . ولكن اخاه قابوساً ، الذي خلفه في الحكم ، لم يتبع مذهب اخيه ، بل اقتفى اثر اجداده الوثنيين ، فاخذ مع اخيه المنذر ،

والد النعمان يذبحان للاصنام ، ويقدمان لها الضحايا من الحيوان والبشر .
وهكذا نشأ النعمان ؛ غير ان عدياً لم يجرؤ ان ينصره في حياة ابيه ، لان اباه كان شديد التعصب ، لسبد ، صنمه العزيز عليه ، وكان يدعو الناس الى احترامه وتكريمه .

فصبر حتى لبس النعمان تاج الملك ، ولكنه لم يستحسن الخوض في موضوع الدين، والملك في اول عهده؛ وله من اشغال الدولة والانصراف الى تدبير الشؤون ما يكفيه .

فاخذ كلما قدم الحيرة ، يعالج الامر بالحكمة والهدوء ، شهرين او ثلاثة في العام ؛ حتى انقضت سنوات عشر على ملك النعمان . وهو يلاحظ الملك ويرقب اساليبه في عبادة الوثن . وحرارة ايمانه بذلك التمثال الحجري !...

وكان عدي كما عرفت . الرجل العراقي الاول في بلاط النعمان ، بل هو الاول في العراق . لقربه من كسرى ملك الملوك، من جهة ، ولفضله على الاسرة المالكية وسمعته الطيبة من البلادين بلاد العرب وبلاد الاعجام من جهة اخرى .

وليس احب الى النعمان من محادثة عدي . والجلوس معه والاستمتاع الى شعره ورأيه حتى ان وزراء الملك وندماءه ورجال بلاطه كانوا لو اراد عدي بن زيد ان يصرف النعمان عن دينه لاستطاع .

ففي يوم من الايام . دخل عدي على الملك وهو في مقصورة عالية تشرف على الفرات . كان يجلس فيها في ساعات الفراغ . فرآه يداعب بنته هنداً ويضاحكها . وهند في الثانية عشرة من العمر يبسم لها الزمان.

وهي تبسم لكل شيء .

ولم يكن النعمان يمد يده بالسلام الى عربي مهما كبر وعز غير عدي بن زيد .

فمد اليه يده قائلا :

يا والدنا . كنا نحدث بنتنا عنك الآن . هذا هو عدي يا هند فلثم عدي تلك اليد الملكية وقال :

وماذا يطلب عدي بن زيد فوق ذلـــك . الملك يحدث بنته عنه . ويذكره لها . وهذا لعمري منتهى الشرف لآل عدي .

قال : ولكن كنت اقول لهند انك نصراني ، وهذا ما يمنعك من ان توافق الملك غداً الى بيت « سبد » لنذبح له الذبائح .

فقال عدي في نفسه : لقد اتت الساعة التي اسبر فيها غوره .

ثم قال : أتأذن لي في القول يامولاي وانا آمن ؟

قال : لك يا عدي : ان تقول ما تشاء وانت في امانالملك.

فقال عدي : ولمن تذبح الذبائح يا مولاي ؟

قال : لسبد صنم الحيرة الاكبر .

ـ ومن صنع « سبد يا مولاي » ؟

ـ صنعه اهل الحجاز ونحته اهل الحيرة .

ـ اذاً هو تمثـــال من حجر والنعمان ابو قابوس ملك العرب يعبد لاحجار !!

فاصغت هند الى حديث الرجل .

أما الملك فاستغرب جوابه وقال :

يا عدي ، انك تهين صنم اجدادي ولا تخاف ؟

فقال : ولكني في امانك يا مولاي ، ومتى كانت الاحجار تغضب للاهانات ؟

اني سآخذ غداً قطعاً كبيرة من صخور الحيرة فأنحتها وأجعلها تماثيل ثم اقول لاهل العراق هذه آلهتكم فاعبدوها واسجدوا لها ، وانهم ليسجدون للصخر المنحوت ولا يبالون !

فما رأيك يا مولاي ؟

فكأن النعمان استنار عندئذ بنور الحق ، فلم يغضب ولم يجف ، بل قال لعدي :

وهل المسيح ابن مريم الذي اتبعتم أفضل من « سبد » ؟

فأخذ عدي يقص على النعمان حياة المسيح ؛ وقد برقت عينا هند وتغير قلبها على الصنم.

ثم اخذ الاثنان ؛ النعمان وعدي ، يتحاجان ؛ فاقنع عدي مليكه ؛ ولم يخرج من عنده الا وهو وابنته من اتباع عيسى .

ولكن للمسيحية تعاليم ، والنعمان وأهل بيته لا يعرفونها.

فعمد عدي الى « الجاثليق صبر يشوع » رئيس اساقفة الحيرة وقال له (١)

ان النعمان وأهل بيته نصارى ، فاذا رأيت ان ترشدهم فافعل .

فجعل المطران يصبح ويمسي في الخورنق يعلم الملك اصول دينه الجديد في اوقات صحوه ؛ واحد كهنته يعلم قابوساً وهنداً والمنذر

---

(١) الجاثليق رئيس اساقفة عند الكلدانيين وهو معرب كاثوليكي باليونانية

وأعمامهم ، حتى استوعبوا تعاليم مذهبهم ، فعمدهم رئيس الاساقفة وتبعهم الخلق الكثير ، فدالت دولة « سبد » وهجر الناس بيته

وكانت هند اكثر اعضاء البيت المالك تعلقاً بنصرانيتها واعظامهم رغبة فيه .

« لابورت وابن خلدون »

* * *

هانىء بن قلام

ولما انقضت السنة الحادية عشرة على ملك النعمان ، وضعت زوجة عدي غلاماً دعاه ابوه زيداً باسم أبيه ، ثم ماتت الوالدة بعد شهر.

فشق ذلك على عدي ، واستأذن كسرى في الاقامة بالحيرة بضعة شهور يصلح في خلالها امر بيته ؛ ويختار لطفله من يرضعه من فضليات النساء .

فأذن له كسرى في ذلك ، فوضع طفله في بيت صاحب له من بني الحرث بن كعب ، اسمه هانىء ، هو حفيد أوس بن قلام صديق جده ايوب .

وكان هانىء من أشراف النـاس وعظماء الحيرة ، ومن أغنى أغنيائها ، بل يكاد يكون في العراق كله سيـد النصارى جميعهم ، بعد الاسقف ، ومرجعهم وجامع كلمتهم ، وجابر بن شمعون ، ذلك المطران الذي أقرض النعمان مالاً كان احد أعمامه .

ولم يكن لهانيء من الاولاد ، الا زياد واخته ملكية ، الاول ابن سنوات ثلاث وملكية طفلة لم تبلغ الشهرين من العمر .

فقال له عدي :

يا هانيء ، انت اخي ، وانا اوصيك بزيد ، فان مت في المدائن فاكفله حتى يقدم احد اخوي من عند كسرى فيربيه ؛ وتكبر مليكة فتزف اليه ، وان بقيت حياً ، فسأترك خدمة كسرى بعد عامين، وارجع الى الحيرة فأقضي فيها سنة وفي بني يربوع سنة حتى تنتهي هذه الحياة.

وبكى عدي ، فقد اثر فيه موت زوجته، وكانت من احسن النساء .

فقال هانيء : ما كان زيد الا ولدي ؛ وسينشأ باذن الله كما ينشأ زياد بعيداً عن مفاسد العامة ، حافظاً عهد بلاده ومليكه ؛ متبعاً دين اجداده ، ناهجاً في ذلك منهاج أبيه البار .

وأما انك تعتزل ديوان كسرى وتعود الى العراق فهذا ما لا انصح لك به ، لان رجال السوء في بلاط النعمان ، يكيدون لك ، وبنو مرينا في الحيرة يقيمون بباب الملك لا يبرحونه حتى يفسدوا عليك الامر ، وأنت تعلم يا عدي . ان جفاء الملوك قريب الحدوث ، فهم لا يكادون يظهرون الرضى حتى يظهروا الغضب « وقلوب الملوك ــ وأولهم ملكنا النعمان ــ تتغير كلما تغير الجو وتلبد الافق بالغيوم » .

انسيت عدي بن مرينا وقوله لك وحلفه في البيعة انه سيهجوك ويبغيك الغوائل ؟ انسيت ان الاسود بن المنذر يحالف ابن مرينا على الكيد لك ، ويبث رجاله في حاشية الملك اخيه ليطعنوا عليك بالقول في مجلسه ويعيبوك ؟؟

فلماذا تترك ديوان كسرى لتقيم بين اعدائك ؟ بل لماذا تصير ذليلاً بعد عزك ، وفقيراً بعد غناك ، وبعيداً عن النعمان بعد قربك منه ؟ انه لرأي لا يقدم عليه الا الابله الغر واراك ستقع في الفخ الذي يعده لك خصومك الماكرون .

وكان عدي من اطيب الناس قلباً واخلصهم نية ، لا يضمر شراً ولا يحمل حقداً ، ولم يكن يظن ان النعمان الذي رباه واختاره من بين اخوته الكثيرين ليلبسه تاج العراق ـ لم يكن يظن ابـــداً أنه يصدق فيه قول الوشاة وان كثروا ببابه .

فقال لهانيء : أيستطيع بن مرينا ان يكيدني عند الملك وانا سبب نعمته ولولاي لم يذكر له اسم ولم يرتفع له صوت ؟

فضحك ابن قلام قائلا :

ومتى كانت الملوك تذكر النعم ؟ انك من العامة والنعمان ملك . وهو يعتقد ان صنعك اليه المعروف هو بعض ما يجب له عليك فانت العبـــد وهو المولى . ولست اول رجل اخلص للملوك فنكثوا عهده . وبذل لهم الحب فقابلوه بالإساءة . ومع ذلك فانت تعرف النعمان وهو فتىً في حجرك ، ولكنك لا تعرفه ـ كما اعرفه انا ـ وهو على قمـــة العرش .

انه كثير الظنون يا عدي . والطامعون بتـــاج العراق وفروا كثيراً حوله حتى ليظن ان اخوته ومن يتبعهم من رجال وخدم متفقون جميعهم عليه . فساءت ظنونه بجميع الناس . لا يعرف صاحبا . ولا يثق باحد اللهم الا بأولئك الندماء والحجاب والمقربين الذين يحرقون له البخور

في النهار وفي الليل . ويصبرون على عربدته وسكره . ويحتملون منه ما لا يحتمله الاسير الذليل في القوم اللئام .

والحسد . آه من الحسد يا عدي . انه يمـلأ صدور القوم . فكلما دخلت على الملك ظهرت دلائله على الوجوه وفي العيون ، فهم لا يطيقون ان يروا قربك منه ومجلسك الى جانب عرشه ، وايثاره اياك على جميع خاصته في الشراب والمؤاكلة والجلوس .

اني احب النعمان ، كما كان اجدادي يحبون اجـداده ، وانا سليل ذلك الرجل العظيم – أوس بن قـلام – الذي ملكـه كسرى على العراق ، وقد خبرت الملوك والعامة ، وعرفت الصاحب من العدو ، فلم اجد الراحة الا في الابتعاد عن مجالس الملوك ، والانصراف الى خدمة الناس بما لدي من وسائل واسباب . ولولا خـوفي من ان يغـير الاسود وابن مرينا ، قلب النعمان عليك ، لنصحت لك بترك المدائن واعتزال الخدمة الخطرة في ديوان كسرى ، مخافـة ان يتغير يومـاً فينقلب الزمان .

فاذا اردت ان تأمن شر المفسدين فابق في المدائن ، لان النعمان اذا جفا ، لا يقدر ان يمد اليك يداً وانت في حضن ملك الملوك .

وسيجفو النعمان يوما يا عدي ، هكذا اعتقد ، ولو طالت ايام المنذر ابيه ، لجفا اباك زيداً بالرغم من سعي ابيك رحمه الله لاصلاح حـاله ، وتوطيد دعائم عرشه .

ذلك شأن الملوك اللخميين منذ تولى عمرو بن عدي جده الاول الى هذا اليوم ، يحبون كثيراً ولكن حبهم قصير العمر ، واذا ابغضوا ، برز

الغضب من خلف هذا البغض يجر وراءه ذيـــول القتل ، ثم يندمون ، فلا يطبع في اذهانهم هذا الاثر حتى يمحوه الاثر الآخر . من خير وشر وغضب ورضى . وهم في كل هذه الحالات متقلبون لا يثبتون على شيء .

وكان ابن قلام يتكلم كأن السماء اوحت اليه بما يقول .

فقال عدي وقد همه الامر :

ومن قال لك ان الاسود وابن مرينا يكيدان لي عند الملك ؟

قال : ولماذا تستغرب ذلك ولولاك لأصبح الأسود ملكاً ؟

ـ : لأني كلما رأيت الاسود . وهـــو الملك ابن الملـــك .حتى لي رأسه . وقدمني في مجلس اخيه . وكلما رأيت ابن مرينا . ظهر البشر على وجهه واخذ يعتذر لي عما مضى . اما تلك اليمين الـــتي اقسمها في البيعة ، فكانت في ساعة غضب ، فهو لا يذكرها الا اذا رآني ، وكما يذكر المرء حادثاً عرض له في حياته لا قيمة له عنده ولا شأن .

وقد قال لي غير مرة ، أنه آثر الاسود على النعمان في ذلك الحين لانه رباه وشب في بيته ، فلما اصبح النعمان ملكاً ، محت صورة الملك صورة الاسود من مخيلتـــه ، وامسى اشد اخلاصاً للنعمان ، منه لآبائه الذين تقدموا .

وليس للاسود وابن مرينا ان يحقدا علي ، فانا اخترت لعرش العراق ابن الرجل الميت لالبسه تاج ابيه ، وقد يكون الفتى الذي اخترته اعظم اخوته شأناً واكبرهم نفساً واصلحهم لادارة هذا الملك الواسع الارجاء .

وعلى كل حال ، لا اريد ان اصدق ان في بلاط الملك من يضمر

لي غير الحب : فانا ما أبغضت أحداً في حياتي ، والرجل الطاهر الوجدان لا يخاف الا الله.

ومع ذلك ، فاذا رأيت ان امكث في المدائن حتى يزول الخطر فعلت وعند ذلك اعود الى الحيرة .

قال هذا وهو يبتسم ابتسامة الاستخفاف.

فعرف هانيء عندئذ ، ان عدياً يستهين بما سمع ، فقال له :

متى تعود الى بلاد العجم ؟

قال : لا اعود قبل ان ارى الملك في معبد الحيرة ، يوم الاحد المقبل جاثياً على ركبتيه امام صليب الناصري ؛ كما كان ، يجثو امام معبوده الحجري ، صنم الحيرة .

ـ : اذن فانت مسافر في الاسبوع القادم ؟

ـ : نعم ؛ الا اذا غضب النعمان علي كما تظن .

ـ . اتهزأ بقولي يا عدي ؟

ـ : لا ، ولكني لا اظن ان النعمان يسكت عن اخيه الاسود ، وصاحبه ابن مرينا اذا هما طعنا أمامه في عرض مربيه ؛ وان سكت ، فسكوته دليل على انه لا يخفل بما يقولان.

لقد ربيته صغيرا ، واعددته للتاج ، ثم وضعته على رأسه بالرغم من صغر سنه وكثرة اخوته الطامعين به . وانا الذي طلبت الى عمك الاسقف جابر بن شمعون ، ان يعطيه اربعين الفا فاعطاه ثمانين يستعين بها على امره ، ثم دعوته الى النصرانية فتنصر بمطلق اختياره ورضاه وتبعه في ذلك اهل بيته ، ولما عمده رئيس الاساقفة صبر يشوع ، قال له :

لقد اراد عدي بن زيد ان اكفر بسبد واتبع النصرانية ففعلت ولو اراد ان اتخلى عن التاج لفعلت ايضـــا ، فكلمـــة ابن زيد في بـــلاد العراق لا ترد

وانت ترى انها كلمة لا يقولها لابيه لو كان حياً ، افتريد ان اصدق ان الملك الذي يستطيع عدي بن زيد ان يكفره بدينـــه ينقلب بين ليلة وضحاها من ملك محب راض معترف بالجميل ؛ الى ملك كافر بالنعمة يعق الفضل وينسى المعروف؟ ولمـــاذا يغضب وهو لا يجـــد سبيلا الى الغضب ، اتراه يستيقظ من نومه يوماً ، وقداثرت في نفسه احلام الليل، فيحطني بعد هذه الرفعة والعز ويطردني من الخورنق كما يطرد خدمـــه وجواريه ؟ اذا كان هذا فليس من يمنع غضبه الا الله ، وانا وانت وكل قواده وصنائعه وندمائه ، تحت رحمة الاحلام . .

قالها عدي وقد استغرق في الضحك.

فعمد ابن قلام الى التصريح والجلاء فقال :

لو كانت القضية قضية احلام لهـــان الامر ، ولكنهـــا دسائس ومؤامرات يدبرونها في ظلام الليل ، وخلف حجاب كثيف من التكتم ، حتى اذا افتر ثغر الملك يوما ، في ساعة من ساعات سكره ، وآنسوا منه اصغاء لما يتولون هيجوه عليك بالنميمة والاكاذيب ، حتى تحمر عيناه ويبين الغضب في وجهه ، ثم اذا ارتجفت شفتاه عرفوا ان الساعة قـــد اتت ، فينفثون عندئذ سم قلوبهم ، ويضربون الضربة القاضية ، وعندما يخرج النعمان عن خده ، فعنـــاه ان الاقدار لفظت حكمها الجائر ، ويا لهول الساعة.

أسمعت الان ؟ ان المتآمرين ينظمون اليوم صفوفهم ، وعندما نصرت النعمان ، قام في اذهانهم انك ذلك المسيطر على قلبه وعقله ، لا يرد لك سؤالا ولا يخالفك في امر ، فكرهوا ان يكون امر الملك في يدك وانت خادم كسرى ، وهما سادات العرب وانصار العرش العراقي .

ولكن عدياً لم يصدق .

فاطرق ابن قلام ساعة يفكر في الامر ثم قال :

اني بحاجة اليك الليلة يا عدي.

ـ : ولكن الملك ينتظرني لأتعشى معه وقد وعدته بالرجوع.

ـ : اذن تعود بعد العشاء؟

ـ : لا اعد بذلك فقد يسكر الملك ويأمرني بمسامرته حتى ينام .

ـ : ولكنك تعود بعد ان ينام ولو كان في آخر الليل ، الا يسرك ان ترى زيداً نائماً في موضعه؟

فتلألأ الدمع في عيني عدي وقال :

اجل فاذا اردت الحياة فلأجل هذا الطفل.

ثم خرج يريد الخورنق وهو مضطرب مهموم .

* * *

٧

زواج هند

عندما دخل عدي بن زيد على النعمان ، كان الظلام قد اقبل ،

وعند النعمان ، نديماه خالد بن المضلل ، وعمرو بن مسعود ، واياس بن قبيصة الطائي ، واخوة الملك : حسان والاسود ووبرة ، وثلاثةرجال من بني مرينا بينهم عدي ، وعن يمينه وزيره من بني يربوع .

وعلى سرير الملك العاجي : الذي ترسل قائمتاه ذلك الشعاع الذهبي الوهاج ، جلس ولدان كأنهما القمران : عن يمينه وعن شماله : هما ولداه قابوس والمنذر . الاول في الرابعة عشرة والثاني لم يجـاوز الثانية عشرة من السنين .

وبباب القاعة الملكية ، قاعة العرش : حاجبـه الامين : عصام بن شهبرة وهو ابن بيت يرث الابن منه حجابة باب الملك عن ابيه .

ولم يكن بين هؤلاء الرجال ، من خبر الزمان مثل اياس بن قبيصة ذي الوجه المتجعد الكثير الغضون : البادية عليـه دلائل الترف والعز ، واللحية البيضاء التي تغطي معظم صدره وقد ابيضت قبل الاوان .

والنعمان يحترم اياس بن قبيصة ويحبـه ، لمنزلته من ابيه المنـذر ، وسيادته في قومه .

وليس اياس من خاصة النعمان ورجال بلاطه ، بل هو ــ في الباطن ــ عامل كسرى على عين التمر وما والاها الى الحيرة : وفي الظاهر عامل

النعمان .

وكان كسرى قد اقطعه ثلاثين قرية ، من قرى شاطىء الفرات . فهو الغني بالمال والرجال ، واباء النفس وأدب اللسان .

وكان قائداً كريماً . ومن اولئك الفرسان الذين يستهينون بالاخطار .

ولكنه كان مصاباً بمرض النقرس . اي بوجع مؤلم في مفاصل كعبيه واصابع رجليه . فلا يستطيع المشي بل لا يقدر ان ينقل قدماً الا اذا حملوه .

ولاياس محفة من الخشب . كان اذا اراد الانتقال من بيت الى بيت او من بلد الى بلد . وضع في محفته . ورفعه اربعة من رجاله على الاكتاف يحملونه الى المكان الذي يريد .

وهكذا كان اياس بن قبيصة يحارب عدوه . يدير دفة الميدان وهو في محفته بحماسة تحسبه معها انه على ظهر جواد .

ولم يكن يمر العام الا ويزور النعمان مرتين وثلاثاً . فيمكث في الحيرة كل مرة شهراً او بعض الشهر . نازلا ببيت احد انسبائه بني طيء . مع رجال محفته الاربعة الذين لا يفارقونه .

وكان جريئاً جداً وصريحا جداً . كل ما في قلبه تراه على لسانه ، حتى انه ليخالف النعمان في رأيه وهو سكران ولا يبالي .

والعرب ، يحبون اياسا ويحبهم . الا بني لام . ذلك البطن من طيء الذي اتخذ النعمان زوجتيه « فرعة وزينب » منهم .

وسبب هذا العداء ، ان بني لام . كانوا يفاخرون احياء العرب بالشجاعة والجود . فلا يعترفون ان حاتم بن عبدالله « حاتم طي » اكثر

جودا من رئيسهم اوس بن حارثة . حمي النعمان .

وحاتم واياس . من بطن واحد . وبينهما صداقة ونسب آخر من جهة النساء .

وكان اياس ، جالسا في قاعة العرش بما يشبه الاستلقاء على وسادة حمراء مسندة الى الجدار ، والى جانبه عصا من الابنوس يتوكأ عليها عند النهوض والجلوس .

فلما دخل عدي بن زيد . ولم يستأذن له ابن شهبرة ، قام جميع من في المجلس حتى قعد عن شمال الملك ، الا ابن قبيصة فظل على وسادته ورجلاه ممدودتان .

ولكنه قال للنعمان:

ان رجالي بالباب ايها الملك ، فرهم ينهضوني احتراما لعدي بن زيد.

فقال له الملك :

ما كنا لنكلفك فوق ما تستطيع يا اياس .

قال : وما كان في العرب احد يبقى قاعدا عندما يدخل عدي.

فظهر البشر في وجه النعمان وقال لعدي :

يا والدنا ؛ ان العرب يحبونك اكثر مما يحبون الملك .

فقال عدي بن مرينا :

بل نحبه يا مولانا لحبك اياه.

واصفرت شفتاه من شدة الحسد وشدة الغيظ .

اما اياس بن قبيصة فقال :

بل نحبه لعلو نفسه ، وطهـــارة نسبه ، وحسن سمعته ، ولو لم يكن افضل العرب جميعها لما جعله مولانا المنذر رحمه الله مربيا لمولانا الملك .

فقال عدي بن زيـــد :

اني لم ارب الملـــك ولكني خدمته كمـــا كان ابي يخدم اباه . فاذا رأت في العرب فضلا . فذلك فضل مـــا اولاني من ثقته واحسانه .

قال النعمان :

بهذا نكافىء الرجال المخلصين يا والدنا . اما الثقة فلا نزيدها اذ لا سبيل الى الزيادة واما الاحسان فاذاقدرنا ضاعفناه لك حتى اذا اعطيناك كل ما عندنا من ذهب ونعم فما وفينا بما علينا . انك يا والدنا سيـــد العراق كله ما دام النعمان حيا . وليس بين اخوتنا ورجالنا من نعرف له فضلا علينا اكثر مما لك . فانت خير من عرفنا . وليعلم النـــاس ان الملك مدين لك بكل شيء . اتكفيك هذه الشهادة بصاحبك عدي يا ابن قبيصة ؟

فقال اياس : انها شهادة كريم لكريم ايها الملـــك ولم تبالغ فيما قلت فاذا كان عدي بن زيد لا يستحقها فمن يستحقها من العرب ؟ نحن كلنا اتباع لكم يا بني لخم ؛ وانك لتجد حولـــك بحرا زاخرا من اشراف العرب وسادتها يجردون السيوف في سبيل طاعتك ، ولكن العرب جميعها لو اجتمعت ما استطاعت ان تعطيك مثل ما اعطاك بن زيد . .

« عني بذلك التاج لولا عدي لوضع على رأس غير رأس النعمان » .

والنعمان ، لم يكن يحب ان يسمع رواية صعوده الى العرش ، فامتعض من قول اياس ولكنه اخفى امتعاضه تحت ابتسامة صفراء بدت عـــلى

شفتيه الحمراوين اللتين يشبه لونهما لون الدم ..

فلحظ عدي ذلك ؛ فهم بالجواب ؛ فسبقه ابن مرينا قائلا .

اتمن على الملك ياابن قبيصه ؟

فأجابه عدي وقد وضح له كيـــده .

ليس هناك َمنٌ يا ابن مرينا اذ لا يقدر العراق بما فيه ان يذكر له منة على الملك ؛ ولكن اياساً اراد ان يشرفني بينـــكم فذكر اخلاصي بخدمة مولاي ابي قابوس .

ثم التفت الى الملك وقال :

انه لشرف لآل زيد بن ايوب ، أن يظهروا لك طاعتهم ، ويثبتوا اخلاصهم لهذا العرش في كل زمان . وهذا ما اراده اياس بن قبيصـــة بحديثه الذي سمعت .

قال اياس وقد لمعت عيناه :

اردت يا مولاي . ان عدياً بن زيد عندما كان يؤهلك لهذا العرش، كان عدي بن مرينا يؤهل اخاك الاسود للعرش نفسه . ولما استقدم كسرى ليولي احدكم . لم تكن يا مولاي ، في نظر ابن مرينا اهـــلاً للولاية .

وعندما كان العراق ينتظر ملكه ، وهو لا يعرف من يكون ، ولا رأي له فيه . كان اهون على عدي بن زيد ان يبذل حياته ، من ان يرى غير النعمان ملكاً على العرب . وكان اهون على ابن مرينا أن يموت من أن يراك خارجاً من ايوان كسرى . وعلى رأسك تاج العراق .

ثم قال :

يا مولاي : لقد رآك كسرى أهلاً للملك فألبسك تاجه . فأخفق ابن مرينا وفاز ابن زيد . وهذا من حظ العرب . فكان الاخلاص الذي أبداه لك عدي اخلاصا لا تقدر العرب ان تبدي لك مثله ولو اجتمعت .

ذلك ما أردت بقولي يا مولاي . وليس في الامر منة كما قال ابن مرينا فمن اجل هذا الاخلاص وحده يجب ان تكرم العرب عديا وتحترمه . وتعترف له بذلك الوفاء الذي اظهره لمولاه .

فتغير لون ابن مرينا ولكنه لم يجب خوفاً من الفضيحة .

اما الاسود شقيق الملك فأرخى عينيه ينظر الى الارض وقد احمرت وجنتاه .

وكان الموضوع دقيقا وخطراً كما ترى . لا يجرؤ غير اياس بن قبيصة ان يجول فيه .

فذكر النعمان عند ذلك ما جرى في ذلك الحين . ولكنه كان صاحيا فلم يغضب ، بل رأى ان يغير الحديث . فقال لغلامين كانا واقفين ببابه :

سنتعشى الليلة مع والدنا عدي والنديمين خالد وعمر ، فأعدا عشاءنا وشرابنا في المقصورة المطلة على الفرات . وعجلا فان والدنا قد جاع . وانت يا اياس . اتشرب معنا الليلة ؟

قال : اذا اراد مولاي فليأذن لي في الانصراف لان هذا النقرس الملعون يشتد المه والنوم خير لي .

فقال : عندما يشتد ألم رجليك يا ابن قبيصة يطيب لسانك ...

قال : ولا يطيب اللسان يا مولاي الا اذا طاب القلب ...
فضحك القوم الا الاسود وابن مرينا
ثم قال اياس :
ولا خير فيمن يفقد لسانه يا مولاي .
فقال الملك : بل خير لكثيرين ان يفقدوا السنتهم لتسلم رؤوسهم .
قال : من تعني ايها الملك ؟
فقال : يكفيك ان تعلم اني لا اعنيك ؟
وتلفت القوم متحيرين لا يعلمون من الذي عناه الملك بقوله .
فقال اياس : اذن لست من هؤلاء الكثيرين يا مولاي ؟
قال : لا فالويل لمن هو منهم ...
قالها الملك دون ان يعني أحداً ، فأخذ القوم يفحصون ضمائرهم ويستعرضون مواقفهم ...
ـ ولكن هذه القذيفة التي انفجرت في المجلس ؛ كانت واحدة من قذائف كثيرة يرمي بها الملك بين جلسائه من حين الى حين .
ثم نهض الملك وهو يقول لابن مرينا ويعني اخاه الاسود في الوقت نفسه :
أسرك يا صاحبنا ان يذكرك اياس ذلك الموقف الماضي الذي وقفته في المدائن ؟
فقال : لا تلمني على ما مضى يا مولاي وانا لم اذنب اليك بعد ان ملكت .
قال : سامح الله ابن قبيصة فهو لا يحب ان ينكأ الجراح ..

ثم اومأ يأمرهم بالانصراف .

فدخل رجال اياس الاربعة يحملون المحفة فوضعوه فيها وخرجوا ، وخرج القوم .

فصعد الملك يتبعه عدي بن زيد ، ونديماه خالد وعمرو ، وحاجبه عصام بن شهبرة ، الى تلك المقصورة العالية التي هي مجلس شراب الملك الخاص ، ومقر عزلته وراحته من متاعب الملك .

وفي المقصورة الرياش الثمين الذي يوجد مثـاله في ايوان كسرى ، من وسائد الحرير المحشوة بريش النعام ، ومساند مبطنة بجلود الفهـود والظباء ، وأقداح الذهب والفضة يشرب بها الملك وندماؤه .

وأمام المقصورة على حافة البناء العظيم ، خيمة تسع عشرين رجلا ، وضعوا فيها المقاعد بشكل حلقة تحيط بمقعد من الديبـاج كبير مستدير هو مقعد الملك وسقف الخيمة وجانباها من جلود الاسود .

وعلى طول الجدار ، حاجز من تلك الاحجـار الضخمة ، عرضه ثلاثة أقدام ولا يعلو عن السطح الا مقدار قدم واحدة .

ولو نطقت مقصورة الملك ، لقصت على النـاس تلك الروايات الرهيبة ، روايات الحكم بالموت ، قذفاً من ذلك العلو الشاهق الى اعماق الفرات ؛ على كثيرين من خاصة اللخميين ورجالهم ؛ منذ بنى الخورنق النعمان الاول هذا الى اليوم .

فقد كان النعمان ، وابوه واجداده قبله ؛ اذا جلس احدهم في مقصورته او في تلك الخيمة المشؤومة ، يجلس سيافه وراء ظهره يلمع الموت مـن نصل سيفه ، ثم يبدأ بالشراب حتى يسكر ، وقد يغضب الله على احدهم

فيرفع صوته في ساعة شؤم فيأمر به فيطرح في الفضاء . بل قـــد يخطر ببال الملك السكران ان يسلي نفسه بذلك المشهد الغريب فيقذف برجل او اثنين الى ذلك النهر العظيم الصخاب بموجه وتياره، او يأمر بالمغضوب عليه فيقف الى جانب الحاجز الحجري ، على شفير الهاويـــة ، فيهوي السياف بضربة على عنقه يتدحرج بعدها جسده الى اسفل . الى حيث تدوسه الاقدام .

وحوادث النعمان الثالث اكثر من ان تعد . ففي كل يوم له الحادث او الاثنان . وقد لا ينتهي سكره وعربدته عند حد .

وكان عدي بن زيد ، يعرف كل ذلك ، ولكنه على علو منزلتـــه وقربه منه ، لم يكن كثير الاختـــلاط به ، فهو في المدائن والنعمان في الحيرة ، واذا زار الحيرة نازلا بالخورنق كان خفيف الظل لا يبـــدي للملك رأياً الا اذا سأله واذا ابداه تكلف في ابدائه المسالمة والمجاراة .

فلما انتهوا الى المقصورة . قال النعمان لعدي :

اتجلس هنا او هناك ؟ « واشار الى الخيمة » .

قال : اجلس في المكان الذي يختاره الملك .

فجلس النعمان عـــلى مقعده الوثير واومأ الى عـــدي والنديمين ان يجلسوا حوله .

ثم قال : يا عصام اسقنا ، ولينصرف الغلامان .

فشعشعت الخمر في الاقداح ، واقبل النعمان يجرعها صرفاً ويأ كل مما بين يديه من سمك مشوي وحمام مطبوخ . وعدي يشربها ممزوجـــة مع عصام والنديمين وقد طاب لهم السكر .

فلما اخذت فيهم الخمر ، قال الملك :
أعازم انت على السفر يا عدي ؟
ـ نعم يا مولاي .
ـ ومتى يكون ذلك ؟
ـ يوم يأذن لي الملك .
ـ انا ام كسرى ؟
ـ انت يا مولاي فليس لكسرى ان يأمرني وانا في الحيرة .
ـ اذن لك ملكان يا عدي ، واحد في الحيرة والآخر في المدائن .
ـ بل لي ملك واحد يا مولاي هـــو ملك العرب ، واذا كنت في ديوان كسرى فلاجل ان اخدم العرب واسترشد بامر ملكهم ورأيه .
ـ واذا امرناك بترك المدائن والاقامة في قصرنا تقوم على خدمتنـــا وقضاء حاجاتنا ، فماذا تقول ؟

فعاد الى ذهن عدي حديث هانيء بن قلام ، وخـــاف ان يكون صادقا فيه ، ولكنه لم يتردد في الجواب ، فقال :

لا اقول شيئا اذ ليس على العبد الا ان يطيع مولاه .
ـ واذا امرك كسرى بالبقاء ؟
ـ اعتذرت له وبالغت في الاعتذار حتى يرضى .
ـ ولكنه يعلم بعد ذلك انك تخدمني ؟
ـ واذا علم .
ـ يأمرني بقتلك فافعل اذ لا اطيق غضبه .
ـ واذا عصيتك وبقيت عند كسرى فانا مقتول ، فاذا كان لا بد

من القتل فخير لي ان اموت في طاعتك ، من ان اموت وانا في طاعة الفرس .

فاستوى الملك في مقعده وقد اثقلت رأسه الخمر ، وقال :

مثلك يا والدنا من يخدم الملوك ، اسقه يا عصـــام فعدي لا يعرف الخمر في مجلس كسرى ، وانتما يا ابن المضلل ويا ابن مسعود ، ما رأيكما في عدي .

فقال عمرو بن مسعود :

انه احسن الرجال مادام مخلصاً للملك .

فضربه الملك بوسادة كانت على ركبته وقال :

وهل أسألك رأيك فيه اذا كان غير مخلص . اغرب عـــن وجهي لعنك الله .

فقام عمرو فخرج وهو يبتسم .

ثم قام الملك لنديمه الآخر ، وانت ماذا تقول .

فقال خالد : يصلح عدي لان ينادمك معنا .

فصفق النعمان بيديه ، وقال :

احسنت يا ابن المضلل فانك خير الندماء .

فكادت عيني عدي تدمعان ، لهـــذا الملك العظيم البعيد الصيت ، الواسع السلطان ، يصرعه السكر كل يوم ، فيفضح نفسه ويخرج عـــن جلال الملك .

ثم ذكر النعمان عمراً . فقال الخالد :

ليحضر عمرو .

فقال عصام بن شهبرة :
ادخل يا ابن مسعود .
فدخل الرجل وهو يخفي ابتسامته . فقال له الملك:
اسقنا الخمر ولا تقل كلمة .
فبات ذلك المسكين يملأ الأقداح ولا يجرؤ على الكلام .
ثم قال الملك :

اقترحوا علينا بماذا نكافىء عديا . قل يا عصام ؟
فقال : بان تهب له خراج القطقطانة عن هذا العام .
فقال : بئس ما رأيت عصام . قل يا خالد ؟
قال : اعطه مائة ناقة من نوق العصافير(1)
فقال : وبهذا ايضا لا نبلغ الغاية . قل ياعمرو فقد اذنا لكفي القول.
قال : نح بني يربوع عن الردافة واجعله وزيرك .
فاجابه الملك : ما كنا لنفعل هذا فنغضب الجماعة . وانت يا عدي قل بماذا نكافؤك .
قال : اجل ما تكافؤني به ايها الملك . هو ان يفتر ثغرك لي كلما دخلت عليك ولو كنت غاضبا .
فاستلقى النعمان على وسائده واستغرق في الضحك .
وبلغ الخوف من حاجبه ونديميه انهم لم يجسروا على الضحك مثله .

---

(1) العصافير : ابل لملوك اللخميين نجائب .

بل ظهرت الابتسامات على الشفاه ثم لم تلبث حتى اختفت .

وقد كان الموقف يقضي عليهم بالضحك . بل كان من شأنهم ان يضحكوا ساعـة يضحك النعمان ، وتغبس وجوههم ساعة يقطب حاجبيه ، ولكنهم لم يفعلوا ، الا عدياً ، فقد اغتصب ضحكة قصيرة خرجت من صدره كصيحةالجريح .

وساد السكوت ، والملك يتقلب بين وسائده وقد تعب من كـثرة الضحك ، بل اتعبه السكر ..

ثم نهض فجأة وقال :

أتعلمون لماذا اضحك ؟

فقال عدي: انا اعلم يامولاي.

قال : لماذا ؟

قال : لهذا التمني الذي سمعت .

فعادت الرصانة الى وجه الملك وقال :

أجل ، فهل سمعت ان احداً يطلب اليه النعمان ان يسأله ما يبدو له فيطلب ابتسامة من ثغره .

فأجابه عدي وهو جاد :

حسبي ان تستمر هذه الابتسامة لعدي بن زيد ...

فلم يفهم الملك وجلساؤه ماذا عنى عدي .

ولكن عديا عمد الى التصريح فقال : اين ان يبقى النعمان راضياعن عدي حتى في ساعات غضبه ..

فقال الملك : بل اردنا لك غير ذلك يـا والدنا ، نعطيك خراج

القطقطانة عن عام ، ومائة ناقة باحمالها من طرائف العراق ، ونعطيك فوق ذلك مالا يطمع به احد من اشراف العرب ، أتدري ما هو .

قال : ومن يدري ما هو فكر الملك ؟

فارتسم الجلال على جبين الملك الشاب ، وبسط يده لعدي ، قائلاً بعظمة الملوك .

ان النعمان بن المنذر اللخمي ، لا يطيق ان يرى بين العرب والفرس رجلاً يحب عدي بن زيد اكثر مما يحبه ، ويعرف قدره اكثر مما يعرفه، بل لا يطيق ان يرى رجلا على سطح الجزيرة وفي بلاد العجم اكرم منه. لقد زوجناك هنداً ..!!

وكان كلامه كلام ملك لا كلام سكران ..

فرأى عدي الجد في عينيه ، وجلال الملك يملأ وجهه ، فحاول ان يجيب ، ولكن الدموع خنقت صوته فوقف الكلام في حلقه .

ولكن الملك لم يقف عند هذا الحد بل استطرد قائلا :

وانت تعلم يا والدنا ان كسرى لو طلب هنداً لما اعطيناه ، اترانا وهبنا لك اكثر من ابتسامة .

فظهر حب الملك وايثاره عديا بكل معناه ؛ ولكن الحاجب والنديمين لم يثقوا بهذا القول ، لان الملك كان سكراناً ، وهم لا يحترمون كثيراً تلك الالفاظ الخلابة التي تخرج من فمه في ساعات السكر .

اجل ، ان النعمان كان كثير العطاء ، وجواداً الى حد الاسراف ، ولكنه كان يأمر في ساعات السكر بما لا يطيقه وهو صاح ، فاذا صحا عدل عطيته او منعها ، وان نفذوا قوله على الاثر ، عض في اليوم الثاني

اصابعه ندما على عطاء في غير موضعه .

وكثيراً ما كان يفعل ذلك ثم يظهر ندمه لجلسائه ، حتى ان الخارجين عن البلاط ، من اهل الحيرة . كانوا يعرفون عادته فلا يسألونه الاحسان الا في ساعات الصحو . والا عمدوا الى قهرمانه فرشوه بالمال ليعطيهم نصيبهم من احسانه عندما يأمر به .

كذلك كان يفعل النابغة الذبياني شاعره الاكبر . يقسم العطايا بينه وبين قهرمان النعمان اذا عجلها له .

وعدي نفسه . على جهله حياة الملك الخاصة . وكان يعلم ذلك لكثرة ما تتناقله افواه المقربين ورجال البلاط . الا انه راى في وجه الملك ما لا يظهر عادة على وجوه السكارى . من بريق في عينيه ، ورصانة في لهجته وعزم ثابت في كل مظهر من مظاهره .

فاحمر وجهه . وظهرت الدموع في عينيه تنطق باعترافه بجميل مولاه .

ولكنه ظل ساكتا . لان الخجل قد عقد لسانه .

فلما لم يسمع الملك جوابا . اجال بصره بالقوم ثم قال :

يا عدي !

اتعرف ماذا يظن هؤلاء القوم ؟

فقال عدي : ومن اين لي ان اعرف يا مولاي ؟

قال : انهم يقولون في انفسهم ان الملك سكران ، يمنع عند الصباح ما يجود به في الليل . اتراك تقول انت في نفسك مثلما يقولون ؟

فاضطرب النديمان وعصام بن شهبرة وخفقت قلوبهم .

اما عدي فقال : ما كان الملك ليمنع احد عطاءه الا اذا كان لا يستحق . وانا من اولئك الذين لا يستحقون عطاءك .

فقال : بل نزيد لك العطاء . لنثبت لهؤلاء الملاعـين ان الملك اذا وعد وفى بوعده . لقد امهرنا هنداً بمائة الف درهم . وبما يعادلها من اللؤلؤ وبألف ناقة من نوق المنذر . واقطعناها بستانين من بساتين النجف بما فيهما من خول ونعم وعبيد . وجعلنا لكل ولد تلده هند حِصة من بيت المال ما دمنا ونعترف لك فوق ذلك يا والدنا باننا لم نبلغ الغاية مِن مقابلة المعروف بمثله .

ثم التفت الى عمرو بن مسعود وقال له :

اكتب يا عمرو كل ما قلناه الآن !

فكتب عمرو كل ما قال الملك . فقال :

اعط عديا ما كتبت . . خذ يا والدنا هذا الرق وطالبنا غداً بما جاء فيه .

فجثا عدي على ركبتيه ، ومد يديه الاثنتين كالمسترحم الذليل وهو يقول :

لقد غمرتني باحسانك يا مولاي . ولكن . . .

ـ ولكن ماذا ؟

ـ ولكني لست اهلا لهند فحولك من الملوك والامراء من يستحق ويصلح لها اكثر من عدي بن زيد .

فقال : انت صهرنا منذ الآن فلا تمانع .

قال : ولكن هنداً في الثانية عشرة يا مولاي فانا في السادسة والاربعين.

فقال : كن ابن ماثة فالملك راض وهند سترضى . يا عصام . احضر هنداً الساعة .

فنهض عصام وقد اشرق وجهه وهو لا يصدق ما سمعته اذناه .

وساد السكوت ساعة والملك يشرب حتى اقبلت هند .

وكانت على صغر سنها ، تعرف مقامها وتثق بنفسها .

فمشت بعظمة وجلال حتى وصلت الى مقعد النعمان فجلست بين وسائده .

فقال النعمان : يا هند . اتعرفين احداً يستحق عطفنا اكثر من عدي ابن زيد ؟

فنظرت هند الى عدي وقالت :

قد يكون بين العربان من يستحق رضاك اكثر منه . اما انا فلا اعلم .

قال : ونحن ايضا لا نعلم . ثم ألا تعرفين ان زوجته قد ماتت ؟

ــ نعم .

ــ وانه اضطر الى وضع طفله زيد في بيت هانيء بن قلام ؟

فقالت : لا اعرف ذلك يا ابي .

قال : وضعه في بيت هانيء وسيتركه بعد ايام عائداً الى المدائن فلا يراه الا مرة او مرتين في العام ، افلا يجدر بالملك ان يختار له زوجة تهتم لامر طفله وتعيد البهجة الى بيته ؟

ــ : اتستشيرني يا ابي ؟

ــ أجل فان لك لرأياً .

فقالت هند في نفسها : ذلك فعل الفر والا لما استشارني في امر .

ثم قالت : ألم تجد حولك يا ابي من تستشيره في امر عدي بن زيد الا انا ؟ !

فضحك الملك وقال : لا ، فليس حولي من يعنيه امر عدي ...

قالت عجباً ايعنيني انا وحدي ؟

قال : نعم ، ولم يزد كلمة .

فتلفتت هند فرأت عديا مطرقا والقوم يحبسون انفاسهم ..

فتصاعد الدم الى وجهها لانها عرفت ماذا يريد الملك . .

فتمتمت تقول لابيها : اذن هنالك قضية زواج يا مولاي .

قال نعم وقد اخترنا لعدي أجمل فتيات العراق واعلاهن نسباً واعزهن مقاماً .

فقالت : ليس في العراق اعز مقاما من بنت الملك أأنا هي زوجة عدي !

قال : نعم فعدي خير الازواج ، فماذا تقولين ؟

ولم تكن هند ، في هذا السن ، لتفكر في امر الزواج ؛ ولكنها كانت ، في الوقت نفسه ، تلك الفتاة الكبيرة النفس ، الحسنة الخلق ، وقد نشأت في بيت الملك على الطاعة والرضى ، لا تعصى لأبيها امراً ولا يرتفع لها صوت .

ولفرط ذكائها ، قدرت ان تفهم ان الزوج الذي كان رفيقاً لجدها ومربياً اباها لا يصلح لها ، ومع ذلك فلم تشأ ان تغضب أباها بالرفض .

فهمت بالجواب ، فسبقها عدي قائلا :

لا تظلمي نفسك بالرضى ايتها الاميرة .

فقالت : اذا رضيت بك زوجا فقد احسنت الاختيار، لقد رضيت يا مولاي .

فصفق النعمان بيديه وضمها الى صدره .

اما هي فبكت ، كالطفل يبكي في حضن امه حتى بلت ثيابها الدموع .

فقال عدي . اذا كان لا بد من الزواج يا مولاي فحدد اجله .

قال . ذلك أمر آخر نشاور فيه زوجتنا فرعة ، والدة هند ، اشربوا الان ، وانت يا ابن مسعود قد اذنا لك في الكلام فاملأ الاقداح ، وانت يا عصام رافق هند الى امها وقل لابي امامة « النابغة » ان يحضر مجلسنا هذا ، قومي يا هند .

فنهضت « العروس » وهي لا تبصر ما امامها من كثرة الدموع .

ولج النعمان في الشرب وهو مشرق الوجه يضاحك عدياً ونديميه حتى عاد ابن شهبرة .

فقال : اراك وحدك فاين شاعرنا ؟

قال : ما وقفت له على اثر فقد يكون مع بشر بن ابي حازم في خيمة على الفرات يتناشدان الشعر .

فقال : قتله الله انه يصبح ويمسي على الشاطيء ، أحضر لنا جارية من جواري القصر تغنينا بشعره .

فقال ابن شهبرة في نفسه . ان الملك لا ينام الليلة وقدعاهدت هانيء

ابن قلام على الذهاب اليه .

ثم رجع فقال : لقد نامت الجواري يا مولاي .

فهز الملك رأسه وقال . كذبت يالعين فلا تجسر احداهن على النوم وانا سهران .

فقال عصام : ما كـــذبت يا مولاي فالليلة دور العبيد في الخدمـــة والسهر لا دورهن ..

فالتفت الى عدي قائلا :

هنيئا لمن ينام من غروب الشمس حتى يطلع الفجر .

وجرع الملك جرعات كثيرة الواحدة تلو الاخرى حتى ثقـل رأسه فقـــال :

ننزل الان فننام ، اعطني يدك يا عصام .

وتوكأ الملك في النزول على كتف حاجبه حتى بلغوا صحن الخورنق، فغادرهم الى حجراته متغلغـــلا في ذلك الرواق الطـــويل الذى يسوده الظلام .

* * *

٨

هانيء وعدي وعصام

ومشى خالد بن المضلل وعمرو بن مسعود في الجهة الثانية من الرواق، اما عدي فاتجه الى الباب الكبير يريد الخروج .

فاستوقفه ابن شهبرة قائلا :

الا تبيت الليلة في القصر يا عدي ؟

قال : لا بل ابيت خارج القصر في بيت صديق لي .

وخرج وهو يفكر في امره .

فلما بصر به الحراس حسنوا له رؤوسهم وهمس احدهم يقول لرفيقه.

لو شاء هذا الرجل ان يعزل النعمان عن العرش لاستطاع ، فهو كاتب كسرى وامر العرب والاعجام في يده .

فاجابه رفيقه : لو كان يريد عزله لما ولاه .

فقال : من يعلم فقد يتلبد الغيم فجأة وينزل المطر .

واذا بهما يسمعان وقع اقدام .

وكان القادم عصام بن شهبرة ، فلما ابصراه تنحيا له مسلمين .

وكان عصام ملتفا بعباءته وسيفه الطويل ينكت الارض وراءه فيخط سطوراً تدل عليه .

فقال الحارس : حاجب الملك وعدي بن زيد يخرجان في هذا الليل . ان في الامر لسرا .

فقال له رفيقه : اراك تهتم لما لا يعنيك وقد نسيت رأسك . . . !

قال : اصبت فنحن معاشر الحراس كالتماثيل يجعلونها على الابواب .

وكان الناظر الى عصام يحسبه متتبعا آثار عدي ؛ فكلما دار عدي دورة دار عصام خلفه ؛ واذا وقف وقف ، كأن عديا يقود ابن شهبرة كما يقود فرسه .

حتى طرق عدي باب هانيء بن قلام .

فقال عصام في نفسه .

ما أخطأت فكلانا يريد هانئا .

وضمت الثلاثة حجرة واسعة لا نور فيها ؛ الا ذلك الشعاع الضئيل يرسله نور السراج الموضوع على اسطوانة في الرواق .

فخفض هانيء صوته وقال .

ماذا ترى يا عصام ؟ ان عديا لا يصدق ما قلته لي ؛ فهو يحسن ظنه بجميع الناس حتى بعدي بن مرينا ، ويغره منه ، انه كلما وقع نظره عليه حنى له رأسه واعتذر عن ماضيه ، وان الاسود لا يغمطه حقه ومنزلته في مجلس النعمان ، واني لاحسبه مستسلما لعدويه حتى يورداه المورد الصعب ويقع في شر لا ينجو منه ولو مد جبريل اليه يده فقل له يا عصام ما سمعت فعساه يحس بالخطر ويتدارك الامر .

فقال عصام : اتعرف عبدالله القيسي يا عدي ؟

قال . لا :

قال : هو رجل من قيس تزوج من بني مرينا واقام في حيهم ؛ وهو من اصدق الناس واخلصهم لبني شهبرة ، فلما كان في بعض لياليه ؛

سمع عدي بن مرينا يقول لبعض اخوته . ان عدي بن زيد في الحـــيرة وانا عامل على قتله ان لم يكن اليوم فغدا ، فقال له اخوه . ما تقـــدر عليه الا اذا غيرت النعمان ، فقال ، وهو سيتغير ان شاء الله .

ثم جاءني عبدالله فقص علي الخبر كما سمعـــه لم يزد حرفا ولم ينقص حرفا ، فعمدت الى ابن مرينا اسالمه في الرأي واجاريه حتى عرفت انه على يمينه التي حلفها لك في المدائن سيبر بها ويبغيك الغوائل كما قال .

وانا اعرف ان ابن مرينا اكثر مما تعرفه ، فهو اخبث اهل العراق ، واشدهم نكاية بعدوه ، واكثرهم احتمالا لما يرى وما يسمع حتى يستقيم له الامر ، وقد رأيته بعيني يحادث الاسود بن المنذر ويغريه ، فاذا بلغ غايته من اغرائه فقد قتلك ، وانا لا ابيعك بألف رجل من امثال هذا الساعي اللعين وأمثال الاسود الجاهل المفتون ، شقيق النعمان .

أجل ، قد يفشل ابن مرينا واشياعه ، ولكن العاقل من يتـــدارك أمره قبل وقوعه ، ومثلك من لا يأمن الزمان فقد ينقلب الزمان واهل الزمان في ساعة لا ينتظرها احد .

انهم سيسعون بك من وراء الستار ، ولولا ذلك لنازلناهم في وضح النهار وخرجنا من الميـــدان ونحن ظافرون.

ولم يكن عدي كما رأيت ، ليهتم لما قاله له هانيء بن قلام في اول الليل ، فلما سمع ابن شهبرة يروي روايته ؛ ظهر الاضطراب على وجهه وبذل الجهد كله ليخفيه تحت مظاهر السكينة وعدم الاكتراث .

وعاد عصام الى الحديث قال :

فاخبرت هانئا بكل شيء على أمل ان يفضي اليك بالسر ، ثم ننظر

نحن الثلاثة في ما يجب اتخاذه من الوسائل لرد كيد ابن مرينا .

على انك لم تصدق الخبر ، فبعث الي هانيءان احضر الليلة ،ففعلت، وانا لا ادري لأي سبب دعاني الآن .

فقال عدي : لقد كنت يا عصام ولم تزل ؛ ذلك الصاحب الذي يخلص النصح ويثبت على الولاء ، فانا اشكر لك ذلك ، ولكن اترى ابن مرينا والاسود معه ؛ يستطيعان ان يغيرا قلب النعمان وقد رأيت من بره وعطفه ، وايثاره اياي على جميع الناس .

قال هانيء : وماذا فعل الملك ؟

قال : لقد اغدق علي عطاياه .

فضحك هانيء وقال : انه يعطي الشعراء والفقراء اكثر مما يعطيك .

قال عصام : ولكن هنالك شيئاً لا يجود به على خاصته وقد جاد به على عدي .

ــ وما هو ؟

ــ زوجه بنته هنداً وهي جارية لم تبلغ بعد .

وقص قصة الزواج على ابن قلام .

فاطرق هانيء يفكر في الامر ثم قال :

وماذا ترى يا عصام ؟

قال : رأيت عدياً لم يهتم كثيرا لهذا الزواج وهذا خطأ .

ــ وهل رفض هندا ؟

ــ انه لم يرفضها ، ولكنه حاول اقناع الملك بالعدول عن ذلك ، كأنه يكره ان يكون زوجا لفتاة في عمر هند .

فقال ابن قلام افعلت يا عــدي ؟

قال . وكيف لا افعل وانا اعلم ان هذا الزواج جناية يقدم عليهـا اولا ثم تصبح في عنقي ؛ امن الهين ان يتزوج الكهل فتاة من عمر اصغر اولاده وهي لا تعــرف لولا مواشطهــا ان تعقد شعرها ضفــائر كما تفعــل النساء .

قال عصام : خير لك ان تكــون في الثانية عشرة من ان تكون في العشرين .

ـ ولماذا ؟

لانها متى كبرت ملأت بردتيها الخيلاء وعزة الملك .

ـ ولكنها ملكة على كل حال ، وهي لا تجهل ذلك وان تكن صغيرة افلم ترها كيف كانت تحدث أباها برصانــة الملكات .

فقال هانيء : لننظر في الامر من وجــه آخر .

قال ابن شهبرة : ننظر في مــاذا ؟

قال . ان الزواج لم يتم وقد يعدل عنه الملك عنــد الصباح . .

قال . لا اظنه يفعل ؛ لانه استطاع ، عنــد وعده به ، ان يخمــد ثورة شكره ؛ ويظهر بمظهر الملوك الذين لا ينكثون العهــود ، اتعرف ماذا فعل ؟

ـ لا اعرف شيئا .

ـ انه امر نديمه عمرو بن مسعود بأن يكتب ما وعد به عدياً .

ـ وبعـد ذلك ؟

ـ ثم طرح بما كتب الى عدي وقال له . احفظ هذا وطالب بالوفاء

به عندما تشاء .

ــ اذا لم يبق بد من الزواج .

ــ هكذا ارى الا اذا رفضت الملكـة .

ــ متى اراد الملك امراً ارادته فرعة ، فهي لا تمـانع في شيء يراه الملك واجبا ، ومـاذا ترى الان ؟

ــ ارى ان يتزوج عدي هندا دون ان يتردد .

ــ وهذا هو رأيي ، فماذا تقول يا عـدي ؟

قال . ان زواجي الان فضيحة لآل زيد ؛ افـلا تقول عني العرب ان عدى بن زيد تزوج هندا وجثة زوجته الاولى لم تبلى ؟

قال ابن شهبرة : ولكن هذا الزواج ضمان لحياتك ، فمتى اصبحت هند زوجة لك ، تهيبك الاسود وابن مرينا ، وخافا ان يسعيا بك لدى النعمان وانت صهره ، وهب انهما قدرا ان يغيراه عليك ، فهو يخجل ان ان ينزل بك الاذى وانت زوج هند ؛ ولتقل العرب مـا شاءت فليس يلحقك ذل فيا تقول .

وقال ابن قلام ، اما اذا رأيت ان تجعل لزواجك اجلا فلا بأس .

وطال الحديث بين الثلاثة حتى اقتنع عدي ، ولكنهم تركوا لارادة النعمان تعيين الموعد .

وعندما انتصف الليل ، غادرابن شهبرة منزل نسيبه ابن قلام عائدا الى الخورنق ، وقد وعد الاثنين ، عدياً وهانئا ، انـه ينقل اليهما مـا ينتهي اليه من احاديث المتآمرين .

٩

أم هند والنعمان

كانت فرعة بنت سعيد بن حارثة ام هند ، قد استغرقت في النوم عندما عادت هند من مقصورة ابيها في الليل الذي مضى .

ولكن هنداً لم تنم ، فقد كتب لها — وهي في الثانيـــة عشرة — ان تفكر في زواج لا رغبة لهـــا فيه ، وفي عهد جديد كان الموت احب اليها منه .

ولم تكن هند لتكره عدياً او تبغضه . بل هي تحبه كما تحب اباها على قدر ما تدرك من معاني الحب . وتحترمه الاحترام كله حتى لتأنس به اكثر مما كانت تأنس باعمامها الكثيرين واخوالها بني حارثة .

ولكنها ما احبته ليكون زوجاً لها ؛ ولم يقم في ذهنها ان هذا الذي كانت تقعد في حضنه ؛ وتعبث بلحيته كما كانت تعبث بلحية جدهـــا سعيد تمسي زوجة له .

وهي لو خيروها في ذلك الحين؛ بين الحياة في الخورنق وبين الزواج ، بل لو خيروها يومئذ في حياتها الخاصة ، لاختارت فتى من فتيان العرب تلعب معه في بساتين النجف ؛ او فتاة من بنات النبلاء تحفر معهـــا على الشاطىء بيديها الناعمتين ؛ بيوتاً تشبه حجر الضب في الرمال .

واستغرقت في التفكير والدموع تملأ عينيها وهي لا تجرؤ ان ترفع صوتها في البكاء .

حتى تعب دماغها وثقل رأسها ؛ فاستسلمت للنوم ؛ ولكن نومها كان ذهولا حتى انقضى الليل .

فوضعت فرعة في الصباح رداءها الملكي على كتفيها وخرجت من غرفتها تريد غرفة هند .

وتلك كانت عادتها منذ جعلوا لهند حجرة خاصة ترقد فيها مع جاريتها السوداء .

فلما ابصرت الفتاة امها ، عـاد الدمع فجأة الى الظهور ، فغطت عينيها بيديها ، ومسحت ذلك اللؤلؤ النازل على خديها ، كالمستيقظ من النوم يمسح عينيه بباطن كفيه .

فأقبلت فرعة تلثم جبينها وهي تقول :

انهضي يا ابنتي فنحن سائرون الآن الى الخيام .

« والخيام بيوت متلاصقة مستطيلة جعلوها من القصب على الشاطىء تقضي فيها نساء البيت المالك ووصائف الخورنق معظم الأيام » .

فاجابت هند وعيناها مغمضتان :

اني اوثر البقاء في القصر يا اماه .

ــ ومتى كنت ترفضين الذهاب الى الفرات والخيام احب اليك من قاعات القصر .

فقالت اني مكرهة على الرفض الا اذا اذن الملك .

ــ ولماذا ؟

ــ لاني مخطوبة .

ــ اتهزئين بامك يا هند ؟

ـ لا يا اماه فقد خطبوني امس .

فبغتت فرعة وكادت تصيح من شدة الاضطراب .

ثم قالت : ايخطبوك يا هند وانا لا اعلم ؟

فقالت : هكذا اراد ابي .

فلم تسألها فرعة عن ذلك الخطيب . ولكنهـــا تمتمت تقول بصوت يقطعه تنفسها المضطرب .

أكانت الخطبة في مجلس الملك ؟

ـ بل في مقصورته الخاصة.

ـ اذن دعاك اليه ولم تسأليني ؟

ـ ولماذا أسألك يا اماه وقد جـــاءني عصام بن شهبرة بامر ابي يستقدمني اليه .

ـ ومتى كان ذلك ؟

ـ في الهزيع الاول من الليل .

ـ من كان مع الملك في مقصورته ؟

ـ حاجبه ونديماه وعدي بن زيد .

فاضطربت الملكة اضطراباً شديداً لانها عرفت صهرها .. فقالت، والالفاظ تكاد تقف عند شفتيها :

اعدي بن زيد هو يا بنية !.

ـ نعم ، ان زوجي هو عدي بن زيد .

ـ هل كان الملك يشرب ؟

ـ وماذا يفعل في مقصورته مع نديمه وحاجبـــه عندما يجن الليل ؟

اجل كان يشرب ، ويشرب كثيراً ، حتى ان الكأس لم تكن تفارق يده وشفتيه .

ـ اعيدي علي اذن ما قال .

ـ فأخذت هند تعيد قول الملك لا تنسى منه كلمة .

ولكن فرعـــة كانت واثقة بأن ذلك الكلام كـــلام سكران لا كلام صاح ، اذ كيف تصدق ان الرجل يهب ابنته الصغيرة لرجل مطل على الخمسين دون ان يستشير امها في الامر ، فقالت لهند :

سيمحو الصباح انشاء الله تلك السطور التي كتبت في الليل .

وهي تعني ان النعمان سيلغي ما اثبته امس .

قالت : من يعلم يا اماه ، فقد يفضل الملك سقوط التاج عن رأسه على ان يمحو كلمة واحدة مما قال ، فماذا تفعلين اذ اصر الملك عـــلى تنفيذ قوله ؟

ـ وماذا افعل يا هند ، بل ماذا يفعل كسرى نفسه اذا مضى الملك في امره ، ان المساعي التي تبذل في سبيل اقناعه ، تضمحل امام عزيمته الثابتة كما يضمحل الدخان في الفضـــاء ، ولكن لا بـــد لي من البحث معه في القضية ولو عرضت نفسي لغضبه ، فلعل في الامر ما فيـــه من دهاء وسياسة .

اما عدي بن زيد فليس لي فيه رأي وأنا اسمع النعمان وابن شهـــبرة يثنيان عليه ويذكران له الفضل على العرب وعلى العرش ، أجـــل ، ان هنالك من يبغضه ولكن هذا البغض لا يعد شيئاً اذا كان الملـــك راضياً فتعالي ندخل على ابيك قبل ان يجلس للناس وتزدحم الوفود ببابـــه ،

تعالي يا هند .. وامسحي هذه الدموع المنحدرة على خديك فالبكاء لا يليق ببنات الملوك ، انهضي .. واظهري امام ابيك بمظهر المرأة التي لا تزعزع الحوادث لها عزماً ، لا بمظهر الفتاة الواهية القوى والضعيفة الارادة ، واذا اصر الملك وكان مخطئاً فارفضي ، فاذا لج في الطلب فأفهميه ان هذا الزواج يفضي بك الى الموت فتنقلب الحال عندئذ على ما أرى ويعدل عن رأيه .

فهزت هند رأسها وهي تقول :

ولكني اظهرت الرضى وانتهى الامر .

ـ لم ينته شيء ، انك أظهرت الرضى للنعمان بن المنذر بصفته ملك العرب ، اما الآن فانك ترفضين وتقنعينه بالحسنى ، بصفته اباً لا ملكاً ، قومي ولا تخافي .

فقالت هند : أنا لست خائفة ، ولكني لا أريد ان اغضب النعمان بصفته ملكاً واباً ، ومع ذلك فانا اذهب وسترين انه لا يرضى الا بان يفي كما وعد .

ونهضت فغسلت وجهها وارتدت ثيابها ومشت وراء امها حتى دخلتا على النعمان وهو في فراشه .

فابتسم للاثنتين ، ومد يديه فتناول هنداً ، كما يتناول وسادته وأجلسها على فراشه وهو يقول :

ان سيدتنا الملكة لا تقدم علينا في الصباح الا لامر ، قولي يا فرعة فانا سامع .

فقالت فرعة : جئت أهنىء مولاي الملك بخطبة هند .

فضحك وقال :

وهل نقلوا اليك خبر الخطبة في نصف الليل ؟

قالت : نقلته الي هند منذ ساعة .

ــ أهند فعلت ذلك ام اللعين ابن شهبرة ؟

فقالت : لم أر لابن شهبرة وجهاً منـذ امس .

ــ : اذن سبقتني هند في نقل الخبر اليك فما هو رأيك الان ، وما هو رأي هنـد ؟

ــ نحن لا نرى الا ما يراه الملك .

ــ اذا كان الامر كذلك فقد رأى الملك ان يزوج عدي بن زيد بنته هنداً ، ومتى قال الملك قولا فعلى العرب جميعها ان تطيع ، واما اذا كان لك ما تقولينه لزوجك لا لمليكك فافعلي ، والا فاسمحي لي بان اقـول عنك ما تريدين قوله .

ان هنداً لا تريد عدياً كما انها لا تريد ، في الوقت نفسه ، ان تغضب ملكها واباها ، فلما روت لك رواية الخطبة ،زينت لها العصيان ،وجئت تسألينني العدول عن عدي وانت تظنين ان الملك لم يزوجه هنـداً الا في ساعة من ساعات سكره ، اذن فاعلمي اني لم اكن قط صاحياً اكثر مني في تلك الساعة ، واني لاذكر كل كلمة خرجت من فمي وليس في بلاد العرب كلها من يغير ارادتي ، حتى اذا جاءني كسرى نفسه وجثا عـلى ركبتيه امام عرشي طالباً ان انكث عهدي لما فعلت .

أجل اني لم اكن في تلك الساعة والداً بل كنت ملكاً ، ملكاً يبني الدعائم الثابتة حول عرشه ، ويحفظ التاج على رأسه ، لينتقل هذا التـاج الى

رؤوس بنيه من بعده ، فاذا غلبت مصلحة الملك عاطفة القلب ، فذلك لاني لا أحب ان تستهين العرب باولادي ، فيصبحوا من العامة بعـــد موتي ، وقد كانوا ملوكاً ، أفهمت الان ؟

فرأت فرعة ان التصريح خير ما تلجأ اليه في حديثها مع الملـــك ، فقالت :

لم أفهم شيئاً .

فقال الملك : ولكنك لا تخرجين من هنا الا وقد فهمت كل شيء أتعلمين لماذا زوجت عدياً ؟

قالت : لا أعلم هذا ولكني اعلم انك تعجلت هذا الزواج .

قال : بل تأخرت ، ولو لم تكن هند قاصرة لفعلت ذلك منذ سنة ، الا تعرفين الرجل الذي رباني ؟

ـ اعرفه فهو عدي .

ـ والذي عصب رأسي بتاج العراق ؟

ـ عدي نفسه .

ـ والذي ينزع التاج عن هذا الرأس ساعة يشاء .

ـ هو ملك الملوك كسرى .

ـ بل هو عدي بن زيد ، لانه كاتبه والوسيط بينه وبين العرب ، فاسمعي يا فرعة ، واريد ان تستوعبي يا هنـــد ما اقوله الان :

ان اخوتي احد عشر رجلا كثيرو العدةوالمال ، وكلهم طلاب التاج ، ولم يكن في ديوان كسرى ، يوم دعانا اليه ،من يختارني للملك الا عدي ، وكنت في ذلك الحين ، يا سيدتي الملكة ، فقيراً يقرضني أغنياء الحيرة ،

واخوتي أغنياء يبذلون ما لهم في سبيل العرش العربي لا يبخلون بشيء منه على مرازبة الملك الفارسي، وخاصته ووزرائه ، يستعطفونهم بالذهب ليمهدوا أمامهم ذلك السبيل الوعر المؤدي الى العرش.

فبذلت أكثر مما بذلوا ، ولكن من مال الناس ، وانا اعلم ان الملك صائر الى سواي ، والمال الذي أنفقه يضيع في ذلك البلاط الرحب كما يضيع الدرهم في الرمال ، أو كما تضيع قطعة النحاس في اعماق الفرات، وعدي بن زيد ، من وراء الستار ، يعدني بالعرش ، ويتظاهر انه يجفوني ويؤثر اخوتي علي حتى ملكت ، ألا ترين وفود العرب أيتها الملكة ، تتزاحم على بابي ، وساحات الحيرة تموج باتباعي ، والخورنق الرحب يضيق بخدمي وندمائي؟! بل ألا ترين هذا العز الذي تتمتعين به ، وأشراف العرب والامراء يحنون لك الرؤوس في الصباح والمساء ، وانت تكادين تعيشين في القصر على اكتاف الخدم وفي افئدة الجواري ومهج العبيد ؟ ألا ترين كل ذلك يا ملكة العرب ؟

فاختلج صوت فرعة ، وأحست بجميل عدي بن زيد ينتصر على شعورها وعاطفتها الوثابة ، فقالت للملك :

أجل ، اني ارى كل ذلك .

قال : ألست انت اميرة الناس جميعهم في القطر العربي تخضع لك رجال العرب والنساء ؟

— بلى .

قال : أليس قابوس ، فتاك الصغير ، اعظم نبيل في العراق ، وارفع منزلة واعز مقاماً من أعمامه ابناء المنذر انفسهم ؟

ــ بــلى .
ــ الست أغنى اغنياء العرب لا يفرغ بيت مالي حتى يمتلىء ، واهل بيتي يتقلبون بين اكداس اللآلىء والذهب ؟
فقالت : ما أنكر شيئاً من ذلك .
قال . فقولي لي الان ما هي اسباب هذه النعم ؟
قالت . اسبابها الملك ..
ــ ولو لم املك ؟
ــ لكنا مثلما يكون جميع الناس .
ــ اذن فاعلمي انه لولا عدي بن زيد لما اصبحت ملكاً ، ولما امسيت يا فرعة أعظم نساء العربان .

فحسبت فرعة انها فهمت كل شيء ، فقالت :
الم تجد بين نساء العراق من تكافىء بها عديا غير هند ؟
فابتسم الملك قائلا . ليس في الامر مكافآت ايتها الملكة بل هنالك موت وحياة .

لقد استغربت كثيراً اقدام الملك على هذا الزواج ، اليس كذلك ؟
ــ ولماذا لا استغرب وانا ارى الملك يزف بنته الطفلة الى الرجــل الكهل ؟ اليس بين شباب العرب، فتى تزوجه هنداً ، وفي العرب الفتيان النبلاء الذين ورثوا الشرف والمفاخر ؟
ــ ان في العرب كثيرين من هؤلاء وكلهم يصلحون لهند . ولكني لم اجد بينهم واحداً يصون عرش العراق ، الم تفهمي بعد ؟
فسمعت فرعة نغمة لم تسمعها من قبل ، بل أحست ان هناك سياسة

جديدة يبني عليها الملك نظره في زواج هند .

فارادت ان تصبر الى النهاية حتى يأتي الملك على حديثه كله ، فقالت: أتدخل قضية العرش في قضية الزواج ؟

قال : اجل فليس هنالك ما يحفظ العرش الا هذا الزواج . واحب ان تعلم هند ، ان التاج الذي تبرق جـواهره على رأس ابيها لا يثبت على هذا الرأس الا اذا زفت الى عدي .

وكانت هند تحبس أنفاسها لتصغي الى ذلك الحديث الخطير الذي يخرج من قلب الملك لا من شفتيه .

ثم قال النعمان :

ليست القوة في لبس التاج بل في حفظه ، وكيف اكون ملكاً اذا انا اهملت امري ولم افكر في مستقبل اولادي؟ اني ارى العرش يتصدع تحت قدمي فلا يلبث حتى ينهار فاسقط معه على الحضيض ثم تصبحين يا سيدتي الملكة جارية في الخورنق وانت سيدته الان، ان الطامعين بالعرش كما قلت كثيرون يا فرعة ، هم اعظم اهل العراق ، بل هم ابناء المنـذر يرثون اباهم كما ارثه انا ، وهم – لولا كسرى – احق مني بالتـاج ، واكثر رجالا ، واني لاراهم يسعون بي في المدائن حتى يوغروا صـدر الملك فما هو إلا ان يقول كلمة حتى يتربع غيري على العرش وامسي رعية لهذا الغير .

لقد قربت اخوتي واصطنعتهم ، ووهبت لهم من العطايا والاموال اكثر مما كان ابي يهب لاعمامي ، ولكني لا آمن شرهم ، فقـد يزين لهم الاتباع الخونة الخروج على الملك فيشترون رجال كسرى ، وليس بينهم

من لا يبيع ضميره ثم يعمدون الى العصيان بقوة اشياعهم وسلاح الانصار ، وعندئذ ، اتعلمين عندئذ ماذا يحدث ؟ ان كسرى بدوره يبعث سفيره الى الحيرة فيخلعني عن العرش ، ثم يقول لعشائر العربان ، لقد خاف الملك ان تعم الفتنة فعزل النعمان وولى امركم فلاناً اخاه ، وهكذا ينقضي امرنا بالنزول من المقام الاسمى الى الموضع الادنى ، وان عصيت امر الفرس حاصرني الاعداء فقتلت .

وكسرى يا فرعة ، لا يهمه من امر الملك الا ان يضع التاج على رأسه ويجلس على عرشه الذهبي العظيم ، يبتسم لوفود العرب والهند والصين واليمن والروم يركعون امامه ويسجدون له كما كنا نسجد من قبل « لسبد » وكما نسجد اليوم امام صورة المسيح بن مريم ، فاذا اجمع مرازبته ووزراؤه على أمر فعلوه بالحيلة ام بالرضى ، فهم المالكون بالفعل وكسرى يملك بالاسم .

فقالت فرعة في نفسها : لقد اخذ عذر الملك يبدو بجلاء . .

ثم استطرد النعمان قائلا :

وليس في ديوان كسرى ، على كثرة الندماء والخاصة ، من ينتصر للنعمان اذا لعب الذهب دوره ، فانا وحدي واخوتي كثار ، ابذل درهماً فيبذلون الفاً ، واذا استرضيت كسرى لقربي منه استرضوا ثلاثين « كسرى » من اولئك الرجال المسلطين على كل شي ، فلا يبرحون باب الملك حتى يقنعوه فيبعثوا بي ذليلا مغلوباً الى حيث لا يعلم بامري الا الله.

ولكني لست جاهلا ، فاخوتي وان اظهروا الطاعة ، فبريق التاج يخلب البابهم ويستهوي قلوبهم ، وخلفهم من لا يغمض له جفن حتى يقضي

على النعمان ...

والآن ألم تفهمي ؟

قالت : احسبني فهمت بعض ما تريد قوله .

فقال : يهمني ان تفهمي كل ما اريد لا بعضه .

قال هذا والتفت الى هند .

وهند كلها عيون وآذان .

ثم قال : ستكونين بيننا حكماً يا هند ؛ أتصغين الى الحديث الذي قلت ؟

قالت : نعم يا مولاي حتى اني لاستطيع ان اراجعه كلمة كلمة .

أحسنت يا بنية فستحفظين العرش وانا لم اخطىء ، اسمعي يا فرعة : ان عدي بن زيد كاتب كسرى واحد رجاله ، بل يكاد يكون امين سره في شؤون العرب وامورهم وأحوالهم الخاصة لا يكتمه الملك شيئاً من ذلك ، وقد نقل الي بعض المقربين ان كسرى لا يحدث في بلاد العرب حدثاً حتى يشاور ابن زيد ، فهو مرجع العربان في بلاط الفرس وحاميهم ونصيرهم ، اذا قال سمع الملك قوله لا يراجعه فيما يقول .

وعدي خبير باحوال العرب ؛ مطلع على عاداتهم واسرارهم ، وأميالهم واغراضهم ، وماضيهم وحاضرهم حتى انه ليعد عظماءهم وامراءهم وصعاليكهم وشعراءهم ، ويحفظ اشعارهم وحكاياتهم كأنه يقرأها في كتاب .

واعلمي يا فرعة ، ان لكل رجل في بلاط كسرى عملا خاصاً لا يجاوزه ، وشأناً محدوداً يستقل عن شأن سواه ، هذا يعنى بامور العمال ،

وهذا يهتم لاحوال الجيش . والآخر ينظر في اعمال الجبـاية والخراج . الى آخر ما هنالك من شؤون وأعمال .

فلعدي وحده ان يبحث امور العربان ، وينظر في حاجاتهم ، ثم يخبر بها مولاه فيقضي كسرى هذه الحاجات وهو واثق بعدي .

وأنا كما تعلمين . احب عـدياً وافضله على سواه . ومنـذ توجني كسرى الى هذا اليوم . وانا اقربـه وابره . وانزله في المكان الاول في مجلسي وبين حاشيتي حتى عرفت ذلك سادات العرب وعظماؤهـا فاذا جلسوا بين يدي كان مجلسهم بعد عدي .

وهو لسان حالي عند كسرى . وسفير دولة العراق في المدائن . فكما اني اعترف بفضله يوم لبست التاج ، هكذا اعترف بهـذا الفضل الذي استمر الى الان .

ولكني قليل الوثـوق بالناس ، وقد علمني الزمـان ان لا استسلم للزمان فعدي بن زيد الذي هو صاحبي وسفيري ، قد ينقلب علي يومـاً باغراء واش او بقول نمام ، فيغير علي قلب كسري ، ويمد يده الى احد اخواني الطامعين بعرشي فيضعه على العرش .

فعمدت الى تدارك الخطر والاحتياط للامر ، ضاعفت العطايا لعدي وجعلته صهري ، حتى اربطه برابط قوي من النسب محكم الحلقـات لا تفك عقدته السعايات ، بل عمدت الى ذلك لاجعل عدياً في بـلاط كسرى رقيبا على سادات العرب الذين يفدون على المدائن ، وعينا على اخوتي ابناء المنذر واتباعهم ، حتى اذا بدرت من هؤلاء بادرة شر عمد هو بدوره فاحبط مسعاهم ، بما له من الدالة على مولاه ملك الملوك .

وهكذا يا سيدتي الملكة يستقيم لي ولك الامر ، ولاولادنا من بعدنا فتكون هند وحدها هي التي حفظت عرش ابيها ووطدت دعائمه التي كادت تتزعزع .

ثم استوى الملك جالسا في فراشه ، ورفع صوته قليلا وهو يقول :

اذن فانا لم اكن ابا عندما زوجت هنداً بل كنت ملكا .. وانت ترين ان وراء عاطفة الملك عاطفة الوالد البارّ الذي يعرف كيف يصون العرش لبنيه .

فاحكم ايها الحاكم ، احكمي يا هند بين النعمان بن المنذر ملك العرب وبين فرعة بنت سعيد ، احكمي الان ، وقولي ، ايجوز ان تزف هند بنت الملك ، الى عدي بن زيد ام لا ؟ ؟

فبرقت عينا هند واجابت قائلة :

بل يجب ان تزف بنت الملك الى من يحمي العرش . . وانا مستعدة يا مولاي .

فعرفت فرعة ساعتئذ ان الجدال في امر الزواج لا يفيد .

فهمت بالكلام ، ولكن الملك سبقها اذ قال :

انا اعلم يا ابنتي ، كما تعلم امك ، ان زواجك في السن التي انت فيها لا يجوز ، وكنت أحب ، لولا مصلحة العراق ، ان اختار لك اجمل شباب العرب ، واكملهم خلقا ، واشرفهم ابا ، وانت في الثامنة عشرة او في العشرين ، بل كنت احب ان تتسابق الي الفتيان النبلاء يسألونني هنداً وانا اردهم الواحد بعد الآخر حتى اختار اصلحهم فأزفك اليه ، ولكن العرش فوق العاطفة ولا خير في عاطفة تقذف بنا جميعا الى

ذل اصعب من الموت .

هذا امري بسطته الان ولتقل العرب ان النعمان عندما زوج بنته كان سكران .. فاقوال الناس لا تهدم عرشا ولا تنزع تاجا ؛ وما كنت لاهتم لقول لا تتلفظ به الشفاه الا همسا ومن وراء الجدران .

ثم ضحك ضحكة الواثق المطمئن وقال :

الم نتفق الان يا فرعة ؟

ـ ومتى كنا مختلفين ايها الملك ؟ ان رأيك فوق كل رأي ، وعند مصلحة التاج تقف العاطفة وتموت كل ارادة، ولكني اردت ان اسألك عن زواج هند ، سؤالا بسيطا لا غاية لي فيه الا الاطلاع على السبب القاضي بهذا الزواج .

فقاطعها الملك قائلا :

بل جئت تسألينني العدول عنه ، والان فلنترك الماضي ولننظر في امر هند ، كم تبلغ هند من العمر ؟

ـ انها الان في عامها الثالث عشر .

ـ افي اوله أم آخره ؟

ـ بل في اوله يا مولاي ، فاذا جعلت موعد الزواج في آخر هذا العام فقد احسنت الى هند .

ـ وما هي الغاية من ذلك ؟

ـ لتستكمل النمو .

ـ اذا كان هذا فقد فعلت ، ولا يتم الزواج الا في آخر العام ،وماذا تريدين بعد ؟

ــ ليس هنالك ارادة بل التماس .

ــ التمسي اذاً .

ــ ان تبقى هند في الحيرة ولا تلحق بالمدائن .

ــ ولماذا ؟

ــ لانهافتاة لا تعرف من دنياها شيئاً وهي تحتاج الى نصح امها والاسترشاد برأي ابيها .

ــ أليس هنالك شيء آخر ؟

ــ بلى فانا لا اطيق ان تبتعد هند ..

ــ واذا اصر زوجها على الاقامة في المدائن ؟

ــ الا يكفي ابن زيد ان تكون ابنة الملك زوجة له ؟

فخرجت هند من عزلتها وقالت لامها :

ما كنت لافعل امراً لا يريده عدي . أتزوجونني عدياً وتهزأون به؟

فمسح الملك دمعة سقطت على خده وقال :

ان هنداً تعرف واجبها فلا تحتاج الى الاسترشاد .

فقالت فرعة : بل تحتاج الى وصي . انجعلها ايها الملك بين نساء الاشراف في المدائن . وفي بيت زوجها عدي كاتب كسرى . وبيت عدي يغص كل ليلة بنبلاء الفرس وخاصتهم وعظمائهم . وهي فتاة لا تعرف عادات الاعجام ولا عهد لها بما ستراه في تلك العاصمة العظيمة المزدحمة ساحاتها بوفود الناس ؟ ايهون على الملك ان تستخف نساء العجم ببنات العرب ويستهزئن ببنت النعمان ، ويتقدمن في المجالس وتتأخر هند . وهن من العامة وهند من سلالة آل نصر ؟

فقاطعها النعمان قائلا :

لا اسمح لاحدى النساء ان تتقدم هنداً ولو كانت زوجة كسرى . ووالله لئن فعلها الاعجام لاخرجن عليهم واجاهرهم بالعصيان .

فضحكت الملكة . ولكنها لم تماد في الضحك خوفاً من الملك ، ثم قالت :

أليس في ديوان كسرى من يتقدم عدياً ؟

قال : بلى فوزراء كسرى ومرازبته أعظم من عدي .

ــ ونساء العجم . الا يتبعن ازواجهن في رتبهم ؟

ــ نعم فنساء الوزراء اكبر مقاماً من غيرهن .

ــ اذن فهند ، بالنظر الى عدي ، اصغر مقاما ممن ذكرت . وانت تبعث بها الى حيث يستخف بها الناس .

ولم يكن في العرب كما ذكرنا ، اعز من النعمان . فلما سمع حديث فرعة عرف انها اصابت في القول ، وكأنه غضب لكرامته ان تهينها نساء الفرس . فنهض من فراشه ، وتناول رداء فوضعه على كتفيه ؛ ثم اخذ يروح ويجيء وهو يقول :

ولكنني لا ارضى الا ان تكون هند المرأة الاولى في المدائن . . . اصبت أيتها الملكة فالاعجام الاجلاف لا يحفظون الكرامات . . ونحن بغنى عن الاصطدام بصلفهم وكبريائهم . . سننظر في هذا بعد الآن وسنشاور عديا فيه . . انه لرأي لا بأس به وستبقى هند في الحيرة ان شاء الله ، هكذا تريدين ايتها الملكة وهكذا سنفعل .

ــ والتمس منك امراً آخر يا مولاي ؟

ـ ما هو ؟

ـ ان لعدي ولداً ترضعه مرضع هي مليكة بنت هانيء بن قلام .

ـ نعم .

ـ فليبق في آل قلام فهند ارفع من ان تربي الاطفال .

ـ اذن ستكون هند سيدة عدي لا زوجته .

ـ نعم وهكذا يجب ان تكون . أليس الزواج زواجاً سياسياً لا عاطفة فيه ولا حب ؟

قال أجل ولكن الذي علمك السياسة في بني طيء كان جاهلاً . انزوجه هنداً ونجعله عبداً لها ونحن انما نفعل ذلك ليكون نصيراً لنا نستعين به عند الحاجة ؟ اني لم أر يا سيدتي شيئاً من الحكمة في هذا الرأي . نقول لعدي بن زيد لقد زوجناك ، ولكن شرطنا عليك انتقيم هند في الحيرة ، وان تبعد عنها ولدك زيداً لانها ارفع من ان تربيه ، فكأننا نقول له انها ليست زوجة بل ملكة ، ان لي ايتها الملكة رأياً آخر فيه من السياسة ما لا تعلمين ..

لقد اقتنعت ببقاء هند في الحيرة ، وسأقنع عدياً بحيث لا يشعر ان لي غرضاً في الامر ، ولكن قضية ولده زيد شيء آخر وأنا لا احب ان ينشأ في بيت آل قلام .

ـ أتدخل مصلحة العرش في هذا ايضاً يا مولاي ؟

ـ نعم وانا ما زلت اتكلم كملك .. ولولا ذلك لاعترفت بالصواب فيما تقولين دون ان اجادل ، اتعرفين من هو هانيء بن قلام ؟

ـ اعرفه ، فهو نسيب الاسقف جابر بن شمعون الذي توفي بعد

جلوسك على العرش ببضعة شهور . وهو من اغنى الناس واعظم النصارى المقيمين في العراق .

ـ ولكن لا تعلمين ان لهانيء هذا ثأراً على آل نصر .

فتراجعت فزعة قليلا الى الوراء وصاحت قائلة :

لابن قلام ثأر على بيت ملوكه ؟

ـ نعم وانه من سلالة قوم لا يموتون حتى يثأروا قتيلهم .

ـ وكيف اعطاك عمه جابر بن شمعون ثمانين الفاً تستعين بها على امرك يوم استقدمكم كسرى الى المدائن ؟ ايكون ابن شمعون ثائراً ويعين عدوه ؟

فقال : لو سألت جابراً في ذلك الحين كل ما يملك من مال لاعطانيه ولم يبال . وهكذا فعل مع اخوتي لو سألوه ، انه كان سيد النصارى كما كان ابي ونحن من بعده انصاراً « لسبد » والنصارى لا يقدرون ان يستقلوا في مذهبهم الا اذا رضي عنهم ملك العراق . فلما طلبت اليه ان يقرضني اربعين الفاً ؛ اقرضني ثمانين وهو يرى اني سأملك . ومتى ملكت اطلقت يده فيما يعالج من شؤون مذهبه فاستقام له الأمر .

ويجب ان تعلمي ايتها الملكة ان الملوك لا يجاهرونهم بالعداوة ، فاذا كان لاحدهم ثأر على الملك تربص به حتى يرى الفرصة السانحة فينشب مخالبه فيه .

وهكذا يفعل بنو قلام يا سيدتي منذ اكثر من جيلين ، ألم يقص عليك وعلى هند ، خالد بن المضلل او عمرو بن مسعود، اخبار اجدادي الملوك الذين تعاقبوا على العرش وقد امرتهما بذلك ؟

ـ اجل ولكني لا اذكر كل ما قالوه ، فما هي حكاية هذا الثأر ؟

فقالت هند : انا اعرف هذه الحكاية يا مولاي ما نسيتها منذ قصها علي خالد .

وبرقت اشعة الذكاء في عينيهـــا .

قال : خبرينا يا هند ما تعرفين .

قالت : ان اوس بن قلام ، جد هانيء الاعلى تولى ملـــك العراق بامر ازدشير الثاني ، بعـــد جدنا عمرو بن امرىء القيس ، ولكن جدنا الآخـــر امرأ القيس بن عمرو قتل اوساً واستأثر بملك ابيه ، أفلا تشير الى هذه الحادثة يا مولاي ؟

فاشرق وجه النعمان وقال :

هذا هو الثأر الذي عنيت ، أتذكرين يا هند في اي جيل جري هـــذا ؟

ـ في اواخر الجيل الرابع يا مولاي .

فالتفت الملك الى زوجته وهو يقول :

اسمعي فتاتك « الطفلة » تروي لك تاريخ قومها ... اجل ان جدنا امرأ القيس الثاـــني قتل أوس بن قلام سنـــة «٣٨٢» وانا ارى ان بني قلام لم ينسوا ثأرهم ، فاذا نشأ زيد بن عدي في بيوتهم نفخوا فيه روح الضغينة والحقد حتى اذا شبّ شبّ يبغض بني لخم ويتمنى هلاكهم ، وقد يخلف زيد اباه في ديوان ملوك الفرس فيقوض اركان العرش العربي وينتقل الملك بعدنا الى بيت آخر من بيوتات العراق ، فالشر الذي خفنا وقوعه اليوم ؛ يقع في الغد على رؤوس اولادنا وهذا ما يجب ان نتداركه الآن .

فقالت فرعة في نفسها : العرش في نظر الملك قبل كل شيء واراه ينظر الى مائة سنة تأتي بعده ، ولكن لا اسلم بهذا ولو قتلتني .

وتظاهرت في التفكير ساعة ثم قالت :

اذا كان لا بد من ذلك فمر عدياً بان يجعل ولده في بيت آخر .

قال : ولكنـــه لا يرضى ، أليس حـــراً في ان يربي ولده في البيت الذي يشاء ؟

ـ اذاً فانت لا تستطيع ـ على هذا القياس ـ ان تنقل زيداً مـــن بيت هانيء فهو سينشأ فيه على بغض اللخميين .

فاطرق الملك قليلا ثم قال :

قولي لنا يا هند ماذا يجب ان نفعل ...

فقالت : ندع عدياً يتصرف بامر ولده كما يشاء ، ان شاء ابقاه في بيت بني قلام ، وان جعله في بيت آخر فله ذلك ، واما اذا امرتــه باعتزاله بيت صاحبه فقد اسأت به الظن ، وكأنك تدفعه بيدك ايضا الى اساءة الظن بكل ما يفعله الملك ، فراقب الوالد واترك الولد ، ومن الآن حتى يكبر تتغير الظنون وتتبدل السياسات .

ثم عضت على شفتها السفلى تشير على امها بالسكوت .

فسكت الوالدان ؛ وكان سكوتهما تسليماً بكل ما قالته هند .

ثم نهضت الاثنتان واستأذنتا في الانصراف ، وقد تم الاتفاق على الزواج ...

* * *

١٠

عدي بن مرينا والاسود

ولما أصبح القوم ، كان امر الزواج قد انتشر في الخورنق وتناقلته رجاله والنساء .

اذاعه خالد بن المضلل حتى انه تنازل فحدث به العبيد والغلمان .

ولم يكن خالد يحب عدي بن زيد ، ليس لانه يفضل ابن مرينـــا ، بل لانه كان يحسد عدياً على قربه من مولاه .

كذلك كان النديم الآخر عمرو بن مسعود .

والحسد في كل معناه ، يكثر جداً ، بل يكاد يسود دائماً في قصور الملوك .

وكان الاثنان خالد وعمرو ؛ يعرفان كما يعرف رجال البلاط ؛ مبلغ ما يضمر الأسود وابن مرينا من البغض لعدي بن زيد .

فلما بلغ ابن مرينا خبر الزواج، اقبل على الأسود وهو يرغي ويزبد، وقد هاجت في صدره براكين الحقد .

فقال له : أيصبح عدي بن زيد صهراً للملك ونحن ساكتون ؟!

فكاد شقيق الملك يضحك لما رآه من شدة غيظه ، وملامح البغض البادية على وجهه ، فقال :

اجلس يا عدي نتحدث .

فجلس الرجل وهو يتميز غيظاً .

فقال الامير : ألا يسرك يا ابن مرينا ان ترى عدياً صهراً لنا ؟

قال لا ، انكيد له لنحطه فيرفعه الملك ؟!

فقال : ادخل على النعمان الان ومره بالعدول عن رأيه .

ــ أراك تهزأ بي يا مولاي .

ــ بل كل من يرى هذه الملامح الغريبة يهزأ بك يا عدي ، أتراني قادراً ان امنع هذا الزواج ولا افعل ؟ ومن يجرؤه على الوقوف في وجه النعمان وقد وعد ؟

ــ انه كان سكران ، فاذا حدثناه بالامر اليوم نزل عن وعده .

ــ هذا هو الجهل بعينه فوالله ما كنت اظن الا انك أعلى رأياً من هذا ، فماذا تقول للملك ؟ أتقول له انه تعجل وأخطأ أم تقول ان عديا اصغر من ان يضحي صهراً له ؟.. أراك تقذف بنفسك الى الهاوية وانت لا تعلم ، واني لاراك تتعرض للملك في هذا الشأن فيصفعك على مرأى ومسمع من الخاصة والندماء ويهوي عليك بالسوط حتى يثخنك جراحاً ... ولكن قد رأيت غير ذلك .

فبهت ابن مرينا .

فقال الامير : اذا اخذت مكانك في مجلس النعمان فتجاهل الامر كأنك لم تسمعه ولم تر خالداً ، فاذا كان ذلك الزواج ثورة خمر فقد عدل الملك عنه فلا يحدث به احداً ، والا فهو نفسه يقص على رجال المجلس ما كان من امره مع عدي بن زيد ، فالذي يريد عند ذلك ان يحفظ رأسه ، فليسكت ؛ او فليثن على عدي ما طاب له الثناء فالنعمان

ليس براجع عما فعل ، وقد يكون له رأي في زواج هند وهي في هـــذه السن .

ــ اذاً فقد ازداد نفوذ عدي وأصبح امر العراق في يده .

فابتسم الامير قائلاً : امر العراق في يد النعمان وحده لا يشاركه اخ او ولد او صهر ، فهو العراق كله والعرب كلها ، بل هو كل شيء وأما أنه يتظاهر مرة بالرضى ويزيد في العطاء فذلك مكر منه ودهاء ، اجل انه يحفظ الولاء لابن زيد ويفضله على سواه ، ولكنه كثير التقلب وكثير الظنون ، وكلمة واحدة نقولها له في ساعة من ساعات جنونه تهبط عدياً من سماء عزه الى حضيض المذلة والهوان .

انك لا تبغض ابن زيد كما ابغضه انا فلولاه لجلست على العرش الذي يجلس عليه الان اخي المجنون ، ولكني اغضي على القذى واسعى جيلاً كاملاً للوصول الى الغاية لا اضجر ولا امل ، فدع عدياً يتنعم اليوم بخيرات الملك ، واذا زفت اليه هند فكن اسبق النـــاس الى تهنئته واول من يفتر ثغره بابتسامة الرضى ، فزواج هند لا ينسينا سعيه لذى كسرى ليملك النعمان ، بل لا ينسينا انه العدو الالد الذي لا راحة لنا الا بالقضاء عليـــه .

وكان الاسود من احسن الناس رأياً ، وقد اصاب في قوله ان النعمان لا يرجع عن وعده الا اذا كان من تلك المواعيد التي تمليها الخمر .

اما ابن مرينا فكان قليل الجلد وقد قضى السنوات العشر يتربص بعدي وهو لا يقدر ان يغير عليه قلب الملك ، ولا يطيق من وجه آخر ان يراه في اوج عظمته وسعة عيشه ، ينتقل من نعمة الى نعمة ، ومن

عز الى عز ؛ وهو يتقلب في خــيرات ملك الفرس وخيرات العاهل العربي .

فقال للاسود : الجهد الذي بذلناه للايقاع بعدي منذ تولى النعمان الى اليوم ، سنبذل ضعفيه بعد اقترانه بهند وقد نفشل ؛ ان عدياً اصبح في هذا الزواج امنع من النعمان نفسه وسترى ذلك بعد ايام .

قال : ولماذا يصبح كذلك ؟

ـ لان هنداً ستحيطه بعنايتها ، وولي العهد قــابوس يبسط فوقــه حمايته ؛ وتأتيك بعد كل ذلك ، فرعة بنت سعيد زوجة الملك ، فتمد على آل زيد رواق عطفها الملكي ورضاهـــا العالي الذي يعقبه رضى النعمان .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ فاذا قدرنا ان نفسد امر عدي ، واوغرنا عليــه صدر الملك ، وقفت زوجته وولي عهده حاجزاً بينه وبين عدي؛ وقد يساعدهما المنذر ابن اخيك فيمنعون غضبه من الوصول اليه .

ـ أهذا هو رأيك يا ابن مرينا ؟

ـ أجل هذا هو رأيي يا مولاي وليس لي سواه .

ـ ولكن هنالك ما يحجب فرعة وولي العهــد ويضعف نفوذهما ، أتعرف ما هو ؟

فاطرق يفكر ولكنه لم يعلم ما عنى الاسود بقوله .

فقال الامير : اراك نسيت ذلــك الوسيط العجيب الذي يخــترق قلوب الملوك ، ويقلب العروش ، ويلعب بمقدرات الشعوب ... أنسيت

المال يا عدي ؟

ــ ما نسيته يا مولاي ولكني اظن ان النعمان ؛ الواهب امــواله للناس ، لا يهتم له، ومن يجسر ان يرشو الملك ايها الامير وهو يمنع رجاله من اخذ المال ؟

فضحك الاسود وقال : ان الملوك لا يشترونهم بالرشوة ، بل بشيء آخر قريب منهاو لكنه شديد التأثير .

ــ اظنك عنيت الهدايا يا مولاي .

ــ احسنت يا ابن مرينا فقد فهمت الآن.

وكان الاثنان ، الاسود وابن مرينا. من اغنياء الحيرة ، كثيري المال والنعم ، وعندهما على شاطىء الفرات الشرقي البساتين والضياع .

فقال ابن مرينا : ذلك هين فكل فائدة تأتيك من مالك وارضك فاعرضها علي .

قال : واني لفاعل ، فلا يطول الزمان حتى ترى عدياً يتنزل مــن عليائه شيئاً فشيئاً الى ان يمس الارض فتدوسه الاقدام ، والويل لآل زيد من ذلك اليوم ؛ أيحرمني هذا اللعين تاج آبائي ، فاصغرأنا حفيــد الملوك ويعظم هو حفيد مجروف ؟ ! اما والله لو بقيت لي في هذه الدنيا ساعة لبذلتها في سبيل قتله فاثأر حقي الموروث الذي انكره علي ابن زيد قبل ان اموت ، فقم الآن يا عدي ؛ ولننصرف الى مجلس الملك لا نتظاهر بشيء فنسمع حكاية الزواج مــن فم النعمان الذي لا يعرف ان يكتم اسراره ... وكن اليوم وغداً اقرب الى عدي بن زيد منك اليــه بالامس حتى ينسى ما كان بينك وبينــه في المدائن ، في ذلــك اليوم

المشؤوم المطبوعة آثاره على صفحات هذا الصدر ، وعندما ينصرف الى كسرى ، يبدأ عملنا في بلاط النعمان فنجعل البلاط وما فيه خصوماً له حتى نجعل الابيض اسود والليل نهاراً .

هيا بنا فقد يكون الملك في مجلسه الآن .

ومشيا قاصدين القاعة الكبرى التي يجلس فيها النعمان للناس .

* * *

١١

يوم كامل في ظاهر الحيرة

كان عصام بن شهبرة حاجب النعمان ، اسبق الى المثول بين يدي مولاه ؛ في ذلك الصباح ، من قابوس والمنذر .

ولم يكن في الخورنق بل في الاسرة المالكة نفسها من يسبق ولي العهد واخاه في الجلوس بين يدي ابيهما الملك ؛ صباح كل يوم ، يداعبهما قليلاً في حجرته الخاصة ، ثم ينتقل معهما الى الرواق الملكي يعلمهما بنفسه ضرب السيف والرماية ؛ جاعلاً لهما في كل يوم ، هدفاً يختلف عن الهدف الذي اصابوه في اليوم الذي مضى .

ثم يدفعهما الى ايدي الشعراء والندماء فيسمعان الشعر واحاديث

العرب ساعة او اكثر ، قبل الانصراف الى مجلس الملك .

وكان الاثنان يحبان عصاماً ويحترمانه ، فقد كان ينوب عن مولاه في الوقوف على دروسهما الحربية واساليبهما في الرماية ...

وهما يرافقانه دائماً الى ذلك السهل الذي لا آخر له ، القائم وراء الضفة الغربية ، يصيدان معه الوحش والطير .

وابن شهبرة من ابطال العرب وساداتهم ، له في العراق كله الكلمة النافذة والصيت الطيب ، وهو من احكم الرجال النازلين بذلك القصر الرحب ، لا يريد شيئاً الا نفذه بدهاء ونعومة ؛ ولا يرغب في قضاء امر حتى يناله من الملك ، بما يخترعه له من اساليب ؛ وبما يتخذه من لين وسياسة في حديثه العذب .

اضف الى ذلك انه اكثر وفاء للنعمان من جميع الرجال الذين حوله ، فكان اذا تعجل النعمان امراً يمس مصلحة تاجه ، يعمد الى افساد ذلك الامر من وراء الستار ، دون ان يترك في ذلك اثراً يدل عليه .

وفي ذلك من الصدق في الخدمة ما فيه ، لان الملك لم يكن يطيق تعرضاً من احد رجاله . والويل لذلك النديم او الوزير الذي يراجعه في ما يقول .

وفي الوقت نفسه . كان شديد الحرص على تنفيذ الرأي الصالح ، خوفاً من ان يصحو النعمان فينقلب هذا الرأي او يقنعه احد الخاصة بالعدول عنه .

وكان يعرف طباع مولاه اكثر مما تعرفه الملكتان فرعة وزينب ، فاذا رأى هوى النعمان في الامر الفاسد ، وافقه في ذلك الهوى واثنى

عليه ثم يدور حوله دورة طويلة مستعيناً بذكائه ومستنداً الى اخلاصه حتى ينقضي الامر كما يريد هو لا كما اراد الملك .

ذلك كان شأن عصام في قصر الخورنق وكثيراً ما كانت فرعة وزينب زوجتا النعمان . تستعينان به على ما يتعلق بهما من الامور عند الحاجة .

وكما احيت هند ذلك الليل . احياه ايضاً حاجب الملك على شرفة من شرفات القصر ، يفكر في امر عدي لم يغمض له جفن .

كان يريد من كل قلبه ، ان يتم الزواج ليسلم عدي ، ولكنه كان يخاف جهة واحدة هي موضع الضعف في طباع مولاه ، ذلك الضعف الذي كانت نتائجه تقلباً مستمراً وتغيراً يدوم ما دامت الخمر ..

أجل انه قرأ على وجه مولاه ، في ذلك الليل ، ما لم يقرأه من قبل، من عزيمة ثابتة ، وارادة لا تتزعزع ، غير ان كل ذلك لم يكن دليلاً على الوفاء بالوعد ، بعد ان تخمد جذوة السكر .

وهنالك النديمان خالد وعمرو، يفعلان احياناًما تفعله الخمر في رأس الملك فيكذبان عندما يجدان سبيلاً الى الكذب ويخادعانه اذا رأيا الفوز في ذلك الخداع .

وقد لا يغير الملك رأياً ، في حالة صحوه ،الا اذا ذكروه اياه وأحرجوه ، فخشي عصام ان يسبقه ابن المضلل وابن مسعود فيعود الى البحث في ذلك الزواج وقد يسألهاالملك رأيهما فيه ، فينكرانه عليه ويستقبحان الوفاء به فيمحو الصباح ما اثبته النعمان في الليل الماضي، وهذا ما لا يريده عصام ، لانه لا يقدر ان يكيد الاسو وابن مرينا

الا اذا اضحت هند في بيت عدي .

فلما اصبح ، هرول مسرعاً يريد الملك وهو يقول في نفسه :

ان خير ما اصنعه اليوم ، ان ابعد الملك عن القصر فلا يراجعه احد بما قال امس .

* * *

ابيت اللعن يا مولاي .

وكان الملك متكئاً على نافذة حجرته الخاصة ينظر الى الافق .

فالتفت الى عصام ثم ادار ظهره كأنه لم يره .

فاستند الحاجب الامين الى الباب وعرف ان الملك يعرض حوادث الليل ويستعيد ذاكرته .

وطال وقوف الملك وهو لا يتكلم .

فكاد عصام ينسى موقفه وضجر من هذا السكوت .

ولكن الملك فاجأه بقوله :

اراك من اسبق الناس الى نقل الاخبار يا ابن شهبرة .

فبغت المسكين ولم يدر ماذا عنى الملك .

ثم عاد النعمان الى الحديث قائلا :

متى رأيت الملكة ام قابوس ورويت لها حكاية هند ؟

قال : ما رأيت الملكة منذ امس لأروي لها الروايات .

ــ وكيف عرفت هي ما دار بيننا وبين عدي بشأن الزواج ؟

ـ سل هنداً يا مولاي فقد تكون هي التي روت لامهـا حديث الملك .

ـ ولكن زوجتنا تقول انك انت ذلك الراوي الامين الذي لاينسى حرفاً مما نقوله .

ـ الملكة تقول ذلك يا مولاي ؟

ـ اجل .

ـ اذن فقد جن ابن شهبرة !

ولماذا ؟

ـ لاني لم ابصر احداً من اعضاء البيت بعد تركي مقصورة الملك ، فاذا كنت قد نقلت الخبر الى مولاتي ام قابوس ، فذلك معناه اني نقلته في ساعة جنون وانا لا أعي .

ثم اخذ عصام يحدث نفسه قائلا :

لا ادري من هو الكاذب ، النعمان ام زوجة النعمان ...

فعمد النعمان ساعتئذ الى آخر وسيلة من وسائل الاستدراج ، فقال له وهو مقطب الجبين :

قل للملكة اذاً ان تحضر فأرى من الكاذب .

فاجتاز عصام عتبة الباب وهو يسرع خطـاه .

فاستوقفه الملك ثم قال :

لعل الملكة لا تذكر من اخبرها ، تعال وانظر الى هذا الجو الهادىء والسماء الصافية ، الا يحسن بنا ان نغادر الخورنق الى الخلاء .

فطابت نفس عصام لهذا الاقتراح وهو انما قدم من اجله .

فاجابه قائلا : ليس اشهى ولا ابهج منظراً من الربيع في ظـــاهر الحيرة .. فاذا رأى الملك ان يقضي هناك يومه فليفعل .

قال : ومن في القصر من الرجال ؟

ـــ أأصحاب الرأي ام رجال الشعر ؟

فهز رأسه قائلا : دعني من رجـــال السياسات واذكر لي الشعراء والمغنين .

فاخذ الرجل يعد هؤلاء وما اكثرهم في البلاط .

فاسكته النعمان وهو يقول : لا اريد من هؤلاء الا ابا امامة وبشر ابن ابي خازم ؛ وزرجون بن نوفل ذلك التاجر الشامي الذي قدم من الشام منذ ايام ، ان زرجون حلو الحديث خفيف الروح ... وهو يقص علينا اخبار آل غسان . ومن نختار بعد يا عصام ؟.. والربيع بن زياد لا بأس به فهو حكيم بني عبس .. ولا تنس أبا فرعة سعيد بن حارثة فهو اكرم قومـــه واجودهم وانا احب الاجواد . قل يا عصام، انقول لابن مرينا ان يرافقنا .. اجل فان لم نأذن له في الرواح معنـــا غضب اخونا الأسود .. فقل للاثنين اذاً ، واكفنا مؤونة الغضب عدهم يـــا عصام لئن تـــد كثروا ، وانا لا ارتاح الى الجماهير تطوف حولي في مجالس الانس .

وكانت الالفاظ تخرج من فم الملك متقطعة كأنه سكران .

فلما ذكر ابن مرينا ولم يذكر عـــدي بن زيد ، خفق قلب ابن شهبرة وقام في ذهنه ان صورته امحت من ذاكرة الملك في ذلك الليل ، فقال وهو خائف :

أراك نسيت عدي بن زيد يا مولاي . وهو صهرك .

فضرب الملك جبهته بيده وهو يقول :

احسنت يا حاجبنا فقد نسيناه وهو اول المدعوين . اذهب واعد ما نحتاج اليه في هذا اليوم . وقل للرجال الذين ذكرنا ان يستعدوا ويسرجوا الخيل .

فانصرف الرجل ، ولما بلغ قاعة الجلوس كانت الوفود قد ملأت الرواق ينتظرون قدوم النعمان ليستأذنوا عليه .

وكان الاسود وابن مرينا ، ونديما النعمان خالد وعمرو ، منفردين يتهامسون في زاوية من زوايا الرواق .

فرفع عصام صوته يخاطب الوفود ، قال :

يا معشر العرب ، ان مولانا الملك لا يجلس اليوم للناس فاحضروا غداً .

فسمع صوت من داخل القاعة يقول : ان الملك ارفع من ان يطرد وفوده ...

فعرف عصام الصوت فقال : هذا اياس بن قبيصه في القوم ؛ الك حاجة يا سيد ، عين التمر ؟

قال لا : ولكن لهذه الوفود حاجات فمن يقضيها ؟!

فقال : مقضية كلها غداً ان شاء الله .

فضرب اياس الارض بعصاه وقال لرجاله : احملوني لارى الملك فاهنئه بصهره سيد العرب .

فنظر الامير الاسود الى اياس نظرة غضب وقال له :

اعدي بن زيد سيد العرب ونحن آل نصر !!

فقال : انتم ملوك العرب وعدي سيدها ، اتزف بنت الملك الى غير سيد العرب !؟

واحمرت عينا اياس ..

فهمس ابن مرينا يقول للامير : أتنصحني بالتؤدة والصبر ويستفزك الغضب يا مولاي ؟

فسكت الامير ولم يجب .

اما أياس فكان قد وضع في محفته ومشوا به قاصدين النعمان فسبقهم عصام ودخل على مولاه يستأذن لابن قبيصة .

فاقبل الملك على باب غرفته ففتحه ووقف ينتظر اياساً حتى اقبل .

فبادره الملك الى السلام قائلا : مرحبا يا اياس فما وراءك.

فاجابه قائلا وهو على اكتاف الرجـــال : ابيت اللعن ايها الملك أتزف بنتك الى السادة ام الى الصعاليك ؟

فرفــع الملك رأسه قائـــلا : لا تزف بنت الملـــك الا الى اشرف العرب .

فقال اياس لرجاله : حطوني، فحطوه فتناول يد الملك فلثمها وهو يقول : ان اخاك الاسود لا يعترف بصهر النعمان صهراً للعرب .

واعاد عليه قول اخيه .

فابتسم النعمان وقال : اذا ابغض اخونا الاسود عدياً فله عذره . . أما نحن فقد اخترناه زوجاً لهند ، فما رأيك فيه ؟

قال : احسنت فيما فعلت ايها الملك ولو اردت ان تختار رجلا من

العرب مثل عدي لما وجدت ، فامض في امرك .

فقال : لقد مضينا فيه ولسنا براجعين ، كن معنا اليوم يا ابا اياس .

ــ والى اين يذهب الملك ؟

ــ الى ظاهر الحيرة فلا نعود الا في المساء .

ــ إذن ساسبقكم وانا ذاهب الآن .

واومأ الى رجاله فحملوه وخرجوا بـه قاصدين ذلك الموضع الذي ذكره النعمان .

* * *

كان حديث النديمين وابن مرينا والاسود يدور حول عدي بن زيد وابن مرينا يظهر خوفه من هذا الزواج.

غير ان خالداً وعمراً. كانا مثل معظم الناس ، لا يصدقان ان الملك سيمي بما وعد .

فأخذ ابن مرينا ينفث سمه ويغري النديمين بابن زيد ويحضهما على اقناع الملك بالعدول عن زواج هند .

وخالد وعمرو «كما تقدم» احب الناس الى الملك وهما يعرفان منزلتهما عنده وقربهما منه ، ومنذ تولى الملك وهو يبرهما ويسمع لهما .

فما زال بهما ابن مرينا حتى اغراهما ، فقال خالد :

سأمنع هذا الزواج ولو كلفني دمي .

وقال عمرو : بل نمنعه ولا يكلفنا شيئاً .

فزاد الاسود في الإغراء اذ قال: ما كان النعمان ليسمع لكما او لاحد في هذا الشأن .

فضحك الاثنان وقالا : موعدنا اليوم وسنرى . .
وهكذا اتفق الاربعة على خادم العرب وسفيرها عند الاعجام .

* * *

ولما أقبل عدي على القصر ، كانت الخيـــل قد اسرجت واستعد القوم للرحيل .
فقال له عصام : سيقيم زواجك العرب ويقعدها يا عدي .
قال : وكيف ذلك ؟
فقص عليه القصة.
فأطرق عدي قليلا ثم رفع رأسه وهو يقول : أذا قدر الاسود وابن مرينا ان يغيرا رأي الملك ؛ فقد خدماني من حيث لا يريدان . وأين هو اياس الان ؟
ـ لقد سبقنا على محفته الى الخلاء .
فقال : بارك الله أياسا انه أطهر العرب وجدانا وأشدها اخلاصا .
فقال : ومـا من عربي يجرؤ ان يرفع صوته بـين يدي النعمان الا اياسا ، فحسبك دفاعه عنك وانتصاره لك .
واقبل المتآمرون الاربعة ، فحنى عـدي رأسة لشقيق الملك ، فمد الاسود يده فصافحه وهو يبتسم .
ثم تصافحوا جميعا والعيون تدل على البغض الكامن في الصدور .
ووقف القوم امام مدخل القصر ينتظرون النعمان حتى اقبل ، وهو

يمشي الهوينا بقامته القصيرة ؛ وقد قطب وجهه الأبرش الاحمر فبدا مضطرباً عابساً وقبضة سيفه الذهبية تظهر تحت ردائه فيردها بيسراه ، وفي يده اليمنى عصا سوداء قصيرة يحملها كلما علا ظهر الجواد .

فلما اصبح بالباب الخارجي ، دارت به الرجال تلثم يده ، الا اخاه الاسود وعدياً ، والربيع بن زياد ، فلم يعطهم تلك اليد احتراماً لهم واظهاراً لايثاره اياهم امام الناس .

ولكنه لم يبتسم الا لزرجون بن نوفل ، ذلك الرجل الشامي الذي أنزله منذ ايام بالمكان القريب منه ، يؤاكله ويجالسه .

وكان جواد الملك الاحمر يتوسط القوم ، وحوله طائفة من الغلمان بلباس الاعجام، فلما ركبه ؛ علت الرجال ظهور افراسها وتقدم عصام ابن شهبرة الموكب على فرسه تبرق شفرة سيفه في يده ، على عادة الملوك اللخميين عند ما يركبون .

وبعد ان اجتازوا ساحة الخورنق؛ وأطلوا على السهل المنبسط خلفه، قال الملك لرجاله :

من اراد ان يسايرنا فليركض فرسه .

ثم همز بطن جواده فانطلق كالسهم وتبعته الخيل .

وكان عصام قد تنحى عن موضعه ، فأومأ اليه عدي بالوقوف فوقف ينتظره حتى حاذاه ، فقال له عدي :

رأيت الشرر ينبعث من عيني خالد بن المضلل .

فقال عصام : كما ينبعث من عيني عمرو بن مسعود ، فكلا النديمين عدو لك . . .

ـ ولماذا وانا لم أسيء اليهما ؟
ـ لانهما يوافقان شقيق الملك في هواه وهو عدوك .
ـ اذن لم يبق لي في بلاط الملك صاحب الا انت واياس بن قبيصة ؟
قال : ولا تنس الملك فهو يحبك ، ومتى رضي النعمان فليغضب جميع العرب .
فقال : ولكن البلاط اذا اتفق علي فقد هلكت .

ثم تنهد وقال : الا يجد عدي بن زيد في بلاط الملك الذي ألبسه بيده تاج العراق رجلا يحبه ؟ . اما والله لأهجرن الحيرة فلا اعود اليها ما حييت .

فأجابه عصام : ذلك ما لا تفعله يا عدي ، أتتزوج بنت الملك وتهجر بلاط ابيها ؟

ـ وهل يطيب العيش في بلاط يسوده الماكرون ؟ ان الاسود وابن مرينا اذا ابغضاني فلهما عذرهما ؛ واما النديمان فأي عذر لهما وانا اثني عليهما امام النعمان واعرف مقامهما ولم يعطني النعمان شيئاً الا اعطيتهما نصفه أضف الى ذلك ما احمله من طرائف العجم في كل عام فيأخذان منه نصيبهما وقد يعادل نصيب الملك ؟

قال: ان اغضابك وانت بعيد عن الحيرة ، اهون عليهما من اغضاب شقيق الملك وهو في بلاط اخيه ؛ ومع ذلك فلا اراهما يجسران على السعاية بك متى كان الملك راضياً ؛ فاحرص على هذا الرضى يا عدي، ووافق الملك في كل ما يريد وانا ضامن .

ثم لحقا بالخيل وكانت تتراكض على ضفة الفرات ، فقال الملك :

ما قصر فرسك من اللحاق بنا يا عصام الا اليوم ...

قال : سايرت عدي بن زيد يا مولاي ؟

قال : وانك لتؤثر عدياً علينا يا ابن شهبرة ...

فاحمر وجه عدي وقال : ألا استحق ذلك يا مولاي وانا ضيفك ؟

فابتسم الملك قائلاً :

ما كنا لنعتب حاجبنا على هذا ، ولكن نختبر صبره .

وأخذ السهل يمتد امامهم والفرات يزيد اتساعاً ؛ حتي اشرفوا على بقعة خضراء اعتم نبتها وزهت ازاهيرها وقد كستها الشقائق ثوباً أحمر خلاباً يبهر الابصار (١) .

فوقف النعمان يقول لرجاله :

ما هذه الحلة الحمراء التي يلبسها السهل ؟

فاجابه وزيره ابن يربوع : هذه الشقائق يا مولاي .

فقال ما احسنها ، احموها .

« فحموها فسميت شقائق النعمان »

ثم قال : هنا يجب ان ننزل .

وقفز عن ظهر جواده .

فاقتدى به رجاله واسرعت الغلمان تربط الخيل .

فصاح بهم ابن شهبرة : اضربوا فسطاط الملك .

---

(١) الشقائق نبات للمفرد والجمع والاصح انه من اسماء الجنس الواحدة منه شقيقة، وهو نوعان ، كل واحد منهما احمر الزهر مبقع بنقط سوداء كبيرة غير ان زهر الواحد منهما ارق من الاخر ، والرقيق يضاف الى النعمان « ويقال له بالدارج : عمى الدجاج »

واذا بصوت ينبعث من بين الزهر فيقول : لقد لفحتني الشمس وانا انتظر يا مولاي ..

فقال النعمان : ويلكم هذا إياس ؛ ادعه يا عصام .

فاقبل اياس محمولاً على محفته ..

ثم اخذ القوم مجالسهم وصفت الأقداح بينها جام الملك وهو من الذهب الخالص .

وسقى الساقي النعمان ووزيره ، ثم انثنى يريد ان يسقي الاسود والربيع .

فانتهره الملك قائلاً : متى كان القوم يشربون قبل عدي بن زيد واياس بن قبيصة اسقهما اولاً ..

فرفض عدي ان يشرب قبل اياس .

واتجهت العيون الى الاثنين .

فتناول ابن قبيصة كأسه وقال : أأشرب يا مولاي قبل صهر الملك ؟...

فأجابه النعمان قائلاً : بل تشرب قبل الجميع يا ابن قبيصة ، اما عدي فنسقيه من كأس الملك ، خذ يا عدي اشرب من هذا فهو جام انو شروان وهبه لجدنا المنذر بن ماء السماء ونحن نهبه لك عند المساء .

فشكر عدي واثنى .

اما ابن مرينا فهمس في اذن عمرو بن مسعود يقول له : سيجود الملك على عدي بتاجه بعد قليل .

فأجابه قائلاً : ليجد بما يشاء الا بعطية كسرى ..

وكان قول الملك ، إن الجام جام كسرى انو شروان ، قولاً صحيحاً لا غلو فيه ، امر بـــه كسرى للمنذر بن ماء السماء ، يوم امر له بتاج العراق .

وانها لاهانـــة للملوك العجم ، ان يستخف بهم ملوك العرب فيجود هؤلاء على رجـــالهم بالعطايا التي جاد بها عليهم من قبل اولئك الملوك .

والنعمان ورجال النعمان يعرفون ذلك ، لا سيما وجام كسري ، ذلك الملك العظيم ، لا يمنح الا للملك .

ولكن كسرى بعيد عن الحيرة .. لا يعرف ماذا يجري في مجلس النعمان ، وليس في الحيرة من يجسر ان ينقل اليـــه ذلك الا رجـــال الوضائـــع ، من الفرس ، وهؤلاء لا يرافقون الملك في ذهابه الى اللهو والصيد .

والنعمان من جهة اخرى لا يخاف احداً ، انه ورث اباه في الملك فانتقل اليـــه مال ابيه كما انتقل هذا الجام ، فهو ملكه الخاص يهبـــه لمن يشاء .

وكأنه اراد في تلك الساعة ، ان يظهر عزه واستخفافه بكسرى ، وقد يكون ذلك عن سكر ... فقال للقوم :

أتعرفون احداً من اجدادنا بذل عطية كسرى ؟

فاعد كل واحد منهم عدته ليحرق البخور للملك السكران ..

قال الربيع : لا نعرف احداً فعل ذلك كما اننا لا نعرف ملكـــاً

يعطي قومه ما يعطي النعمان قومه ..

وقال شقيق الملك : انك اعز ملوكنا يا مولاي .

اما اياس بن قبيصة فكان اجرأهم اذ قال : لو وجد آباؤك الملوك رجلاً مثل عدي بن زيـد يستحق جام الملك لاعطوه اياه ، فأن كنت تفردت بالعطاء يا مولاي فلأن عدياً تفرد بالاستحقاق .

فمد ابن مرينا اصبعه ، فقال للملك :

اي انك لست افضل من سواك يا مولاي .

فالتفت الملك الى الساقي واومأ الى الاقداح .

فملأها الغلام وهو يرتجف من الخوف .

فضحك الملك ضحكة طويلة عالية وقال لهم :

ان الملك لا يطيق ان يرى في مجلس شرابه رجلاً يتكـلم دون ان يشرب ، اشربوا الآن ثم فسر لنا يا ابن مرينا الاقوال .. لقد اخطأتم جميعاً واصاب اياس .. هو يسمعنا صريح القول وانتم تتزلفون . ووالله لو لم يكن عدي افضلكم لما وهبنا له جام الاكاسرة، اشربوا يا اصحاب فكما تتلألأ الشقائق في هذا السهل تتلألأ الخمر ، فهذا الحبب يعلوها في الكؤوس كما تعلو النقط السوداء هذه الازاهير .

ثم نظر الى نديميه وقال :

أراك ساكتاً يا ابن مسعود ، وأرى خالداً يبخل علينا بحديثه؟

اهكذا تنادمان الملك على شرابه !!.

فقال خالد وقد ذكر وعده للاسود وابن مرينا :

ما كنا لنتكلم اذا حضر عدي بن زيد .

–أتحسده على قربه منا يا ابن المضلل ؟

فقال اياس : بل احسده يا مولاي على هذا الجام .

فاشرق وجه عــدي وارتسمت الرصانة على جبينه ، ولكنه ظل ساكتاً بعظمة وجلال .

فقال خالد : ليس ابن مرينا يفسر الاقوال يا مولاي بل ابن قبيصة.

قال : ولكنك لم تحبه ، فماذا تقول فيما اتهمك به ، اتحسده على جام كسرى ؟

ــ لا احسده على شيء يصير الى غيره .

فاستغرب الملك جوابه وقال :

منطق غريب ما فهمنا منه شيئاً ما معنى هذا يا ابن المضلل ؟

ــ معناه ان عدياً سيحمل جام الملك الى المدائن ويقول لكسرى : انظر ايها الملك ، هذا جام انو شروان وهبه للمنذر بن مــاء السماء يوم ملكه على العرب ، فاستخف به حفيده النعمان بن المنذر واعطاني اياه .

فكأن السهم اصاب قلب الملك ؛ وقد جرحه ابن المضلل بكبريائه ، ولكنه ابتسم وكان حقه ان يغضب .

ثم قال والابتسامة على شفتيه : اتخوفنا بكسرى يا خالد ؟

قال : لا يا مولاي ، ولكني اكره ان يبذل الملك مــاله لرجل لا لا يحتفظ به . .

فنظر النعمان الى مربيه .

ولكن عدياً كان ارفع من ان يجيب .

فانبرى اياس بن قبيصة يقول : هــذا كلام يستحق التفســير

يا مولاي . .

قال : فسره بما تعلم .

فقال : اراد خالد ، ان كسرى اذا عرف بامر هذا الجـــام عزلك عن العرش . . ومولانا الملك اعز من ان يخاف كسرى فيما يجود به من ماله . .

وهذا ما قام في ذهن الملك من التفسير .

غير انه لسر من اسرار القدر لم ينفجر غضبه ، فقال :

اذاً ضرب خالد واحداً فاصاب اثنين .

ــ بل ضرب الاثنين معاً يا مولاي .

فهم خالد بالجواب فاسكته الملك بقوله : نحن ندافع عنك . . ان نديمنا يا ابن قبيصة ما اراد هذا ، ولكنه يضن بهذا الجام الذهبي الثمين ان يسترجعه الاكاسرة وقد وهبوه، فكأنه يحذر عدياً من اخذه معه الى المدائن . . . هات يا ابا امامة ما عندك من الشعر .

فقال النابغة : رأيت ان احل قضيـــة الجام قبل ان اقـــول الشعر يا مولاي .

قال : لقد انتهينا من امره فلا تحدثوني بذلك بعد الآن .

وبان الغضب في وجهه . .

فقال : كلمة واحدة يا مولاي وينقضي كل شيء .

فهز الملك رأسه وقد فرغ صبره ، ثم قال ، ما هي كلمتك ؟

فأومأ النابغة الذبياني الى ذلك البراق قائلا :

ان يكون هذا الجام لابي امامة ، فيقول في كل جرعة يجرعها منه

عشرين بيتاً من الشعر . .

وكان النابغة هزالا كثير المجون .

فتناول الملك كأسه وقال له : اعطينـــاك اياه وامرنا لك بما يتبعه من عدة !

ــ وما هي عدته يا مولاي ؟

ــ عشرون جلدة بسوط عدي بن زيد عن كل جرعة ...

ــ اذن يأذن لي الملــك ان اهبــه لسواي ، خــذه يــا « بشر ابن ابي خازم » .

فقال بشر : لو رأى الملك اجدر منك بالجلد لفعل .

فضحك النعمان ، ولكن ضحكه كان دمدمة وهو مطبق شفتيه .

ثم اخذوا يتناشدون الشعر والملك يفكر في قول نديمه ابن المضلل حتى كان العصر .

فامر الملك فبسط الطعام وقد اكثر منه واطاب .

وطفق القوم يأكلون وقد اخذت فيهم الخمر .

***

وابت الاقدار الا ان تعكر على الملك صفو يومه .

فبينما هم يأكلون ، اذا بغلامين اقبلا على مجلس الملك ، فاخــذ يتفرس فيهما واتجهت اليهما الانظار .

فقال عمرو بن مسعود : غلامان من الرهائن يا مولاي .

فسلم الاثنان ووقفا ينتظران الاذن في الدخول .

فقال الملك : من اين انتما قادمان ؟

فاجابه احدهما قائلا : من الحيرة يا مولاي .

فالتفت الى حاجبه وقال له : اسقهما يا عصام .

فسقاهما الحاجب كأسين .

فقال : اسألهما لماذا قدما ؟

فاجابا : بعثنا اليك مولانا قائد الجيش حسان بن المنذر .

فرمى الملك الكأس من يده وقال :

والله ما بعثهما حسان الا لأمر جلل ، أدهمتنا الخيل ؟ . .

فقال احدهما : لا يا مولاي ولكن صعلوكاً من صعـــاليك العرب اجترأ على الملك .

فكادت عينا الملك تخرجان من محجريهما من شدة الغضب فقال :

وفي اي شيء اجترأ علينا هذا الصعلوك ؟

قال : اغار على مالك واستاق طائفة من العصافير .

ــ ويلك فمن هو ؟

ــ شقة بن ضمرة يا مولاي ويقال له المعيدي .

ــ فالتفت الى القوم وقال :

من يعرف هذا الرجل ؟

فقال حمو الملك سعيد بن حارثة : انا اعرفه يا مولاي فهو خليـــع بني معيـــد .

ـ أخليع يهاجم مالنا ؟ . . وما هو شأنه في العرب ؟
ـ شأنه ان يسلب ويغزو ، لا يفرق في ذلك بين الفرد والجماعة والضيف والجار ، فهو المتمرد على اهله وقومه وابيه وزوجته لا يعرف احداً ولا يخضع لسلطان .

ـ ومن يشد أزره من رجال العربان ؟

ـ فريق من شذاذالقبائل يا مولاي لا يجاوزون المائة .

فتنفس النعمان الصعداء وقال : سيهاجمنا شذاذ العرب في قصرنا ولا يبالون ، أليس من الغريب ان يغير المعيدي على مالنا وجيشنا يملأالعراق؟ واين هاجمنا الرجل يا غلام ؟

ـ على بعد خمس مراحل من عين التمر .

ـ وحسان ماذا يريد الآن ؟

ـ يستشير مولانا الملك في امر المعيدي .

فقهقه النعمان قائلا : وهذا اغرب ما سمعنا ! ! ان اخانا حسان بن المنذر قائد جيشنا لا يسترجع مالنا الا اذا شاورنا في ذلك ، فقولوا لي يا امراء العرب ؛ ماذا يفعل اخونا حسان اذا هاجمتنا اليمن او الشام بالجيش ونحن غائبون ، أينتظرنا حتى نعود الى الحيرة فيدافع عن قومه ؟ !

فقال عمرو بن مسعود : ليست هي المرة الاولى التي يغير فيها المعيدي على مال الملك .

فنظر النعمان اليه يستوضحه الخبر وقد استغرب جوابه .

فقال عمرو : اجل يا مولاي ، ان شقة بن ضمرة متمرد وبعيد عن

الطاعة كما قال ابن حارثة ، اغار مرة على مالك فطلبه الامير حسان فلم يقدر عليه ، ثم اغار ثانية فجد في طلبه فخانه الحظ ، فلما اغار هــذه المرة رأى ان يستشير الملك في امره قبل ان يبعث في طلبه .

فزاد استغراب الملك وقال لمن حوله :

أيكتمون الملك امراً لا يعني احداً مثلما يعنيه .

ثم قال لوزيره اليربوعي : أتعرف هذا ؟

قال : بل يعرفه الجميع يا مولاي وقد كتموه .

ـ لماذا ..

ـ كي لا نشغل بال الملك .

وكان رجال البلاط يعرفون خــبر المعيدي ولكن ليس بينهم من يجرؤ على ان يبوح به للنعمان .

فقال الملك : احسنتم فخير للملك ان يسلب مالهمن أن تشغلوا باله..

ثم التفت الى اخيه الاسود قائلا :

أيستخف بنا اخوك حسان ؟ .

فقال خالد بن المضلل وهو سكران : مسكين حسان يطلب المعيدي منفرداً في رأيــه فيغضب الملك ، ثم يشاور الملك في الامر كما يفعل الآن فلا يسلم من الغضب ، فهو بريء في الحالين ولكن الملك لا يثبت على امر ..

قال هذا وتناول كأسه لم يقل شيئاً .

ولو قيل لرجال النعمان ، في تلك الساعة ، ان الفرات العظيم الفياض نضب ماؤه وغار في الارض ، لكان اسهل عليهم ان يصدقوا هــذا

القول من ان يصدقوا ان خالداً يجترىء على مولاه في مثل ذلك الجواب .

فاخذوا يحدقون اليه ، وقد سادهم صمت رهيب توقعوا بعده ان يثور ثائر النعمان .

غير انهم لم يروا ما توقعوه ، فقد افتر ثغر الملك ؛ واشرق وجهه ، وبرقت عيناه ، ولكن تلك العصا القصيرة السوداء كانت ترتجف في يده ...

اما خالد فلم يبال ...

ثم قال الملك بصوته الهادىء : اصاب نديمنا واخطأنا نحن .. ياغلام، عد الى الحيرة مع رفيقك ، وقل لاخينا حسان ان يبعث من يشاء ليسترجع مالنا ؛ فان عجز عن ذلك نظرنا في امر المعيدي ...

والتفت فجأة الى اياس وقال له : أيذكر المعيدي بين الابطال يا إياس ؟

فقال : بل هو من اشد العرب يا مولاي .

فقال للغلام : اذاً فقل لحسان انه اذا عجز عنه فقد امناه ؛ فالملك لا يحب ان ينفر الرجال الاشداء .

وجهد كثيراً في اخفاء مظاهر اضطرابه وغضبه .

* * *

ثم رفع الطعام ، والناس يشربون حتى عقدت السنتهم الخمر .

وخالد بن المضالل ، وعمرو بن مسعود لا يرتويان ، فقد شاء القدر ان يشربا كثيراً فيزدادا جرأة واقداماً على الملك .

حتى ان عدي بن زيد ، وكان لا يشرب كثيراً ، كاد يضيع رشده لكثرة ما شرب .

وهو مكره على ذلك ، فكلما جرع الملك جرعة ناوله الكأس فجرع مثلها وهو لا يقدر على الرفض .

الا اياس بن قبيصة وعصام بن شهبرة ، فكانا صاحيين ، وهما يتحدثان همساً بما رأيا .

وكان عصام يقول لرفيقه : ارأيت خالداً يجترىء على الملك كما تجترىء أنت ؟ انه والله لمقتول .

فقال اياس : ولكن الملك ابتسم له ولم يغضب .

فقال : ما رأيت النعمان يغضب مرة الا ورأيت هذه الابتسامة القصيرة تعلو ثغره ، فكأن الموت يكمن دائماً وراء شفتيه الضاحكتين ؛ فالويل لخالد .

فرآهما الملك يتحادثان ، فقال :

بماذا تحدث حاجبنا يا اياس ؟

فأجابه ذلك الداهية قائلا :

أحدثه باغرب ما رأيت يا مولاي .

ففهم الملك مغزى قوله ، فقال :

وان الملك ليحدث نفسه بأغرب ما رأى ... وانت يا عصام ماهو

أغرب ما ترى الآن ؟

فابتعد عصام متعمداً عن الموضوع ، قال :

اغرب ما ارى يا مولاي ان ينتقل عدي بن زيد في ساعة واحدة، من حال الى حال .

ــ وكيف ذلك ؟

ــ ما رأيته بشرب الخمر يوماً كما يشربها الآن من يد الملك .

فضحك وقال : ليس بالامر الغريب ان يجارينا صهرنا في الشراب

فالتفت ابن مرينا الى النديمين كأنه يقول لهما : لقد اتت الساعة .

فقال ابن مسعود : انه لزواج مشؤوم يا مولاي .

فزاد وجه الملك اشراقا وقال : الا توافقنا فيه يا عمرو ؟

قال لا ؛ وهو زواج يغضب وجوه العرب .

ففارقت الرصانة وجه عدي وقال : بل يغضب رجلين اثنين من رجال البلاط لا ثالث لهما .. ايهينني ابن مسعود يا مولاي ؟

وهم إياس بالكلام :

فقال الملك: ليس في ما قاله اهانة لاحد .. دعوني اتكلم .. ياعمرو .. اتسمي زواج مولاتك هند شؤما ؟!

ــ نعم اذا زفت هند الى هذا المعدي « نسبة الى معد »

ــ اذاً ستقود ناقتها انت وخالد يوم تزف اليه .

فقال ابن المضلل : ما كنت لافعل ولو قتلت .

قال هذا وضحك الاثنان .

فانفجر البركان : بل انقضت الصاعقة انقضاضا هائلا وغريبا دون

ان يسمع لها صوت .

وهذا ما رآه الناس ، رأوا عيني الملك تصبحان قطعتين من دم في اعلى وجهه . وشفته السفلى تتقلص، فبدا كاشراً كما يكشر النمر عن انيابه ؛ وذلك الوجه الاحمر الابرش يسود حتى اضحى اشد سواداً من الظلام .

ثم رأوه يستند الى كتف عدي وهو لا يقدر على النهوض وركبتاه ترتجفان .

ثم قال : هات يدك يا عصام .

فاقبل الحاجب فانهضه ، وقد اعمى بصيرته السكر فهو لا يعلم ان الخمر التي ضيعت عقله ضيعت عقل النديمين فلا يقام وزن على ما يقولان.

حتى ان اشد الناس جنونا ، كان في تلك الساعة ، ابعد نظراً منه واكثر عقلا .

ومشى الى خارج الخيمة وهو يتهادى في مشيته .

فتبعه القوم لا يعلمون غرضه وهم يتمايلون ايضاً من السكر .

واستمر ماشيا مقدار عشرين خطوة وهو مطرق ينظر الى الارض والقوم خلفه يتهامسون ..

حتى وقف ، فرفع رأسه وقال دون ان يلتفت الى احد :

علي بالغلمان ..

فأقبلوا عليه وهم اثنا عشر غلاما .

فأومأ بعصاه الى الارض وقال :

احفروا هنا حفرتين طول الواحدة منهما ثلاث اذرع وعمقها ذراعان وعرضها ذراعان بينهما اثنتا عشرة ذراعا ... ابدأوا الآن ولا ترددوا

ولا يرفع احدكم رأسه حتى ينتهي . .

فحفروهما والناس ينظرون .. واياس بن قبيصة في محفته .

وكان اعقلهم يقول : لقد جن الملك . .

اما هو فالتفت الى خالد بن المضلل وقال له بعظمة الملك وجلاله : اتراجعني في ما اقول يا خالد ، ضعوا هذا اللعين في هـذه الحفرة فهي قبره .. وانت يا ابن مسعود انظر الى رفيقك ينهال عليـه التراب ثم يجيء دورك . لقد اصبح النعمان بن المنذر لعبـة في ايدي رجاله ؛ وامسى بنو اسد سادة الخورنق وملوكه . فوالله ما برحت مكاني حتى تغيبا انتما الاثنين تحت طبقات الثرى..

وفي تلك اللحظة ؛ هبت الريـح ، فسمع لها صوت كصوت المرأة النائحة . .

فجحظت عينا خالد وعاد اليه رشده فجأة كأنه لم يـذق الخمر في ذلك اليوم .

ثم ارتمى على قدمي النعمان وهو يبكي ويقول :

ما اتيت ذنبا استحق عليه الموت يا مولاي .

فقال : صبرنا عليك حتى لتصفع الملك في مجلسه ولا تبالي ؛ فارقد في هذه الحفرة الى الابد فما كنا لنصبر عليك بعد الآن .

اما ابن مسعود فلم يصح ، ولكنه كان يبتسم ابتسامة البله .

ولم يجزع القوم قط ، جزعهم من هـذا المشهد الرهيب ، مشهد رجلين حيين يطرحان في حفرتين .

وخاف الاسود وابن مرينا خوفا شديداً فلم يسألا الملك عفوه عن

الاثنين التاعسين .

غير ان العاطفة النبيلة التي تتغلل في صدر عدي بن زيد ، استيقظت فيه بالرغم من سكره ، فجثا على ركبتيه امام النعمان وقال :

اسألك يا مولاي ، بحق ما كان لأبي على ابيك المنذر رحمه الله ، وبحق ما كان لي انا عليك ان تصفح عنهما .

ولكن الملك لم يكن انسانا ، فقد حال غضبه وسكره دون انسانيته التي تتألم فهو لا يذكر الا كبرياءه التي جرحت وعزه الذي أهين .

وكان بصره تائها كما تتيه ابصار المجانين فقال :

لا يتكلم احد فانا الملك وحدي ولستم شركاء لي.. يا غلمان الخورنق اطرحوا هذا اللعين خالداً في هذه وهيلوا عليه التراب ..

فحمله اربعة منهم وهم يترددون في قذفه الى حفرته .

فاستحثهم الملك السكران بعصاه . .

فوضع خالد في ذلك القبر وهو يصيح :

يا مولاي... يا ابا قابوس ... يا خير الملوك ... استبقني لمسرتك.

والنعمان يقول : ما نسر يا لعين الا بقتلك . . حتى غطى التراب جسمه وبعض وجهه .

فاخذ المسكين يستغيث والتراب يتساقط على عينيه وفي فمه فيلفظه لفظاً حتى حجبه عن العيون .

فخيل الى القوم عند ذاك ؛ انهم يسمعون صوت استغاثته بل صوت نزعه صاعداً من الاعماق ...

وصحا الناس وبكوا.. الا الملك واياس بن قبيصة في محفته فلم يبكيا.

وكأن ذلك المشهد الرائع هاج وحشية النعمان ؛ فقال لعمرو :

أتهزأ الآن بالموت يا ابن مسعود كما تهزأ بمولاك ؟ . . انزل الى قبرك ان كنت رجلا !..

فمشى ذلك النديم الى حفرته بقدم ثابتة كما كان يتمشى متأنياً هادئا في اروقة الخورنق ، وقبل ان يستقر بمضجعه الابدي ، التفت الى عدي ابن زيد وقال:

اهنأ بزواجك يا عدي ولكن احذر هذا اللخمي الظالم الذي لايكاد يرضى حتى يغضب .. ان الموت خير من العيش في قصرك يا نعمان .

ثم مد يديه الاثنتين شاتما آل نصر ..

وقفز الى قبره وهو يشتم ، ولكن صوته كان يبتعد كلما ضغط التراب صدره ولم يلبث حتى اختفى ..

فرفع النعمان رأسه وقال للقوم :

عودوا الى الشراب فالنهار لما ينقض بعد ..

ومشى يريد خيمته وهو يتوكـــأ على ذراع عصام .. فقال إياس في نفسه :

لا يطيب الشراب للملك الا على القبور .. فوالله لو اراد ان يفعل بي كما فعل بنديميه لاخترقت صدره بهذا السيف .

وعادوا وقد استنكفوا من الشراب ، والدموع تجول في العيون .

أما ابن مرينا ، فكان صدره يغلي بغضا وحقداً على عدي .

ومكثوا بعد ذلك ساعـــة لم يسمع فيها صوت ، حتى امر النعمان

بالعودة الى الحيرة ، فوضعه الغلمان على ظهر جواده واحاطوا به من الجانبين .

* * *

١٢

ندم افظع من القتل

وكان موكب الملك ، وهو عائد الى الخورنق موكب موت ...

الناس مطرقون ؛ ابصارهم في رؤوس افراسهم ؛ والصمت يسود حتى لتسمع الصدور ترسل الزفرات .

وقد ملأت الكآبة قلوبهم ؛ واستولى الرعب على تلك القلوب ، بعد ما شهدت ذلك القتل الغريب .

اجل ، كان العربي في تلك العصور ، يئد بنته « اي يدفنها حية » في ايام الجدب ، ولكن الرجال الاشراف تدفن كما دفن النعمان نديميه ! ان ذلك كان بدعة جديدة واختراعاً في القصاص ما رأت له العرب مثيلا قبل ذلك اليوم .

اذاً فكلمة واحدة تخرج من فم الرجل في مجلس النعمان تبعث بـه

الى الموت !

ومن يضمن حياته في ذلك المجلس الذي يستحيل في ساعة واحدة من مجلس انس الى ساحة اعدام !!

بمثل هذا كان يحدث رجال الملك انفسهم وهم راجعون .

وكان عدي بن زيد اشد الناس خوفا من هذا ، على قياس ان اقرب الناس الى النعمان اقربهم الى المنون .

حتى وصلوا الى الخورنق ، فانصرف الملك الى حجراته لا يلوي على احد ؛ وتفرق القوم .

وكان الليل في اوله ، والغلمان لا ينامون قبل ان يفضحوا الاسرار

فانتشر خبر القتل في ذلك القصر العظيم ، واجتمع اهله في الرواق الكبير يتحدثون به ، وأحد الغلمان يصف لهم مشهد الدفن بما فيه من فظاعة وروعة .

وفعلت الجواري كما فعلت الغلمان ، فنقلن الخبر الى الملكتين ، فرعة وزينب .

ثم أقبل ولي العهد وأخوه المنذر مع الوالدتين، يعقدون مجلساً خاصاً في حجرة هند .

فقال قابوس لامه : الا ترين ان الملك جاوز حده ؟

فقالت فرعة : أجل واني لا اعرف ملكاً جازى رجاله بمثل ما جازى النعمان نديميه .

وقالت زينب : كلما كثرت الخمر في جوف الملك ، نما غضبه وثارت نفسه .

اما هند فلم تزد على قولها : اسألوا عصام بن شهبرة .

فجاء عصام .

فقال ولي العهد : قص علينا يا عصام ما رأيت .

فروى الحاجب رواية القتل كما جرت ثم قال :

كنت ارى الملك يجهد في اخفـــاء عاطفته واخماد غضبه ، وكلما بدت على وجهه دلائل الغيظ ، رأيت هـــذه الدلائل تضمحل وتعـــود مظاهر السكينة الى ذلك الوجه وهو يتجلد ويبتسم حتى راجعـــاه اكثر من مرة فنفذ الصبر ؛ واني لاعذر الملك اذا قتل فـــلو كنت النعمان لفعلت كما فعل ، والا لضاعت هيبـــة الملك وهـــزأت الغرب بعرش العراق والجالس على العرش .

ثم اخذ يدافع عن مليكه ؛ امام اهل البيت المالك الذين اجتمعـــوا ليحاكموا النعمان وهو غائب ..

وقد أحسن الرجل الدفاع ، حتى ان اولئك القضاة الذين استفظعوا الحادثة ، حكموا جميعهم بالبراءة ، لان الملك لا يراجع في قوله .

أجل ، لقد كان الملك ، في ذلك الزمن ، الهاً على الارض اذا قال كان قوله قضاء ؛ والقضاء لا يرد ..

ولكن النعمان كان من اولئك الالهة الظالمين الذين لا يصفو عيشهم الا اذا أصدروا أحكام الموت .

ثم انتقلوا الى حديث الزواج .

فقال عصام : ان الملك مـــاض في امره فلا تحاولوا اقناعـــه ، ألا توافقينه فيه يا مولاتي ؟

فقالت فرعة : ما كنت لاختار زوجاً لهند أفضل من عذي .. وأين هو الملك الان ؟

ـ في غرفة نومه ، دخلها دون ان يأذن لي في اخذ ردائــه ووضع المسك في وعائه .

فقالت زينب : انه يفكر الان في عمله وقد جاء دور النــدم فمن يجرؤ على الدخول عليه ؟

قال عصام : أما انا فلا اجسر على ذلك .

فقالت هند : دعوني أفعل .

ثم خرجت تريد حجرة النعمان .

فلما وصلت ترددت قليلا في الدخول ثم فتحت الباب وهي تجــد انفاسها فرأت رداء الملك في ارض الغرفة والملك يتقلب في فراشه وهو يحدث نفسه بصوت عال ولكن كلامه غير مفهوم .

فخطت خطوتين .. فاستوى السكران جالساً في فراشه واخذيحدق اليها تحديقاً غريبا لمعت فيه عيناه كما تلمع عين الهر في الظلام ..

اما هي فلم تخف بل تمتمت تقول :

يا ابي اانت محموم ؟

فانتفض النعمان لنغمتها الملائكية وصوتها الساحر ، وكان جوابــه أن مد نحوهــا يديــه الاثنتين كما يمــدهما المستعطف السائل دون ان يقول كلمة .

فكاد فؤاد هند ينشق ، عندما رأت ذلك الملك العظيم تأخذ فيه الخمر الى حد ان يضيع عقله .

فتقدمت وهي لا تذكر عندئذ الا انها ابنته ...

فعرف النعمان هنداً .. فقال :

ـ هند ؟؟

ـ نعم يا مولاي .

فبكى .. وبكت هند .. ولكنها لم تبك لبكائه بل لمظاهر الكآبة البادية على جبينه .

ثم قال : الم تري يا هند نديمي خالداً وعمراً ؟

قالت : بلى يا مولاى ، رأيتهما هذا الصباح يركبان فرسيهما في ساحة الخورنق ثم يسيران وراء فرس الملك ...

ـ واين هما الآن ؟

ـ لقد مضت طائفة من الليل يا مولاي فهما نائمان . .

ـ أفي القصر أم خارج القصر .. هنا ام هناك . ؟

فارتجفت هند قليلا ثم قالت :

في حجرتين جديدتين بناهما الملك في ظاهر الحيرة .

فردد الملك قولها : في حجرتين جديدتين .. في ظاهر الحيرة لقد طال نومهما يا هند وانا لم انم ... أطبق جفني فأرى الاشباح السوداء على هذا الفراش .. هنا حيث تجلسين يا هند . فاذا فتحتهما رأيتها ماثلة على هذا الجدار ... انظري هذه هي ... انها شبحان اثنان ... هذا شبح ابن المضلل وهذا شبح ابن مسعود بل صورة خالد وصورة عمرو .. الا ترين يا هند ... انظري خالداً جاثياً على ركبتيه يستعطف الملك .. وهذا عمرو يشتم آل نصر . يشتمني أنا ويشتم آبائي وأجدادي ..

ثم صاح قائلا : لقد تواريا عن نظري الان .. لا .. فهما يهويان الى الاعماق ... الى حيث يرقدان في فراشين وثيرين اعدهما لهما الغلمان .. وغطوهما باغطية الخز والديباج ، فناما .. أصبت يا هند فهما نائمان .. ولكن في بطن الارض ..

هكذا مثل الملك الحادثة ابلغ تمثيل فقد كانت مطبوعة في دماغه المخدر ، وهو يقرأها على جدار غرفته كانها مكتوبة .

ولكنه لم يصح ، بل كان يراها بتلك العين الساهرة التي لا تنام عين انسانيته الكامنة فيه ، بل عين ضميره .

ثم وضع رأسه بين يديه وعاد الى البكاء .

فرأت هند دموعه تخرج من بين أصابعه ؛ فطوقت عنقه بيديها الصغيرتين وقالت له :

النعمان بن المنذر لا يبكي يا مولاي .

فرفع رأسه وهو يقول : مسكين هذا النعمان الذي لا يقدر ان يغمض عينيه .. هيلوا التراب واطمروا خالداً فما كنا لنسر الا بقتل هذا اللعين .. وادفنوا ابن مسعود بعده فالاثنان اجترءا على الملك ... الا شلت يد الملك فقد قضى على أحسن فتيان بني أسد .. الا تعلمين يا هند من هو الملك القاتل ..

انه النعمان بن المنذر الذي تذكرين ..

واستلقى على ظهره وجسمه ينتفض .

فخيل الى هند انه في ساعة النزع ؛ ولكنها ما كادت تنهض حتى سمعته يقول :

دعوني فالقاتل يعض يديه ووسادتــه ويتمرغ في فراشه كالمريض يحس وجعاً لا يطيقه .

فأيقنت الفتاة ان ضمير الملك انتصر عــلى سكره ، ولكن بعــد فوات الاوان ..

وكانت تعلم بالرغم من صغرها ، منزلة النديمين في الخورنق وادلالهما على ابيها بل كانت تعلم ان الاثنين احب الى الملك من جميع الرجال الذين يعيشون في القصر وان ذلك الذنب الذي اقترفــاه لا يستحق القتــل فليس بالغريب اذا ان يظهر الملك ندمــه بالمظهر الغريب الذي رأت ؛ وهو يبكي كما تبكي الاطفال .

فعمــدت الى الرجوع ولكنهــا أرادت ان تمتحن قبل ان تعود فقالت :

أأفت المسك يا مولاي ؟

فقال : اذهبوا عني فالمسك لا يفتونه على القبور .

فتراجعت هند وهي تمسح عينيها الدامعتين .

وكان ابن شهبرة بالباب .

فقالت له : أرأيت كل شيء يا عصام ؟

ـ نعم يا مولاتي فخير للملك ان يبقى وحده ، وانا لا أبرح مكاني حتى الصباح .

ولكن الاسرة المالكة لم تنم فقد كانوا يترددون الى غرفة الملك الواحد بعد الاخر حتى طلعت الشمس ، وهم يتوقعون ان يسمعوا ويروا شيئاً جديداً من الملك الصاحي ..

يا عصام .. اسرج لي فرسي :واذا اراد الشعب جميعه ان يرافق الملك الى ظاهر الحيرة فأنا ذاهب بعد ساعة ..

ـ أفي موكب يا مولاي ؟

ـ اجل وفي موكب عظيم لا يحمل فيه سلاح ولا يشهر سيف ..لان الملك يسير الى ذلك الموضع ليبكي نديميه اللذين قتلهما أمس .. اليس بينكم يا رجال الخورنق من يمسك يد الملك فلا تمتد لقتل ؟؟! ان عدي ابن زيد وحده هو الذي شفع لخالد وعمرو في العفو فلم استجب طلبه وليتني فعلت ، اذن لكنت الآن ناعم البال لا أحس بالنار تلتهب في هذا الصدر ، فلهفي على النديمين اللذين حفظا العهد فنكثته ، ووفروا لي صفاء العيش فضيعته ، بل لهفي عليهما نادماني دهراً فكافأتهما بالموت ..فاذهب يا عصام .. اذهب وقل للناس : من اراد ان يرى الملك باكياً فليذهب الى ذلك السهل حيث يرقد الاثنان الى الابد .. وليكن في المركب اربعون عاملا من عمال الحيرة فيهم البناءون ... اعطني رداء اسود يا عصام فاليوم لا يلبس الملك رداء الملك بل يلتحف بالسواد ..

ثم حول وجهه ومسح دموعه .

فخرج عصام وهو يقول في نفسه :

لو كان هذا الندم يطول لكنت يا مولاي العزيز افضل الملوك .

ثم انثنى الى ذلك الجناح الخاص بالملكتين فقص على اهل الملك ما سمعه من مولاه ، وانصرف لتنفيذ الامر الذي عهد اليه به .

* * *

غصت الحيرة وساحاتها بالعرب ، من الاطفال الى الشيوخ ،ومشى الموكب .

وكلهم على الاقدام . الا الملك فكان على جواده . واياس بن قبيصة في محفته .

حتى وصلوا الى ذلك الموضع . فترجل النعمان ومشى قليـــلا . ثم وقف .

وكان وقوفه بين الضريحين ..

فأخذ يبكي وهو ساكت والكثيرون يبكون لبكائه .

ثم التفت الى الناس ورفع عصاه قائلا :

هنا يرقد خالد بن المضلل وعمرو بن مسعود نديما الملك . قتلناهما في غضب وندمنا وهذه دموع الملك تشهد على ندمه .

فتصاعدت الزفرات وارتفعت اصوات القوم في البكاء .

ثم قال لعصام : علي بالبنائين .

فاقبلوا عليه وهم كثيرون فقال :

ابنوا على هذين الضريحين بناءين مربعين يشبهان الصوامع .

فاصبح القوم جميعهم عمالا ، فارتفعت الصومعتـــان في اقل مـــن ساعتـــين .

فرفع الملك النادم صوته وقال :

« ما انا بملك ان خالف الناس امري ، لا يمرن احـــد من وفـــود العرب الا بين هذين البناءين ، وقد جعلت للقتيلين يومين من كل عـــام يوم نعيم ويوم بؤس فاذا كنت في يوم النعيم اتيت بأول من يطلع علي

فحبوته وكسوته ونادمني يومه ، وان كنت في يوم البـــؤس اتيت بأول طالع فامرت به فذبح وغريت بدمه هاتين الصومعتين .. »

فاستغرب الناس هذا الندم العجيب ، بل استغربوا ذلـــك الحكم الجائر يصدره الملك على اول من يطلب احسانه في يوم بؤسه .

ولكنهم حسبوا انه سيعين يوميه فلا يسأله احد في يوم البـــؤس احسانـــاً .

« غير ان النعمان لم يفعل ، فيوماه لم يعينا وقد قضى ايام ملكه يقتل الابرياء في ذلك اليوم ولا يبالي ..

ولكنه يقتلهم تكفيراً عن ذنبه . .

وسمت العرب الصومعتين ، غريين (١) .

وبعد ان القى الملك رثاءة البليـــغ ... ! أجال نظره بالقوم كأنـــه يفتش عن رجل يذبحه فيكون اول ضحايـــاه .. ولكنه لم يجد ذلـــك الرجل ...

فركب جواده واصدر امره بالرجوع الى الخيرة .

*

---

(١) وهنالك من يقول ان صاحب الغريين هو المنذر بن ماء السماء ولكنه قول قليل.

١٣

الصهر المغضوب عليه

وكان زواج هند ، يوماً من ايام العرب ما شهدت الحـيرة مثله في ايام النعمان .

مشت العرب وحدها ، والعجم وحدها ، وفريق من نساء الاشراف يتقدم العروس وهو يحمل المسك المفتوت في اوعية الذهب .

وقد جاد النعمان بعطاياه في ذلك اليوم ، وكان طروباً يبتسم للناس ويضاحك خاصته ويثني الثناء كله على عدي بن زيد صهره الجديد .

إن لهذا الطرب سر لا يجهله القارىء ، فالملك العظيم لم يكن سكران في ذلك اليوم ، وهذا ما يستوجب العجب .

الناس تصرعهم الخمر والملك صاح .. !! والفضل في ذلك لهند فقد سألته ان لا يشرب فوعدها ولم ينكث عهده .

وقد وفى بما وعد به زوجته فرعة ، فلم يزوج هنداً الا في السنـة بعد عودة عدي من المدائن .

وكانت الوفود تضج بالدعاء للملك وللعروسين الا اخـوة النعمان جميعهم فقد انكروا صهرهم في يوم عرسه ، وكانوا ساخطين علي ذلك الصهر لا يرضون به زوجاً لبنت الملك .

وكيف يرضون وابن مرينا من خلفهم يوغر صدورهما وينفخ فيهـا سم حقده القتال ؟ !

ولكنهم كانوا يتظاهرون بالرضى خوفاً من الملك .

كذلك كان شعراء النعمان وندماؤه ، رأوا امراء البيت المالـك لا يحبون عدياً ففعلوا مثلهم ، ليس عن حسد وبغض ، بل ليحتفظوا بما لهم عليهم من دالة تتبعها العطايا والاحسان ،

حتى ان فرعة لم تكن راضية ؛ بل قل ان هنداً ، لولا جلال ذلك المجلس لقضت يوم عرسها تذرف الدموع .

وهنالك اغرب من كل ذلك ، فعدي بن زيد الذي يحتلفون بزواجه كان احب اليه ان تزف هند الى غيره من فتيان العرب الاشراف .

وكان يقول في نفسه : لقـد جعلني الملك عبـداً لهذه الفتاة لا زوجا ...

ولم تبرح ذاكرته ، تلك الكلمة التي قالها للملك ذلك النديم المسكين عمرو بن مسعود : انه زواج مشؤوم :

اجل : فالزواج الذي لا يرضي العروسين يجر عليهما الشؤم .

ولكن ارادة الملك فوق كل شيء ، وعرشه افضل من هناء ابنتـه ورضى اخوته وزوجته .

وقضى القوم يومهم كله يطوفون في اروقة الخورنق وساحاتـه فلم ينصرفوا الا في المساء .

فترك الملك مجلسه واومأ الى العروسين ان يتبعاه .

وبين حجرات الملك ، وراء غرفة نومه ، قاعة كبيرة يقضي فيها مع اهل بيته بعض لياليه .

فتبعته هند وعدي ، ثم لحقت به فرعة وزينب وولي العهد قابوس

وأخوه المنذر فدخلوا جميعهم تلمك القاعة واغلق عصام بابها ووقف بالباب يسمع كل ما يقال .

فعرف عدي ان الملك لم يجمع اهل بيته الا ليملي عليهم شروطه.

وكانت الابتسامة كما قلنا ، لا تفارق ثغر النعمان ، فقال لعدي :

اتمكث بيننا شهراً أم اكثر ؟

قال : امكث ما شاء الملك وشاءت هند .

فضحك وقال : اضحت ارادة هند كارادة الملك .. ولكن لو خيرت هنداً لاختارت البقاء في الحيرة ، فماذا تقولين يا هند ؟

ـ ما كنت لافارق زوجي يا مولاي .

وغصت بالبكاء ..

فقال الملك : اي البلدين احب اليك ، الحيرة ام المدائن ؟

قالت : البلد الذي يقيم فيه عدي .

وعدي بن زيد ذلك الرجل الحكيم الذي خبر الزمان ، افلا يعلم ان جواب هند لم يكن عن عاطفة في القلب بل عن ادب في النفس ؟ وهل يفوته ان الملك انما دعاه لمثل هذه الغاية ؟؟؟ فقال للملك :

اني في المدائن يا مولاي ، كالسجين بين اربعة جدران ، لا اترك ديوان كسرى الا في اول الليل واذا تركته فلكي انصرف الى منادمته ومنادمة اولاده حتى يدب النعاس في العيون ، فكيف تعيش بنت الملك مع زوج لا تراه الا ساعة في اليوم وهي في البلد البعيد لا تعرف احداً من اهله ولا تعجبها عاداته واخلاق الشعب الفارسي الذي ستقيم بينه ؟ اني أضن ببنت ملك العرب ان تستوحش بعد الانس في الخورنق وان

تقيم في بلد ليست هي سيدته والمرأة الاولى بين نسائه ، فـاذا رأيت يا مولاي ان تبقى هند في حضن الملكة فقد احسنت اليها وحفظت كرامة العرب ومتى اردت يا مولاي فقد أردت انا ورضيت .

فأطرق النعمان متظاهراً بالتفكير ثم قال :

نسمع رأي ام قابوس في الامر .

فقالت فرعة : لقد اصاب صهرنا فيما قال يا مولاي ، فقد لا تقع عين هند في المدائن الا على خدمها وعَبيدها فتسأم الحياة وتمل ، وهذا ما لا يريده زوجها ولا يريده الملك .

قال : اذن تبقى في الخورنق .. وماذا تفعل بزيد يا عدي ؟

ــ ابقيه في بيت هانيء بن قلام يا مولاي .

ــ بل تنقله الى الخورنق قبل ان تنصرف الى بلاد العجم .

ــ ولماذا يا مولاي ؟

ــ لتكون هند اماً له . .

فظهرت دلائل الاستغراب في عيني عدي وقال :

أبنت الملك تربي ابني ؟

فقال : انها الآن زوجة عدي بن زيد وقد كانت بنتاً للملك .

ــ ولكني لا ارضى يا مولاي .

ــ واذا امرتك بذلك ؟

ــ اخذت زيداً الى المدائن وربيته في بيوت الفرس .

ــ اراك تبدأ يا عدي بالعصيان ..

ــ ليس هنالك عصيان يا مولاي بل عاطفة احترام ، ايشرفني الملك

بمصاهرته ثم يأمرني بأن اجعل بنته جارية تربي الاطفال ؟ ان الموت في نظري اهون من هذا .

فلم ير النعمان الا ان يجهر برأيه ، فقال :

الملك لا يريد ان يبقى زيد في بيوت آل قلام .

فبهت عدي ولم يدر بماذا يجيب .

اما الملك فاستطرد قائلا :

الا تعلم لماذا ؟ ان آل قلام لا ينسون ثأرهم ، فاذا نشأ زيد عندهم ملأوا صدره حقداً علينا وعلموه ان يخون ..

فتراجع عدي الى الوراء وهو يقول :

آل قلام خونة ؟

ــ أجل واذا تظاهر هانىء بحبنا فذلك عن خوف منا لا عن اخلاص . .

فكره عدي ان يسيء الملك ظنه بصاحبه ويسكت ، وما همه ان يغضب النعمان او يرضى فالدفاع عن آل قلام كان في نظره قبل كل شيء فقال :

ان آل قلام اشد اخلاصاً للبيت المالك من آل زيد ، وكيف يخونون الملك وهم الذين اعانوه بالمال ولو اضطروا لبذلو دمهم في سبيل عرشه ! ؟

قال : ذلك امر لا نبني عليه سياستنا ؟ ان المال الذي دفعوه ارادوا ان يشتروا به ثقة العرش وما كنا لنوليهم هذه الثقة وفي عروقنا دم آل لخم ، فاذا كانوا مخلصين فاضمن هذا الاخلاص قبل ان ترجع الى المدائن

فبهذا وحده نقبل ان ينشأزيد فيهم والافغيرهم افضل منهم فلاتراجعنا.
وكانت لهجته لهجة النعمان السكران .
ففهم عدي ان الضمان لا بد منه وان الملك يريد ان يستوثق من آل قلام ، فقال :
لقد ضمنت الرجل يا مولاي وضمنت زيداً .
فتنفس النعمان الصعداء وقال :
اما الان فقد وثقنا بصاحبك ، ولكن هنالك شيء آخر يا عدي اتضمنه للملك ؟
ـ أأستطيع ذلك يا مولاي ؟
ـ اجل ولا يستطيعه سواك .
ـ وما هو يا مولاي ؟
فتلفت الملك يميناً وشمالا فلم يجد غير زوجتيه واولاده فقال :
ان بعض وجوه العرب سيسعون بنا لدى كسرى .
ـ ومن يجرؤ على ذلك ؟
ـ بنو اسد ، وذلك بعد مقتل خالد وعمرو،ولكني لا ادري من يشد ازرهم من اخوتنا فقد خبرونا ذلك امس ونحن نبحث اليوم عن الامير العربي الذي يمد يده لبني اسد ، وبنو اسد كثيرون يا عدي وخلفهم عشائر واحياء من العرب فيهم الاشراف والفرسان يركبون الخيول ويشهرون السيوف اذا قال عبيد بن الابرص شاعر بني اسد بيتاً من الشعر ، فاذا نبذوا الطاعة واجتمعت جموعهم ، نشبت الحرب بيننا وتفرق الذين حولنا من الناس المتظاهرين بالاخلاص للعرش ، وهم

الخونة الطامعون باحسان النعمان .

ونحن لا نثق بكسرى يا عدي ، فاذا تغير وجوه العرب على الملك تغير هو عليه ايضاً وولى احد اخوتنا عرش العراق فينقسم ابناء المنذر على انفسهم ويتهدم هذا البيت اللخمي الذي عم احسانه قبائل العرب وشعراءها وسادتها لا نستثني منهم احداً .

نحن نجود بمالنا على الناس وهم يخونون وكأن بني اسد لا يعترفون بسلطاننا ولا يريدون ان يرتفع للملك صوت ، حتى ان اردافنا بني يربوع يوافقونهم في هذا وهم يحسبون ان الردافة باقية لهم ما بقي آل لخم .

وكان الملك يقص قصته واهل بيته لم يسمعوها من قبل ولم يقل احد في الخورنق ان بني اسد ناقمون على الملك قتله النديمين .

فأظهر قابوس استغرابه ، ولكن الملك كان جاداً في قوله فلم يبق في اذهانهم شيء من الريب .

اما عدي فقد عرف مهمته ، ولكنه بقي ساكتاً حتى يسمعها من النعمان نفسه .

ثم قال النعمان :

ليس في العرب من يعرف كسرى اكثر مما تعرفه ، بل ليس للنعمان من يضمن له رضى كسرى غير عدي بن زيد ، أفقادر انت على ذلك ام لا ؟

فقال عدي : ولكن كسرى راض يا مولاي .

ـ هو راض اليوم ولكنه قد ينقلب غداً ، فنحن نريد اذن من يضمن

غده لا يومه . اجل ، لو امرنا كسرى بترك العرش لتركناه ، ولكن بعد ان نعجز عن حمل السيف فما كنا لنفعل فعل جدنا ابن مـــاء السماء يستوي الدخيل ، بامر كسرى ، في عرش آبائه وهو ينظر اليه ، فقل لنا الان ، اتظن ان احداً من بني أسد يقدر ان يوغر صدر ملك الفرس على ملك العراق ؟

ــ اما بنو اسد فلا .

ــ وبنو تميم ؟

ــ وهؤلاء ايضاً لا يقدرون ،

ــ واذا سعى بنا بعض اخوتنا واتباعهم ؟

فرأى عدي ان يستغل خوف الملك فقال :

لا اضمن ذلك يا مولاي الا اذا وافقتني فيما اقول فان لي في هذا رأيا.

ــ اسمعنا اياه .

قال : اليس كسرى ملك الملوك يا مولاي ؟

قال : بـــلى .

ــ اذن فاعلم ان الملوك تفد عليه كل سنة ، مـــن كل قطر ، فتظهر له الطاعة والاخلاص الا انت يا مولاي ما رأيتك في ايوانه غير مرة واحدة منذ خمس سنوات ثم أهملت امره فلم تزره حتى كأنك لا تعترف بوجوده وهذا مما يضعف حبه اياك وثقته باخلاصك ، فاذا رأيت ان ترافقني بعد شهر الى المدائن فقد ضمنت لك رضاه ما بقيت .

فعبس وجه النعمان وقال :

أتدعو ملك العرب الى شيء فيه الذل يا عدي ؟ !

ـ اذن فالنعمان بن المنذر يعتز باظهار خضوعه لاصحابك الاعجام.

فقال : اذا وفدت ملوك الاقطار على كسرى لتخضع له ، فملك العرب يفد عليه كالحليف يزور حليفه لا يذكر له الخضوع والطاعة بل الحب والولاء .

وانا اعلم يا مولاي ان النعمان بن المنذر لا يخضع لاحد ولكن هنالك سياسة الملك تقضي عليك بمسالمة كسرى لتضع حداً لأولئك الطامعين بالعرش ، فلا يقدم احد على السعاية بعرش آل لخم والنعمان حي ، ومع ذلك فانا صهرك الآن ، وقد ربيتك صغيراً ، ولا ازال ذلك الخادم الامين الذي يبذل حياته في سبيل طاعتك ، أفيهون على صهرك ومربيك ان تذل للملك الفرس وفي ذلك ذلي وذل العرب ؟

وماذا يفعل كسرى اذا زرته ؟ انه يستقبلك كما يستقبل الملوك ويغلق بابه في وجوه خصومك فلا يسمع لهم ما يقولون .

ـ وكم نمكث في المدائن ؟

ـ ما شاء الملك ان يمكث .

ـ ولكن كسرى يجرح عواطف العرب فلا احبه وقد لا احتمل قوله ، افلا تذكر ما قاله في المرة الاولى عن الشعب العربي .

ـ ليقل ما يشاء فنحن لا يهمنا من كسرى الا ان يقيم على عهدك فيحب اصحاب الملك ويبغض اعداءه .

ـ حتى اذا كانوا من ابناء المنذر ؟

ـ اجل ، حتى اذا كانوا اخوتك يا مولاي .

فاتكأ الملك على وسادته واخذ يفكر .

ثم رفع رأسه واومأ الى ردائه الملكي وقال :

ما كنا لنهتم للبس هذا الرداء لولا قابوس والمنذر ، فيجب ان يرثا تاج العراق كما ورثناه ... ولكني لا اعجب لامر عجبي لامر اجدادي رحمهم الله كيف كانوا يرضون ان يملكهم ملك الفرس على العرب وهم اصحاب البلاد وساداتها ورافعو اسمها في هذا الشرق . . . فلو خلقت منذ ثلاثة اجيال ... آه لو خلقت في ذلك الزمن لعرفت هؤلاء الاعجام كيف ارجعهم عن العراق فلا تمتد لهم اصبع في بلاد العرب .

اليس من العار علينا نحن امراء آل لخم ، ان يتوجنا اهل فارس ساعة يشاؤون ويخلعونا عن العرش ساعة يشاؤون ؟ . . ولكن ضعفنا فاستقووا وتفرقت كلمتنا فبسطوا نفوذهم في ارضنا واحصوا علينا انفاسنا ، وكلما مر الزمان نزداد ضعفا فيزداد الفرس قوة حتى تسقط قوائم العرش ويضمحل هذا الملك فلا يرتفع لنا ذكر الى الابد ...

ثم نهض غاضبا وهو يضرب الهواء بعصاه ويقول :

ومع ذلك فسنذهب . . سنذهب الى زيارة الملك المعجب بنفسه ، ووالله لئن ساءنا بكلمة لارجعنا اساءته الى صدره على مرأى ومسمع من مرازبته واعوانه . .

فسكت عدي ، وهو يعلم عز النعمان وكبر نفسه .

وأخذ الملك يتمشى وهو غائص في التفكير .

ثم وقف فجأة أمام صهره وقال :

احذر يا عدي ان يمن علينا كسرى ويذكر فضله ، فليس لاحد فضل علينا وما كان كسرى ليستطيع ان يولي غيرنا امر العرب فالملك

ملكنا والتاج ينتقل في بيتنا من رأس الى رأس دون ان يكون لاحــد منة واحسان . فاذا قال شيئاً انكرنا عليه قوله وأسمعناه ما لا يحب ... أتضمن هذا ايضاً ؟

فقال : لا اقدر على ذلك يا مولاي ولكني لا اعتقد انه يفعل .

ـ واذا فعل ؟

ـ اذا فعل قضت السياسة عندئذ على الملك بـأن يحتمل حتى يخرج من المدائن ،ثم فليظهر العصيان اذا شاء فليس لي في ذلك رأي .

ـ أصبت يا عدي ، فالسياسة تقضي بذلك وانا لصابرون . افلا تحب الفرس يا صهرنا اكثر مما تحب قومك ؟..

فبغت عدي وقال :

ما معنى هذا يا مولاي ؟

ـ معناه انك تأبى ان يكون لك رأي فيما ذكرناه ..

فابتسم الرجل ابتسامة استخفاف وقال له :

اجل : ليس لي رأي في العصيان اذا اراد الملك ، وهذا معناه اني افضل قومي على الفرس .

ـ وكيف ذلك ؟

ـ اتطيق حرب كسرى يا مولاي ؟

ـ اما الآن فلا ، ولكن اذا اكرهنا عليها سعرناها حتى لتلتهـــم الاخضر واليابس من العرب والعجم ولا نبالي .

ـ أما انا فأرى غير ذلك ، أتأذن لي في القول ؟

ـ نأذن .

ـ اذا قدرت ان تجمع العرب جميعها تحت راية العراق فحارب ما شاءت الحرب فانت الفائز . واما ان تختلف مذاهب العرب واهواؤها وتنفرد كل عشيرة في الرأي ، ويكثر حولك الطامعون بالعرش من اخوتك وابناء عمك فلا تستطيع ان تضبط امورهم وتوحد ميولهم ، ان الحرب على هذا القياس يا مولاي تحطم عرش العراق وتقضي على بيتك العظيم الذي يتوارث ابناؤه التاج العربي منذ ثلاثمائة وخمسين عاماً .

من اجل هذا لا اريد ان يكون لي رأي في العصيان لئلا يضيع هذا الرأي بلادي ويفني ابناء قومي ، ومن اجل هذا لا احب ان يكون الملك بعيداً عن كسرى فكسرى وحده يحفظ له تاجه ولا تثبت هيبة الملك في بلاد العرب الا اذا اظهر كسرى رضاه ، من حين الى حين ، عن هذا الملك ، اي عنك يا مولاي .

واما اني افضل الفرس على العرب فهذه مواقفي تشهد بأن العربي المقيم في طرف البادية احب الي من المرزبان الفارسي الجالس عن يمين كسرى ، وبأن قلامة ظفر النعمان بن المنذر ، افضل في نظري ، من ذلك الرجل المتوج المتربع بعظمته وجلاله في عرش الاعجام .

ولكن لا اغمط نعمة كسرى يا مولاي ولا انسى احسانه ، فهو يبرني كما يبرني مليكي ، ويحسن الي احسانه الى اعوانه . واني سأذكر له ما بقيت ايثاره اياك على جميع اخوتك في ذلك اليوم ، وانت فتى لا تصلح للملك . .

وكان اهون على النعمان «كما تقدم في الجزء السابق» ان يطعنه

الرجل في صدره ولا يذكر امامه ذلك اليوم التاريخي يـــوم تتويجه في المدائن .

وهو بنفسه كان يذكره لاتباعه ، ويعترف بفضل كسرى وفضل عدي بن زيد ، لكنه لم يكن يطيق ان يذكر الرواية احد غيره ، فالمنة تهدم الصنيعة كما قيل .

فغضب غضبا شديدا وقال :

الشر الذي خفنا وقوعه في المدائن وقع الآن ، أيرافقنا جميلك وجميل مولاك الى الابد يا ابن زيد ؟ لقـــد ملكنا بفضل كسري ولولاك لكان الاسود ملكا وكنا رعية ، اجل ، لكن المحسن لا يحدث الناس باحسانه ولا يردد ذكر هذا الاحسان لئلا يضيع ، فلا تعد الى هذا القول بعـــد الان ؛ واعلم ان الملك سيبذل الجهد كله ليفي بما عليه ..

وكأنه ذكر في تلك اللحظة حاجته الى عدي .

فتكلف الابتسام وهو يقول :

احسنت يا صهرنا العزيز فنحن لا نقدر على كسرى وخـــير لنا ان نصبر على كل ما نري ونسمع ..

وما رأيك في قابوس ، أنأخذه معنا فيحضر مجلس كسرى ام نبقيه في الحيرة يعاون وزيرنا ابن يربوع في شؤون الملك ؟

فقال عدي وقد كاد يلمس غضب النعمان :

بقاؤه في الحيرة خير من السفر الان .

ـ وهذا ما نراه نحن فهو لم يحسن الفارسية بعد ولا يزال اصغر من ان يحضر مجالس الاعجام .

ثم نادى حاجبه قائلا :

ادع لنا اخانا حسان بن المنذر .

وكان حسان رابع اولاد المنذر ، مليح الوجه ،حسن الصورة، وهو كأخوته الامراء يملأ العجب برديه .

فلما اقبل على اخيه قال له النعمان :

ماذا فعلت بالمعيدي يا حسان ؟

فقال : لم افعل شيئاً يا مولاي فكتيبة الصنائع التي بعثناها في طلبه لم تقدر عليه .

ـ أمن الانس هو ام من الجن ؟

ـ انه من الانس يا مولاي ولكنه يفعل ما لا تفعله الجن ، يهاجم الجيش فيمرق بين صفوفه كما يمرق السهم من الرمية ، ثم يقتل العشرة والعشرين والسيوف اقصر من ان تناله بجرح .

ـ حسنا فلتطلبه دوسر ، فاذا عجزت عنه فابعث اليه قائداً من قوادك يحمل اليه امان الملك فما هو الا فارس عربي تصغر بالنظر اليه فرسان العراق وليكن ذلك قبل ان يمر شهر فنحن ذاهبون الى المدائن وما نحب ان نعود الا وامر المعيدي قد انقضى .. أسمعت يا حسان ، اذا عجزت دوسر فارسل اليه ليحضر آمناً فيكفيك ذلا يا ابن المنذر ويا قائد الجيش . اعطنا رقاً يا عصام واكتب يا عدي كتاب الامان لشقة ابن ضمرة فنحن نخشى ان نسافر وننساه .. فماذا يقول عنا كسرى اذا بلغه ان الجيش العربي يعجز عن رجل ؟ فانصرف الان يا حسان ، واذا رأيت انك أضعف من ان تقود الجيوش وتحفظ الامن في البلاد فاعتزل

القيادة فلنا غيرك عشرة اخوة نختار احدهم فنجعله قائداً

ثم حول نظره عنه كأنه يطرده من حضرته .

فخرج حسان وهو يتعثر بذيل ردائه الطويل . ولا يبصر طريقه من شدة الغضب .

فقال النعمان لجلسائه :

اسمعوا ايها الناس : ان الجيش العراقي الذي غزا سوريا اكثر من عشر مرات فدوخها وهزم جيوش الروم وهي في حصونها ومعاقلها ،ان هذا الجيش يطلب رجلا ثائراً فلا يقدر عليه .

فانبرى قابوس يقول لأبيه :

وبهذا الجيش يا مولاي تريد ان تصون العرش ؟

فقال : بل نريد بهذا الجيش ان نجاهر كسرى بالعصيان . لقد اصاب صهرنا في قوله ان كسرى وحده هو القادر على حفظ التاج العربي،فليس كثيراً ان نزوره مرة كل عشرة اعوام..قم ياعدي ولننصرف الى المدائن الان فأهل فارس افضل من اخوة الملك .. ولكن ماذا نحمل لكسرى من طرائف العراق ؟ أتكفينا عشرة احمال يا عدي ؟ ان مالنا كله لو بذلناه للفرس لكان قليلاً ، وليقل لنا ما يشاء فهو الذي ملكنا على العرب واذا غضب انتقل ملكنا الى رجل لا يقدر ان يصونه.

ثم أخذ يشيد بذكر كسرى ومآثره وفضل آبائه على البيت اللخمي ...

وعدي يبتسم وقد اطمأن الى هذا الانقلاب الفجائي .

حتى انقضت طائفة من الليل وهم يتحدثون .

فقال النعمان لعصام :

غداً نجلس للناس عند الصباح ، فاذا اجتمعوا في الرواق فادعهم الى الدخول الا الشعراء فلا نأذن لهم فعندنا من الهم ما يكفينا .

ونهض واقفاً وهو يقول :

اسهروا ما شئتم فنحن ذاهبون .

ثم خرج يريد غرفة نومه .

فمشى ابن شهبرة امامه ليفت له المسك حتى ينام . .

اما القوم فلم يسهروا بعد ذهابه ، بل انصرف كل منهم الى حجرته في ذلك الرواق الكبير .

لكن عدياً لم ينم ، فقد بات ليله يفكر في ذلك الغضب الذي قرأه على جبين مولاه ، وقام في ذهنه ، انه الصهر المغضوب عليه . .

* * *

١٣

النعمان في ايوان كسرى

وعند الصباح تزاحمت الوفود في الدخول على الملك .

هذا يقول :

ان الجابي في عشيرتنا يأخذ الخراج ضعفين .

والآخر يقول :

اعطنا ايها الملك فالارض عندنا ماحلة جدباء :

ويقول غيره :

ظلمنا العامل فهضم حقنا وسلبنا مالنا .

فيقول النعمان لقهرمانه :

اعط هذا الف درهم ، والآخر الفين واذهبوا انـــتم فقد نزلنا عن خراجكم في هذا العام ، أما عاملنا الظالم فسننظر في امره حتى اذا ثبت ما تقولون عزلناه ، ان الملك لا يحب الظالمين .. اكتب يا غلام :

« الى عاملنا في موضع كذا : بلغنا انك تهضم حق الرعية وتأخذ من مالها لنفسك . فالويل لك اذا كانوا صادقين »

وهكذا صرف النعمان وفوده وهو يحكم بالعدل .

ثم التفت الى رجال قصره وقال :

انا سائرون مع صهرنا الى المدائن نزور كسرى ، وما ندري انمكث

فيها ثلاثين او اربعين يوماً ، فهذا ردفنا ابن يربوع يقوم مقامنا في ادارة الملك حتى نرجع يعاونه ولي العهد قابوس ، واخونا حسان يبقى على الجيش وفي يده امر الامن في العراق ، وكل واحد منكم فليبق في عمله ولكن نخشى ان تتحاسدوا فيختل الامر وتخسروا ثقة الملك ، فاحذروا هذا ، واعلموا ان الملك يراكم في المدائن فلا يطوف احدكم بعينه حتى نعلم ذلك ونحن في ايوان كسرى ، من كانت له حاجة فليذكرها الآن ، ولا تنس المعيدي يا حسان فكتاب الامان يبقى في يد قابوس حتى تحتاج اليه فيعطيك اياه .

اما الحجابة فعصام بن شهبرة يذهب معنا ورجل من بني قيس يقوم مقامه ويختاره قابوس ، وقابوس يمثل اباه في العطايا فلا يطرد معوزاً ولا ينتهر سائلا ، واذا فرغ بيت المال فلا نسأله فله ان يجود بكل ما فيه ...

فقال الاسود بن يعفر :

متى تذهب يا مولاي ؟

قال : لا تسألونا عن يوم سفرنا فنحن لا نعلمه الان وقد نسافر في هذين اليومين .

ــ ومن يرافق الملك من رجال الخورنق ؟

ــ عصام بن شهبرة وحده وثمانية من عبيد القصر ليس غير ، انا ذاهبون في زيارة وليس الى صيد ولا نحب ان تكثر حولنا الرجال بباب كسرى لئلا يظن الفرس اننا مثلهم متنعمون مترفون .

ــ اذن فاجعلني احد العبيد يا مولاي .

ـ لا يذهب غير هؤلاء وإياس بن قبيصة اذا أراد .

فقال إياس : وماذا يفعل بن قبيصة في ايوان كسرى وهو في محفته؟ اني لا احب الاسفار يا مولاي .

ـ وكيف ذلك وانت رجل الحرب ولا تكاد تقيم يوماً واحداً في عين التمر .

فقال : اما الحرب فلا استطيع القعود عنها ، واما اني لا احب السفر فذلك لان رجل الحرب يكره ان يحمل في هودج كما تحمل النساء .

فقال الملك : يخيل الي يا ابن قبيصة انك خلقت في الميدان .

ـ اجل يا مولاي ، وانت احوج في سفرك الى رجال الرأي .

فضحك النعمان وقال :

كعدي بن مرينا واخينا الاسود ...

فقال الاسود : متى كان عدي بن زيد مع الملك ، فالملك لا يحتاج الى احد ...

ـ بل نحتاج اليك والى رفيقك ، أتعلم لماذا ؟

ـ لا يا مولاي ،

ـ لتسعيا بنا لدى كسرى فيخلعنا عن العرش ويوليك امر العرب ..

فهم ابن مرينا بالكلام فاسكته الملك بقوله :

لو فتحت الارض فاها وابتلعت النعمان الآن لكان ذلك احب شيء اليك ، اسكت فلسنا في موقف عتاب .. وأنت يا شقيقنا اذا كان

الخورنق اضيق من ان يسع اطماعك فاذهب الى ارضك على ضفة الفرات فهي أوسع من هذا القصر ، لعنك الله يا ابن مرينا ليس لك غرض الا ان تكيد عدي بن زياد .

فقال ابن مرينا في نفسه :

نعم ايها الملك سأكيده وهو في حضن كسرى .

لكنه لم يجسر على الجواب .

أما النعمان فلما القى قذيفته على عادته في مجالسه الخاصة ، غير حديثه فجأة وقال :

لو كانت لنا رغبة في استصحاب أحد لاخترنا حاجب بن زرارة . انك يا حاجب من اخلص الناس للنعمان .

فقال : ايشك الملك في اخلاصنا له ؟

قال لا فقد خبرناك غير مرة فكنت اصدق قومك ، فاذكر لنا حاجتك قبل ان ننصرف الى المدائن .

ــ اما حاجتي فلا اذكرها الان .

ــ لماذا ؟

ــ لأنها لا تذكر الا في خلوة .

فالتفت النعمان الى جلسائه وقال لهم :

اخرجوا جميعاً وليبق حاجب .

فقال اياس : أأخرج انا يا مولاي ؟

قال : ما كنا لنكتمك سرنا يا اياس ولكن هو سر بني دارم . .

ومد الملك اليه يده يساعده في النهوض حتى اقبل رجاله فحملوه ،

فقال : اجلس يا ابن زرارة وحدثنا .

وكان حاجب بن زرارة ، من سادات بني تميم واشرافهم بل هو سيد عشيرته بني دارم ، واميرها وفارسها الاكبر .

وبنو تميم ، من اعظم قبائل العرب نفوذاً ، واكثرها عدداً واصدقها في خدمة البيت العربي المالك في العراق .

والنعمان يحبهم ، ويبر اشرافهم ويعترف باخلاصهم .

وهكذا كان ابوه واجداده قبله ، يغدقــون النعم على هذا الحي ويفضلونه على معظم احياء العرب .

وتميم تنقسم الى بطنين كبيرين ، يربوع ودارم ، ينفــرد كل منهما بشؤونه الخاصة ، ولا يجتمعان الا بالعادات والاخلاق .

اما بنو يربوع ، فكانوا كما عرفت ، اردافاً لملوك الحيرة « مــن ايام الاسود بن المنذر بن النعمان الاول سنــة ٤٧٣ ، حتى ايام النعمان الثالث » .

غير ان بني دارم ، اجداد حاجب بن زرارة ، كانوا قبلهم على الردافة ، فانتقلت منهم الى بني يربوع ، في واقعة ابلى فيهــا هؤلاء البلاء الحسن .

وكان حاجب جباراً كثير الطمع وصاحب رأي ، وهو يعمل منذ توج النعمان ، على استرجاع الردافةفلا يجد الى ذلك سبيلا .

مع انه نشأ رفيقا للنعمان في صيده ، وعشيراً له في ايام صباه .

فقال للملك : سأذكر لك حاجتي الآن لا اخفي شيئاً

قال : ونحن نعطيك ما تسألنا اذا قدرنا.

فقال : ألم يكن اجدادي اردافاً لاجدادك يا مولاي ؟

ـ بلى

ـ وهل اخطأ بنو دارم فعزلوا عن الردافة ؟

ـ لا نعلم شيئاً من هذا.

فقال : الا ترى يا مولاي ان ترد الردافة الينا وقد مضى اكثر من جيل على بني يربوع وهم ارداف ؟

ففكر النعمان قليلا ثم قال :

نردها على شرط .

ـ ما هو ؟

ـ ان تكفونا يا بني دارم شر بني يربوع .

وكان النعمان يعلم ان بني يربوع اشد واكثر قوة من بني دارم .

فقال حاجب : اتردها الينا في حرب ايها الملك ؟

قال : لا ، ولكن نسأل اليربوعي ان يتخلى عن وزارته فيأبى ، فنلح عليه فيزداد اباء ويمتنع بقومه ، فلا يبقى امامنا الا السيف وهـذا ما لا نريده ارأيت الآن انه لا بد من الحرب ؟

فقال : اتظن ان وزيرك شهاب بن قيس اليربوعي يجرؤ على الرفض اذا سألته ذلك ؟

ـ بل يفعل اكثر من هذا في سبيل الردافة ؛ اتراانا نتخلى عن العرش لواحد من اخوتنا حتى يتخلى شهاب عن ردافته لبني عمه ؟ ان الردافة كالعرش والردف كالملك ، اذا هان على الملك ان يترك تاجه هان على الردف ان يترك كرسيه ومع ذلك سننظر في امرك بعد رجوعنـا من

المدائن ، اما الآن فلا نقدر على ذالك ، اتريد شيئاً غير هذا ؟
ـ ان يوفقك الله في سفرك يا مولاي .
وقبل ان يخرج حاجب من القاعة ، قال عصام بن شهبرة للملك :
أتأذن لعدي في الدخول يا مولاي ؟
ـ اعدي بن زيد ؟
ـ بل عدي بن مرينا .
فقال : ماذا يطلب هذااللعين وقد كان في المجلس الان ؟ ليدخل .
فلما دخل فاجأه النعمان بقوله :
أتترك أخانا الاسود لتقابلنا يا عدي ؟
قال : او ليس الاسود على طاعتك يا مولاي ؟
قال بلى ولكن او قـــدر لشهر في وجهنا السيف ! فا هي حاجتك الآن ؟
فقال : رأيت غلمان الملك يعدون الهدايا لكسرى ؟
ـ وبعد ذلك ؟
ـ فاعددت لمولاي هدية يحملها الى المدائن ان شاء
فابتسم النعمان وقال :
أتليق بكسرى ؟
ـ بل تليق بالنعمان .
ـ ما هي ؟
ـ فرسي « السرحانة » ومهرها .
فنهض النعمان عن كرسيه وقال :

ويلك يا ابن مرينا اتجود بالسرحانة على ملك الفرس وتبخل بها على مولاك ؟

فقال : انها اولاً لمولاي النعمان بن المنذر اذا شاء ابقاها في الحيرة وان شاء أخذها .

ـ ومن قال لك ان ملك العرب يبعث بكرائم خيله الى بلاد الفرس ؟ ان السرحانة وفلوها يبقيان لنا وقد امرنا لك بخمسة آلاف درهم وخمسين ناقة من النجائب ، اتريد يا عدي ان تكون اكثر جواداً من النعمان ؟

فانطرح ذلك الداهية على قدمي الملك وقال :

ما كنت لارد عطيتك يا مولاي ، ولكن .. اتبتاع مني السرحانة بمالك وهي هديتي اليك ؟.. اني ارفض العصافير والمال يا مولاي .

ـ واذا امرتك بالقبول ؟

ـ وزعت النوق والمال على فقراء الحيرة وخرجت منها لا علي ولا لي .

ـ أفاعل انت يا ابن مرينا ؟

ـ اجل وأقسم برأس الملك ، وسترى يا مولاي ان ابن مرينا لا يبخل بدمه يبذله في سبيلك. اما الماضي ، اني كلما ذكرت ذلك الماضي الملعون يضيق صدري وتظلم الدنيا في عيني ، غير اني لم اخن بيت الملك ولم انكث عهده ، فقد اردت كما اراد عدي بن زيد ان اجعل الملك . . .

فقاطعه النعمان قائلا :

لا تعد الى ذكر الملك فهذا قد انقضى امره ، أما هديتك فقد قبلناها وما اعطيناك شيئاً ، فان كانت لك حاجة اخرى فاذ كرها .

فقال : بقيت لي حاجة هي اثمن الحاجات .

فالتفت النعمان الى حاجب بن زرارة وقال :

لقد كثرت حاجات صاحبنا ابن مرينا .

اذكرها لنا .

قال : ان يثق الملك باخلاص عبده .

فقال : اهذه هي حاجتك ؟

ــ نعم ولا اسألك غيرها فلا تبخل بها يا مولاي .

فحدق اليه النعمان وهو يقول :

وكيف نثق باخلاصك وانت اول عربي انكر علينا الحق بالتاج ؟ انظن يا ابن مرينا انا ننساكوقد كنت في المدائن حاملا علم اخينا الاسود لا تبصر احداً غيره من ابناء المنذر كأننا لسنا في الوجود ؟ ! فلما ملكنا لبست ثوب الصاحب متظاهراً بالاخلاص لناوليس لك غاية الاالقضاء على عدي بن زيد الذي كان على دعوتنا ، فوالله لئن عرفنا انك تسعى بعدي مع الاسود لصلبناك على باب الحيرة وتركنا جثتك شهراً تحوم عليها الطير . اشهد يا ابن زرارة واحفظ قولنا هذا . فاذا مر الزمان ولمسنا اخلاصك وثقنا بك والا فلا خير فيك ، قم فاخرج الآن .

فأخذ ابن مرينا يبكي ويقول :

اشهد علي الله اني لا اخون الملك ولا اسعى بعدي بن زيد ، وهذا ابن زرارة يضمنني يا مولاي .

فقال الملك . اتضمنه ياحاجب ؟

قال : نعم فدموعه تنطق باخلاصه .

فقال : انهض اذن فقد وثقنا بك .

ولما خرج من قاعة الجلوس ، كان يحدث نفسه قائلا :

ان هذاالوثوق الذيبكيت لاجله سيكلفك ايها الملك حياة صاحبك وصهرك ابن مجروف .

اما النعمان فقال لرفيقه :

لولا خوفي مـن ان اغضب اخوتي لقتلت هذا الرجل فهـو مـن اخبث الرجال .

* * *

ما أبعد المدائن يا عدي !..

فقال : لا تبعد كثيراً يا مولايولكنك لم تتعود ركوب النوق .

ــ ومتى نمسي في تلك المدينة ؟

ــ بعد يومين ، ونصل اليها في اول الليل .

ــ حسناً فلنتحدث ، الا تعلم ماذا سألنا حاجب بن زرارة ؟

ــ لا يا مولاي .

ــ سألنا الردافة لبني دارم وقد كانت لهم من قبل .

ثم ضحك وقال : وحاجب هو سيد العشيرة وفارسها فكأنه يسألنا ان نجعله ردفنا ، فما رأيك ؟

ـ وماذا قال له الملك ؟

ـ وعدناه بالنظر في الامر بعد رجوعنا من المدائن ، ولكن على شرط ان يكفينا شر بني يربوع .

فقال عدي : بنو دارم أعجز من ان يكفوك شر اردافك يا مولاي.

ـ اتظن ذلك يا عدي ؟

ـ بل انا واثق يا مولاي فبنو يربوع اكثر عدداً من بني دارم واشد احتمالا .

فقال : قد يكون ذلك ولكن طال امر وزارتهم فمللنا صحبتهم .

فقال عدي في نفسه :

سبحان الله لا يكاد ابن المنذر يحب حتى يمل .

ثم قال : انجيب طلب الرجل يا مولاي ؟

قال : هذا ما نراه الآن وسنستشير كسرى .

فأخذ عدي يفكر في امره ، وهو لا يعلم متى يجيء دوره فيصيبه من ضجر الملك ومله ما اصاب بني يربوع .

حتى وصل المركب الى المدائن ، في ساعة كان اهل المدائن فيها مستغرقين في النوم .

فنزلوا على احد المرازبة ، في قصر كبير يغص بالغلمان والجواري ، والمرزبان لا يعلم ان ذلك الرجل الابرش الاحمر القصير هو النعمان بن المنذر ملك العرب .

ذلك لان الملك اراد ان يتحجب فلم يذكر عدي اسمه لصاحبه المرزبان .

فلما أصبحوا ، عرف اهل المـداثن ان ملك العرب كان ضيفهم في ذللك الليل .

فاستأذن عدي مليكه ، وغادر قصر المرزبان الى قصر كسرى الذي هو اعظم قصور الاعجام .

وكانت الوفود على كسرى ، تملأ بيوت الضيافة والانزال ، فيهـــا الملوك والامراء والاشراف والكهان ؛ والجميع ينتظرون ان يجلس كسرى للناس ويأذن لهم في الدخول .

وكسرى لا يزال في حجراته بين حاشيته وجواريه .

فلما مثل عدي بين يديه ، خر على وجهه ساجداً كما يسجد امـــام مسيحه، ووجهه يكاديلامس الارض .

فابتسم كسرى لكاتبه العربي ، وامره بالنهوض وهو يقول :

لقد حمل الينا رسولك خبر زواجك ، فأمرنا لك بقصر بين قصور المرازبة وبما يتبعه من خدم ومال وضيعة ، وامرنا لزوجتك بعقد مـــن المرجان واساور من ذهب واقراط من لؤلؤ هي جميعها من حلى نسائنا وقد قيل لنا يا عدي ان هنداً اصغر من زرامشت «ابنة كسرى الصغرى» اصحيح هـــذا ؟

ــ فقال : انها في الثالثة عشرة يا مولاي .

ــ في الثالثة عشرة ! اذن هي في زهرة العمر ، كيف حـــال العرب وملكهـــا ؟

ــ ليس من جديد في العراق يا مولاي ، أما النعمان فهو في المدائن.

فضحك الملك ضحكة الهازيء وقال :

لقد زارنا اخير آملك العرب فأحسنوا نزوله . . .متى قدم ؟

ــ في الليل الماضي يا مولاي .

ــ ومعه هند ؟

ــ لا ، فهند في الحيرة يا مولاي ما اردت ان ازعجها بالسفر .

ــ احسنت . .والنعمان لا يريد بنته مع نساء الفرس .

ان مولاك يظهر من العز ما لا نقدر نحن على اظهار مثله . . . سنقابله اليوم مع جميع الملوك بعد الظهر ونختبر علمه وعزه . .

ثم التفت إلى حاشيته وقال :

انزلوا ملك العرب بقصر الحيرة .

وذلك القصر لا يقيم فيه غير ملوك العرب، عندما يزورون المدائن .

فكره عدي ، ان يكون النعمان ، في مقابلة كسرى ، بين وفود الاقطار ، وهو الملك الجبار لا تكثر عليه مقابلة خاصة يأذن فيها الشاه الفارسي .

فقال : ألا يحب مولاي ملك الملوك ان يدخل عليه النعمان قبل ذلك ؟

قال : وهل النعمان بن المنذر افضل من ببابنا من الملوك ؟ انه يدخل ساعة يدخلون ويخرج عند خروجهم ، ثم ننظر بعد ذلك في الامر .

فلم يراجعه عدي لئلا يغضب وانصرف مع بعض الرجال يعدون قصر الحيرة للنعمان .

* * *

أرأيت كسرى يا عدي ؟

ـ نعم يا مولاي وسيقابل وفوده بعد الظهر ثم يأذن لك في مقابلة خاصة .

فقطب النعمان حاجبيه وقال :

لقد بدأ مولاك يذل العرب ، فوالله لا دخلت عليه الا ساعة اشاء، هيا بنا الى قصر الحيرة .

فانتقلوا اليه ، ونقلت هدايا النعمان الى بيت المال وكانت من افخر الهدايا واثمنهـــا .

فاعجب بها الشاه ، ولكن كانت في نظره اقل مما يجب عـــلى آل لخم .

امـــا ابواب الايوان العظيم ، فلم تفتح الا عند العصر فغص بالداخلين .

وكل مقاعد الايوان من العاج ، وعلى كل مقعد وسادة من الحرير، وعرش كسرى في الصدر يشع في ذهبه وجواهره كما تشع الشمس .

لم تملك ملوك ذلك الزمان ، بل لا تملك الملوك في هـــذا الجيل ، قاعة كذلك الايوان الذي كان لملك الفرس .

فلا تقع عينك في جدره وسقفه ومقاعده الا على اللآلىء ، من جميع الحجوم والالوان ، حتى ليخيل اليك انك في سماء يتدفق منها النور .

ولكن ، عندمـــا يلبس كسرى تاجه ، ويجلس على عرشه تكسف جواهر التاج ما في ذلك الايوان من لآلىء كما تكسف الشمس النجوم .

وبعد ساعة اقبل كسرى ، يحف حوله رجاله ومرازبته واولاده ،

فلم يبق في الايوان احد في مقعده ، جميع الملوك والامراء والكهان خروا ساجدين .. لا ينهض احدهم الا اذا تربع الملك في عرشه ومد يده آمراً بالجلوس .

من الهند والصين ، والروم واليمن ، ومن جميع الاقطار .

فأخذ كسرى يجيل نظره بالقوم فلم يجد ملك العرب .

فقال لوزيره : الملك العربي لا يدخل علينا الا وحده .

قال : انه ارفع من ان يزاحمه احد في الدخول .

وكان عدي بن زيد ، قد قابل وزير كسرى وحدثه بامر النعمان .

فاراد الوزير ان يخـــدم عدياً ، بان يحسن استقبال مليكه ، اي ان يمهد امامه سبل التكريم .

لكن كسرى كان يقول في نفسه : النعمان يرفع نفسه ونحن نحطهـــا وسنرى من يفوز .

ثم جعل يسأل وفوده ، هـــذا من غلة ارضـــه ، والآخر عن عدد جنده وذلك عن دين قومه ، وهو ينظر الى الباب منتظراً وصول النعمان حتى اقبل .

فصاح احد الحجاب بأعلى صوته :

النعمان بن المنذر ملك الحيرة .

فحنى كسرى رأسه ...

وتلك كانت علامة الاذن في الدخول .

فدخل النعمان ووراءه عدي بن زيد .

اما شهبرة فوقف بين الحجاب .

فما زال النعمان ماشياً لا يلتفت الى من حوله في جانبي الايوان حتى قارب العرش ، فوضع يديه على ركبتيه وانحنى حتى وازى رأسه قدمي كسرى وهو على عرشه .

ولكنه لم يجث على ركبتيه كما يفعل غيره من الملوك والامراء .

ثم رفع رأسه قائلا :

أبيت اللعن ايها الملك .

اما كسرى فكان كالصنم لم يتحرك ولم تنفرج شفتاه .

ثم اقبل عدي بعده فسجد وقام .

فأومأ كسرى الى وزيره وقال له بالفارسية :

اختر لهذا العربي مكاناً .

فدعاه المرزبان الى الجلوس عن يمينه ، في موضع لا يجلس فيه الا المرازبة وابناؤهم من الفرس .

وتوسط الترجمان القوم ، فأخذت رؤساء الوفود تذكر شعوبها وبلادها حتى جاء دور النعمان .

« فافتخر بقومه وفضلهم على جميع الامم لا يستثني فارس ولا غيرها » وقد اضمر الشر .

« فقال كسرى وقد أخذته عزة الملك : »

« يا نعمان ! لقد فكرت في امر العرب وغيرهم من الامم ، ونظرت في حال من يقدم علي من الوفود ، فوجدت للروم حظاً في اجتماع ألفتها وعظم سلطانها وكثرة مدنها ، ورأيت لها ديناً يبين حلالها وحرامها ويرد سفيهها ويقيم جاهلها ، ورأيت الهند كذلك في حكمتها وطبها

وكثرة انهارها ، وكذلك الصين في اجتماعها وصناعاتهــا وهمتها في آلة الحرب ، وان لها ملكاً يجمعها ، والترك والخزر على مــا بهم من سوء الحال في المعاش لهم ملوك تضم قواصيهم وتدبر امــرهم ، ولكن لم ار للعرب شيئاً من خصال الخير في امر دين ولا دنيا ولا حزم ولا قوة ، يعيشون مع الوحوش النافرة والطير الحائرة ، ويقتلون اولادهم مــن الفاقة ويأكل بعضهم البعض الآخر من الحاجة » .

وكان الترجمان ينقل قوله للنعمان بالعربية والنعمان يسود وجهه ويغلي صدره ، وهو ينظر الى عدي كأنه يذكره قوله .

وكسرى لا يقف عند حد فهو يريــد ان يذل النعمان امــام القوم فاستطرد قائلا :

« يا نعمان ! الم تخرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ولهوها ولذتها ؟ اليس افضل طعام عندكم لحوم النوق التي يعافها كثير من السباع لثقلها وسوء طعمها ؟ » .

فهم النعمان بالجواب .

فاسكته كسرى بقوله :

« ان قرى احدكم ضيفاً عدها مكرمة، وان اطعم اكلة عدها غنيمة، تنطق بذلك اشعاركم وتفتخر رجالكم .

ثم لا اراكم ترضون ؛ على ما بكم من ذلة وفقــر ، الا ان تفتخروا وتريدوا ان تنزلوا فوق مراتب الناس .

فرأى النعمان ان يخص الفرس بكلمةثناء ، وكأنه ذكر في ذلك الحين قول عدي له ان السياسة تقضي بالصبر فقال :

« اصلح الله الملك ، حق لامة انت منها ان يسمو فضلها ، الا ان عندي جواباً في كل ما نطق به الملك في غير رد عليه ولا تكذيب ، فان امنني من غضبه نطقت به » .

فضحك كسرى وقال : قل فانت آمن .

فسر عدي بن زيد لهذا الامان .

قال النعمان : « اما امة الفرس ايها الملك فليست تنازع في الفضل لما اكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك ، وأما الامم التي ذكرت فالعرب تفضلها جميعاً »

قال : بماذا ؟

« قال : بكل شيء ، بعزها ومنعتها ، وجودها وبأسها ، واحسابها وحكمتها ، وأنفتها ووفائها .

فضحك كسرى وقال :

اذكر لنا شيئاً عن هذا العز .

« قال : اما عزها فانها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوخوا البلاد ووطدوا الملك وقادوا الجند ، ولم يطمع في العرب طامع ولم ينلهم نائل ، حصونهم ظهور خيلهم والسيوف جنتهم ، الارض مهادهم والسماء سقوفهم ، واذا ندبوا لقتال كان عدتهم الصبر »

فأعجب كسرى بفصاحة ذلك اللسان وطلاقته ، فقال :

وبأي شيء يعتز غيركم يا نعمان ؟

« قال : بالحجارة والطين والقصور وجزائر البحور ..

قال : وماذا تحدثنا عن جود قومك واحسابهم ؟

فقال : أما الجود ، فان ادنى العرب رجلاً لا تكون عنده الا الناقة الواحدة فيطرقه الطارق فيذبحها له ويرضى ان يخرج عن دنياه كلها فيما يكسبه حسن الاحدوثة وطيب الذكر .

« وأما الحسب ايها الملك ، فليست امة من الامم الا وقد جهلت آباءها واصولها وكثيراً من اولها وآخرها حتى ان احدهم يسأل عمن وراء ابيه فلا ينسبه ولا يعرفه ، في حين ان العربي يسمي آباءه أباً فأباً ، احاطوا بذلك احسابهم ، وحفظوا به انسابهم ، فلا يدخل رجل في غير قومه ولا ينتسب الى غير ابيه ، ايوجد في هذه الوفود من يذكر هذا القول ايها الملك ؟

فلم يستطع كسرى ان يحجه ، فقال للترجمان :

قل له ان يتم حديثه .

« فقال : واذا ذكر الوفاء ايها الملك فان العربي ليبلغه ان رجلاً استجار به وهو غريب عنه فلا يرضى ان يجيره ولو فنيت قبيلته ، وان المجرم ليلجأ اليهم من غير معرفة ولا قرابة فتكون انفسهم دون نفسه واموالهم دون ماله .

وأما قولك ايها الملك « يقتلون اولادهم » فانما يفعله بعض جهلتهم بالاناث انفة من العار ، واذا كانت لحوم الابل افضل طعامهم فانهم تركوا ما دونها احتقاراً له ؛ وعمدوا الى اجلها وافضلها فجعلوها مراكبهم وطعامهم وهي اكثر البهائم شحوماً واطيبها لحوماً .

ـ وبماذا تجيب عن تحاربهم الدائم وتركهم الانقياد لملك يسوسهم ويجمع كلمتهم ؟

« قال : ان الامة التي لا تتحارب فقد آنست من نفسها ضعفاً وتخوفت نهوض عدوها ، وفي كل دولة ايها الملك ، اهل بيت واحد يعرف فضلهم ، فتلقي اليهم الامة امورها وتنقاد اليهم وتعترف بهم ملوكاً، اما العرب فمعظمهم اهل شرف حتى لقد حاولوا ان يكونوا ملوكاً اجمعين ، وهم يأنفون من اداء الخراج والعشر والصبر على الظلم ... »

وفي تلك الساعة ، كان النعمان يفكر في امر خطير جداً ، هو ان يقطع الفرس عن حقهم ببعض خراج العراق فلا يبعث اليهم خراجاً بعد .

فقال كسرى : لكن ليس للعرب دين يا نعمان ، فانك لتجد فيهم النصراني واليهودي وغيرهما لا تجمعهم شريعة واحدة ومذهب واحد .

« قال : اجل ، ان في العرب اديان ايها الملك ، وهذا معناه ان دنا اكل عربي حريته في امر دينه فالدين لله وليس للملك ، ولكن بمجموع الامة مذهب واحد يتمسك به حتى يبلغ احدهم من نسكه بدينه ان لهم اشهراً حرماً وبلداً محرماً وبيتاً محجوجاً ، ينسكون فيه مناسكهم ويذبحون فيه ذبائحهم ، فيلقى الرجل قاتل ابيه او اخيه وهو قادر على اخذ ثأره فيمنعه دينه من ذلك » .

فكاد كسري ينهض عن عرشه لما سمع ، فقال :

حسبك يا نعمان ، انك لاهل لموضعك من الرئاسة في اهل الحيرة بل لما هو افضل .

ثم قال لقهرمانه : اعط الملك العربي كسوة من كسوتنا ،

وقلده عقداً من اللؤلؤ يساوي الف الف درهم ، وسرحه الى الحيرة كما تسرح عظماء الملوك ، اذكر لنا حاجات قومك ايها الملك الفتى .

قال : ليس لي الآن حاجة ايها الملك ، ولكن ابعث اليك باشراف العرب وسادتها فيذكر لك كل واحد منهم حاجات قومه .

فقال : مرحباً بسفرائك اذا كانوا مثلك .

ونظر الى عدي فقال له بالفارسية والنعمان لا يفهمها :

اتعلم يا عدي انك وضعت التاج في موضعه ؟ ان هـــذا الشاب من افضل الملوك .

فقال عدي : لو لم يره الملك اهلا لعرش العراق لما امر له بالتاج .

فقال عدي : الا يجوز لي ان اعرف ماذا قال الملك لعدي ؟

فأدى الترجمان كلامه الى كسرى ، فقال :

بلى ؛ قلنا لعدي انه اصاب في اختياره اياك للملك .

فابتسم النعمان تلك الابتسامة التي يكمن خلفها غضبه وجنونه ، وقال في نفسه :

لقد اصبحنا في زمن لا نعرف فيه اي ملك بل اي رجل البسنا تاج والدنا واجدادنا . . .

وامسك على ما في صدره من الغيظ ولم يجب .

فقال كسرى : لم نسمع لقولنا جواباً يا نعمان .

قال : لان ليس له جواب ايها الملك .

فعرف عدي ان قول كسرى قد ساءه فقال له بالعربية :

ان الملك يؤثرك على سواك .

فقال : ونحن نشكر له هذا الايثار ...

فلم يسأل كسرى ترجمانه عن هذا القول ، بل حول وجهه واخــذ يحدث وفوده حتى غربت الشمس .

فنهض كسرى ونهض وزراؤه ومرازبته ودخلوا الى القصر .

فقال القهرمان للنعمان :

ان شئت فاتبعني الى بيت المال لاكسوك من كسوة الملك .

فضحك النعمان ضحك الاستخفاف وقال لعدي :

قل لهذا الرجل ان يحمل كسوة مولاه الى قصر الحيرة فنحن ما جئنا لنسأل هؤلاء الاعجام كسوة واحساناً .

ثم انثنى فمشى امام الوفود وعظمة الملوك تنشر حوله ظلا ...

* * *

١٤

الرجوع الى الحيرة

لم يرد النعمان ان يمكث في المدائن غير خمسة ايام قابل كسرى في اثنائها مرة واحدة هي التي ذكرت فيما تقدم .

فلما هم بالعود الى الحيرة ، قال لعدي :

ألم نقل لك ان كسرى ينتقص العرب ويستخف بهم ؟

قال : ولكن لم يعط احداً من رجال الوفود مثل ما اعطاك ، وهذا دليل على اعجابه بك واحترامه اياك .

فقال الملك : احسنت يا عدي فكلما رأيت في مولاك الفارسي عيباً فاستره ... وانك لتحاول ان تجعل ازدراءه احتراماً واستخفافه اعجاباً، مثلك فليكن المخلصون ... اترانا قدمنا من العراق لنستعطي حتى تقول اعطاك ؟ ! الا تعلم ويعلم مولاك اننا نبذل للغريب من مالنا ما لا يبذله كسرى لوفوده ، واننا اكسى منه نلبس خيولنا مثل ما البسنا من كسوته ؟؟

فتحير عدي في امر هذا الملك الغريب الطباع ، فقال :

ما قلت هذا لتغضب يا مولاي ، ولكن اردت ان اقول ان الملوك لا يعطون الا اذا كانوا راضين، اتعطي انت احداً من قومك ان لم تكن راضياً ؟

فقال : كان عليك ان تعلم ان الملك قد يعطي وهو غاضب ...

فقال عدي في نفسه :

كما اعطيتني جام جدك ابن ماء السماء وكما زوجتني هنداً .. فويل لاولئك الرجال المقربين اليك .. انهم لا يعلمون متى تأتي ساعتهم .

ثم استطرد النعمان قائلاً :

ومع ذلك فاذا قلدنا مولاك عقداً من اللؤلؤ فذلك من مال العراق .

وغير حديثه كما يفعل في كل مرة ، قال :

لقد رأينا ان نمنع كسرى خراج العراق ، فماذا تقول يا عدي ؟

ـ أي انك ستعمد الى العصيان يا مولاي ؟

ـ لا ، بل نبعث الى المدائن بسادات العرب واشرافها يذكرون لكسرى حاجات قومهم ... هكذا وعدنا وهو راض ، أفلا ترضى انت ؟

ـ ولكن لم تذكر له امر الخراج .

ـ لقد تركنا لرؤساء العشائر الحق في ذلك ، هم يسألونه ان ينزل عنه فاذا اجاب فنحن معه كما كنا وكما كان آباؤنا ، والا منعناه اياه فلا يأخذه الا بعد ان تفنى العرب .

فقال عدي : اذا كان هذا فانا اساعد وجوه العرب في نيل ما يسألون ، اما اذا كان هنالك عصيان فالعرب لا قبل لها بكسرى ولا تطيق حربه ، وانا لا اسلم بشيء يكون فيه ذهاب ملكك ؛ أتسألني يا مولاي ان اضمن لك رضى كسرى ثم تعمل على الوقوف في وجهه ؟

قال : وهل نرضى بالذل الى الابد ؟ ان بلادنا لنا فلا نحب ان يعبث بحقنا هذا الفارسي .

فتنهد عدي وقال : اجمع كلمة العرب أولاً كما قلت لك فيهون الباقي .

قال : لو كان ذلك هيناً لفعله أجدادنا قبلنا ، ومع ذلك فسنرى ..

احذر بني أسد يا عدي واحذر اخوتنا .

فقال : لا تخف يا مولاي انهم لا يصلون الى كسرى الا اذا داسوا جثتي اما أنت فاحذر بني يربوع .

ـ وهل يخونون ؟

ـ لا يا مولاي ولكن لا تعزلهم عن الردافة فهم أنصار العرش وهم اقوياء .

فهز النعمان رأسه ولم يجب .

ثم قال عدي : ولا تذهب يا مولاي قبل ان ترى كسرى .

قال : كيف نراه ونحن ذاهبون الآن ، انه لا يفتح ايوانه الا عند العصر ؟

ـ ولكن تقابله في قصره يا مولاي .

ـ متى ؟

ـ في هذه الساعة .

فمشى الاثنان ؛ وكان اهون على النعمان أن يشيلوا جثته على رؤوس الحراب ، من ان ينحني امام كسرى حتى يلامس رأسه قدميه .

فاستقبلهما كسرى باسماً ، واظهر رضاه عن العرب ، ثم اوصى النعمان ، بالوضائع ؛ تلك الكتيبة النازلة بالحيرة من رجال الفرس .

وقبل ان ينصرف الملك العربي ، اعطاه عدي اساور الذهب والجواهر

التي جاد بها عليه كسرى ، ليحملها الى زوجته هند ...

***

واخذت النوق تطوي القرى والفلوات ؛ والنعمان يفكر في امرين اثنين ، في حصة الفرس من خراج العراق ، وفي ردافة بني يربوع ، وفي نفسه ما فيها مما سمع من كسرى :
حتى وصل الى الحيرة ، فاستقبله رجاله وهم يرون مظاهر التفكير بادية على وجهه .

فلما اقبل اخوه حسان ليلثم يده قال :

ماذا فعلت بالمعيدي يا حسان ؟

فقال : ارسلنا اليه كتاب الامان وهو اليوم في الحيرة .

فانفرجت شفتا الملك كأنه يبتسم وقال :

شقة بن ضمرة بمائة رجل يمتنع عن الجيش ، انه اذاً لبطل ، اين هو ؟

فقال قابوس : في خيمة على ضفة الفرات يقيم فيها منذ قدم الحيرة .

فقال : نراه غداً اذا اذن حسان لانه اسيره .

ثم سار الموكب الى الخورنق وهو يقول لوزيره :

اذا سألناك امراً يا شهاب اتجيبنا اليه ؟

فقال شهاب وهو شيخ في الستين :

لقد ابيض رأسي ولحيتي وانا على طاعة آبائك وطاعتك يا مولاي ، اتسألني وانا عبدك ؟

فقال : يهمنا ان نرى فعلا ولا نسمع قولا . .

ثم اومأ الى حاجب بن زرارة .

فلما داناه قال له :

انك من سادات العرب يا حاجب وسنندبك الى امر فيـــه صلاح قومك .

فقال : ما يراه الملك فهو صلاح للعرب .

وكان النعمان يسأل عن زرجون بن نوفل الشامي لانه لم يره بين الرجال.

فقال له الربيع : ان عند زرجون ضيفاً من الشام يلازمه ولا يتركه .

قال : ايمنعه ضيفه من استقبال النعمان ؟ نأمره بان يحضر .

فبعث الربيع غلاماً من غلمان الخورنق يدعوه الى مقابـــلة الملك ولكن زرجون لم يحضر ، وقد ابلغ اليه الغلام امر الملك .

فقال النعمان لمن حوله : ان صاحبنا الشامي عمد في غيابنا الى اسلوب جديد من اساليب الدلال . . لا بأس فدعوه مع ضيفه .

حتى جلس الملك وجلست الرجال .

فقال لاخيه حسان :

يا قائد الجيس ، اذا كان الملك بحاجة الى بعض سادات العرب وهم في ديار قومهم ، اتبعث اليهم بان يقدموا علينا ؟

فقام في اذهان الرجال ان هنالك مجلس مشورة او دعوة الى حرب.

فقال حسان : سمهم يا مولاي .

قال : اكثم بن صيفي وحاجب بن زرارة من بني تميم .
فقال حاجب : اني هنا يا مولاي .
ـ والحارث بن ظالم وقيس بن مسعود من بني بكر ، اني لا اراهما بين القوم .
فتلفت حسان وقال : لا .
فقال قابوس : ما رأيناه هذا العام .
ـ والحارث بن ظالم الآخر اي المري .
فقال شهاب اليربوعي : كان في اليمن ولا اعلم اذا كان قد عاد.
ـ لقد رجع . فادعهم يا حسان ويترك كل منهم عمله دون ان تقبل لاحدهم عذراً ، ابعث في طلبهم اليوم ، بل الآن ، وليعجلوا ؛ ولكن اعلم ان هؤلاء ليسوا بحاجة الى كتاب امان ..
اما الآن فليحضر المعيدي فلا نصبر الى غد لنراه ، ان اقدامه علينا شوقنا الى رؤيته .
وبعد ساعــة اقبل الرجل ، وهو قصير القامة دميم الخلقــة مشوه الوجه .
فلما رآه النعمان استزرى منظره فقال :
« تسمع بالمعيدي خير من أن تراه »
« فذهبت مثلا »
فقال شقة : « إن الرجال ليست بجزر وانما يعيش المرء باصغريــه قلبه ولسانه .
فاعجب النعمان كلامه فقال :

ألم ترض الا ان تغير على مالنا يا ابن ضمرة ؟

فقال : أتؤمنني يا مولاي ثم تسألني ؟ ان الملوك لا يشوهون امانهم بالسؤال .

فنظر النعمان الى رجاله وقال :

اجسن الرجل فالوجه القبيح لا يدل على الباطن ؛ اتعلم يا ابن ضمرة ماذا اعددنا لك ؟

قال : نعم يا مولاي واني لنبي ...

قال : تنبأ إذن .

فقال : اعددت لي يا مولاي بيتاً اقيم فيه على ضفة الفرات مما يلي الخورنق.

فضحك النعمان وقال : احسنت . وبعد ذلك؟

قال . وطائفة من الغنم والنوق اغتذي بألبانها وانتفع بجلودها وصوفها.

فازداد النعمان ضحكاً وقال :

لك منا كل ذلك . اترغب في شيء بعد ؟

قال: نعم، فالفارس مثل ابن ضمرة يعوزه فرس شهباء نجيبة من افراس النعمان .

قال : لقد طمعت كثيراً يا معيدي حتى لتحاول الا تبقي لغيرك شيئاً .

فقال : ان هذا يتبع كتاب الامان يا مولاي ، وهنالك شيء آخر تمليه علي روح النبوة .

ـ ما هو ؟

ـ هو ان تجعلني من خواصك الى ان اموت .

ـ وان لم نعطك ما طلبت ؟

فقال : كنت ملكاً بخيلا وكنت نبياً كاذباً .

فسر النعمان كثيراً بحديث الرجل الفوضوي الثائر وقال له والابتسامة على ثغره :

اما انك نبي كاذب فنعم ، واما أننا نبخل على من يستحق الاحسان من رجالنا ، فلا . اسمع يا ابن ضمرة ! لقد اعطيناك كل ما ذكرت ، وأمرنا لك بعشرة الآف درهم تستعين بها على غربتك ، ونأمر قهرمان الخورنق الآن بأن ينفق عليك من مالنا ما بقيت حياً .

فرفع المعيدي يديه نحو السماء وقال :

قدس الله ذلك التراب الذي وضع على جثة المنذر ؛ انكم يا آل لخم كواكب الغرب وسادات الجزيرة ومثلكم من يسود .

ثم طرح بسيفه الذي لا يفارقه امام عرش النعمان وقال :

اقسم بهذا السيف يا مولاي اني لا اضرب به ضربة الا اذا امرني الملك .

فاشرق وجه الملك وقال :

ونحن نعلم اي سيف انضم الآن إلى اسياف جند العراق ، أتحفظ جميلنا يا ابن معيد ؟

فتناول الرجل سيفه وقال :

لا تهدم صنيعك بمثل هذا الكلام يا مولاي . ان شقة بن ضمرة عبد

لبيتك ولا اقول غير هذا .

فقال : وانه لقول بليغ ، اجلس مع خواصنا منذ الآن .

فقال اعرابي بين القوم :

ونحن يا مولاي ، الا تعطينا شيئاً ؟

قال : ألم يعطكم نائب الملك ، قابوس .

فقال : بلى يا مولانا وبقيت عطية الملك نفسه .

فاجابه قائلا : فعطية الملك غير عطية نائبه ، ان غداً موعـــد النظر في العطايا وسنجلس للناس في الحيرة .

فذكر القوم يوم بؤسه .

واذا باياس بن قبيصة بقول :

أتجعل يوم غد يوم بؤس ايها الملك ؟

قال : ان الملك لا يدعو وفوده الى يوم بؤسه ولكنه يوم ننظر فيه في كل شيء .

فخرج الناس على ان يجتمعوا غداً في الموضع الذي اشار اليه الملك.

* * *

نذهب الان فنستريح يا عصام .

ولم يكن النعمان قد رأى بنته وزوجتيه بعد ، فلما وقع نظره عليهن قال لهند :

ان صهرنا عدياً رجل المدائن وسيدها ، لقد كان زواجك مباركاً يا بنيـــة .

فارتمت هند على صدر ابيها وهي تقول :

حسبي انك راض عن هذا الزواج يا مولاي .

فناولها الملك ما يحمله من لؤلؤ وذهب قائلا :

هذه هدية عدي بل هدية كسرى وهبها لزوجة كاتبه .

ثم صافح زوجتيه وهو يقول :

إن الخورنق في نظرنا احسن القصور لا ابعدنا الله عنه .

ومكث مع اهل بيته يتحدث ساعـــة ثم قال لعصام :

لقد جاء دور صاحبنا زرجون الآن ، قل له ان يحضر الى قاعتنـــا الخاصـــة .

ودخل الى غرفة ملابسه وغير ثيابه وانثنى الى تلك القاعة بينما كان الغلمان والعبيد يضعون المر والمسك في اوعية الذهب .

واذا بزرجون بن نوفل قد اقبل ؛ وخلفه رجل ضعيف الجسم أزرق العينين ، طويل الشعر يتدلى شعره الى ركبتيه .

فقال الملك : مرحباً بصاحبنا زرجون الذي هو ا كبر من ان يقابلنا قبل ان ندعوه . من هذا الذي معك ؟ انه يلبس لباس اهل الشام .

فأكب زرجون على يدي النعمان يقبلها ويقول :

رجل من طيء قدم من الشام منذ يومين .

ــ ومن اذن له في مقابلتنا ؟

ــ انه لم يقدم الحيرة الا ليراك يا مولاي .

ـ مــاذا يطلب ؟

ـ لا يطلب شيئاً يا مولاي بل ينقل اليك خبراً . فقــال النعمان وهو يحدق الى الرجل :

ان اخبار الشام لا تلذ لنا كثيراً ؛ قل يا اخا طيء .

قال : اتعرف رجلا في الشام يدعى اسحق ؟

فظهرت الدهشة على وجه الملك وقال : ويلك ! أأسحق اليهودي الصائغ؟

ـ نعم يا مولاي .

ـ نعرفه كما نعرف زرجــون ، ماذا يريد ؟

ـ اني قــادم من قبله يا مــولاي .

فاستدناه النعمان وقـال له :

اذاً انت تحمل الينا اخبار جبلة بن الايهم ملك الشام « آخر مــلوك بني غسان » ؟

ـ نعم يا مولاي وقد بعث اليك جبلة برجل أزرق احمر ليغتالك .

فأجابه الملك بلهجة هادئة :

اتعرف الرجل ؟

ـ اعرفه يا مولاي .

ثم اغمض عينيه واخذ يصفه النعمان وصفاً دقيقاً كأنه يراه أمامــه . فطبعت صورة الرجل كما وصفها الطائي في ذاكرة الملك الى حد انه لو رآه بين مائة رجل لعرفــه ، فقال :

أأسحق قال لك ذلك ؟

ـ نعم وأوفدني اليك لاخبرك قبل ان يعمل الرجل عمله .

ــ اي قبل ان يقتلنا ؟ بارك الله فيك يا اسحق انك من الاوفياءلآل لخم ، وهل وصل الرجل الى الحيرة ؟

ــ اعتقد انه وصل لانه تقدمني اليهـا منذ ثلاثة ايام .

ــ وانت ما اسمك ؟

فقال زرجون : اسمه عباس وهو نسيب حاتم بن عبدالله . الا تعرف حاتماً يا مولاي ؟

ــ نعرفه فهو الكريم الجواد وقد ذهب له في الجود صيت وذكر . وكيف حال اسحق يا عباس ؟

ــ بأحسن حال يا مولاي وهو مقرب الى جبلة ومن احب النـاس اليه . .

فاطرق الملك ساعة ثم قال :

لقد استحق اسحق شكرنا كما تستحق انت عطاءنا يا اخـــا طيء تعال يا عصام . قل لقهرماننا ان يعطي هذا الرجل عشرة آلاف درهم ومثلها من الكسوة ، واذا ظفرنا بعدونا ضاعفنا لك العطـــاء ... متى كنت ضيفاًعلى زرجون ياعباس فأنت ضيف على الملك ؟ مرحباً باصحابنا الصادقين . . . وان لنفضل ذلك اليهودي الامين على الكثيرين من أبناء عمنا واخوتنا . . وفقنا الله لنكافيء المخلصين لهذ العرش العربي . .

ثم قال : يـــا زرجون ؟ لقد تاقت نفسنا الى ذلك الموضوع الذي ينبت الشقائق وسنذهب اليه غدا ؟ فرافقنا مع صاحبك عباس . انصرفا الان واكتما ما تعرفان .

فخرج زرجون ورفيقه من القاعة ؟ فقال الملك :

الهم من الداخل والخارج ؟ ولا نجد حولنا ؟ على كثرة اخوتنا من يشاطرنا اياه ؟ نحن كل شيء في هذا العراق يا عصام ؟ فاذا مات النعمان فالبيت اللخمي صائر الى الفناء .

وزفر زفرة طويلة وقال :

ماذا يقول عنا الناس يا ابن شهبرة ؟ قل ما تعلم ولا تخدع الملك .

فخاف عصام ان يذكر للملك ما يسمعه ، فتردد في الجواب .

فقال النعمان : نستحلفك بتربة المنذر أن تقول .

فقال : يقولون انك ظالم تلتذ منظر الدماء وتحب قتل الابرياء .

فهز الملك المهموم رأسه قائلا :

اذا قتلنا واحداً فلكي نحيي الجماعات ، اتصدق يا عصام اننا نقتل بريئاً ؟ ؟ لا والله ، ولكن نستذنب الرجل مرتين وثلاثاً ، وهو يخفي ذنوبه تحت مظاهر الخداع والرياء ؛ فنقتله على مرأى من الناس ونحن نخفي ذنبه كما أخفاه ، فيظن القوم ان الملك يذبح الرجال ويقتلهم كلما خطر القتل بباله .

ـ ولماذا لا تفضح المذنبين يا مولاي ؟

ـ لاننا نريد ان يرسخ في نفوس القوم انا ظالمون ..

فلم يعلم عصام أية حكمة تملي على الملك هذا البيان ...

وكأن النعمان عرف فكر حاجبه فقال :

لو كنت ملكاً لعرفت غرضنا من هذا ، ثم فاذهب ولا تنسوا ان تحملوا المال غداً الى ظهر الحيرة .

* * *

١٥

مجلس العطايا

وفي صباح اليوم التالي جلس النعمان بالقرب من الغريين ، وجلس الناس بين يديه وهم كثيرون .

فقال رجل شيخ من بني طيء يدعى « أبا زبيد » لرجل آخر من تميم.

« لقد رأيت ملوك حمير في ملكها ، وملوك غسان في ملكها ، فما رأيت والله أحداً قط أشد عزاً من هذا الملك الابرش القصير القامة الاحمر العينين . .

كان النعمان جالساً كأنه باز ، وكأن الناس على رؤوسهم الطير .

فنهض قهرمان الخورنق يقول :

هذا مجلس العطايا فابدأوا ايها القوم بالسؤال .

فقام رجل من الناس فقال :

ابيت اللعن يا مولاي الملك اعطني فاني محتاج .

فتأمله الملك طويلاً .

ثم امر به فأدني حتى قعد بين يديه .

فقال لعصام :

علينا بكنانة .

فوضعت بين يديه فاستخرج منها « مشاقص » أي سهاماً طويلةغير عريضة وجعل يضرب بها وجه الرجل حتى سمعت الجماعة قرع العظام

وخضبت لحيته وصدره بالدم ..

ثم أمر به فنحي ..

ومكث القوم ملياً ..

ثم نهض آخر فقال له :

أبيت اللعن أعطني .

فتأمله ساعة ثم قال : اعطوه الف درهم .

فأخذها الرجل فشكر وانطلق .

ثم التفت النعمان عن يمينه ويساره وخلفه وهو يتأمل القوم فقال :

ما قولكم في رجل أزرق أحمر يذبح على هذه الاكمة ، اترون دمه سائلا حتى يجري في هذا الوادي ؟

فقال له رجاله :

أنت أبيت اللعن أعلى برأيك عيناً .

فأومأ الى رجل على هذه الصفة قاعد بين الجماعة وقال :

أمسكوا هذا .

فأمسكوه ، فقال : اذبحوه كما تذبح النعجة .

فذبح الرجل وسال دمه كما قال الملك .

ثم اخذ يشير بعصاه الى الناس ويقول لقهرمانه :

اعط هذا وهذا حتى اعطي الجميع لم يبق منهم واحد .

فلما وزع ماله قال لجلسائه :

لا تسألونا عما صنعنا ؟

فقالوا : ومن يسألك أبيت اللعن عن امرك وما تصنع ..

فقال : اما الاول الذي ضربنا وجهه بالمشاقص ، فاننا خرجنا مع ابينا المنذر رحمه الله نتصيد ونحن متنكران ، فمررنا به وهو بفناء بابـه وبين يديه عس من شراب او لبن ، فتناولناه لنشرب منه ، فثار الينا فهرق الاناء فملأ وجهنا وصدرنا فاعطينا الله عهداً لئن امكننا منه لنخضبن لحيته وصدره من دم وجهه، واما الآخر الذي ذبحناه فان عيناً لنا بالشام كتب الينا : ان جبلة بن الايهم قد بعث اليك برجل صفتـه كذا وكذا ليغتالك فتأملناه الآن حتى عرفناه .

ثم التفت الى عباس ضيف زرجون وقال :

تعال يا عباس ، أليس هو الرجل الذي بعث به جبلة ليقتلنا ؟

فنهض الرجل وقال : نعم يا مولاي هو بعينه كأنك تعرفه من قبل وكأنك كنت حاضراً ساعة ارسله جبلة .

فقال الملك لعصام وهو يضحك :

ومع ذلك فالناس يقولون اننا ظالمون . . أرأيتم كيف بدا ظلمنا في هذه الساعة وكيف قتلنا هذا الشامي المسكين ؟ . . فلو ذبحناه وانصرفتم دون ان نقص عليكم قصة جبلة لقلتم في انفسكم ان النعمان بن المنـذر يستحل دم ضيوفه ويحب سفك الدماء ، .. ألا فاعلموا ياسادات العرب ان يدنا لا تمتد الى بريء ، واننا اذا قتلنا احداً فالقتل اخف مايستحقه، فاذا تحدثتم عنا فانصفوا ...

فانبرى عدي بن مرينا يقول :

ومن يتحدث عما يفعل الملك ؟

فقال : كلكم ، كأنكم تريدون ان يكون ملككم عبداً لكم .. اذا جاع

احدكم فعلى الملك ان يطعمه ، واذا محلت ارضه فعلينا ان نأمر السماء بان ترسل الغيث ، وان ضاعت لاحدكم ناقة اقبل علينا يملأ الارض صياحا وشكوى ثم هو لا يبرح الخورنق حتى يعثر عليها الغلمان فيأخذها وهو يمن علينا بانه طائع !! ومع ذلك ، فاذا انفرد احـــدكم بالآخر همس في اذنه قائلا : انا ظلمناه ، فاحفظوا السنتكم واذا تحدثتم فتحدثوا عن هذا الذل الذي اصبحتم فيه يأخذ الغريب خراج ارضكم وانتم لا تبالون .

قل لنا يا ابن مرينا اي رجل منكم ينظر الى غير نفسه بل اي رجل منكم يحترم مولاه في باطنه كما يحترمه في الظاهر ؟ ! ان الكذب والرياء يسودان في قصرنا كما يسودان في القبـــائل ، واكرمكم حسبا واشرفكم نفسا ينظر الى جاره كما ينظر الى عدوه ، ليس لـكم كلمة وليس لـــكم رأي ، وسترون بعد قليل ان بلاد العرب تمسي اقليما تابعا في حكومته وخراجه ولغته دولة كسرى ، يستبد بامرها الفارسي كما يستبد بارض قومه .

ثم هاج صدر الملك، فاخذ يصف كبرياء الفرس واطماعهم ، وخمول العربي وجموده ، يستحثهم بذلك على الوقوف في وجه الفرس اذا قضت السياسة بان يمنعهم نصيبهم من الخراج .

فقال حاجب بن زرارة ، وهو يريد ان يفوز بثقة النعمان :

ان العرب لا تفعل شيئاً الا اذا امر الملك ، فمر بما تشاء .

قال : اتنوب عن قومك بني دارم يا ابن زرارة ؟

ــ نعم يا مولاي فلا ينقل احدهم قدماً الا اذا مشيت .

ــ حسناً فستخاطب كسرى بلسان قومك .

ففهم النـــاس ان النعمان سيبعث بعض رجاله سفراء الى المدائن ، وقام في اذهانهم انـــه ترك ايوان كسرى وهو يضمر البغض لرب ذلك الايوان .

فكثوا ينظرون ايضاحاً .

اما الملك فلم يزد كلمة واحدة على ما قال لكنه اومأ الى قهرمانـــه قائلا :

اذا بقي في جرابك مال فانثره في هذه الساحة فيأخذه المحتاج .

فنفذ القهرمـــان أمر مولاه وما لبث الملك حتى نهض وهو يريد الرجوع الى قصره ..

* * *

١٦

الوفد العربي

وبعد ايام اقبل رسل حسان ووراءهم سادات العشائر الذين دعاهم الملك فقيل للملك وهو في مجلسه :

ان رؤساء القبائل بالباب .

فقال : دعوهم يدخلوا ولينصرف كل غريب في مجلسنا الى بيوت

الضيافة فسنتفرغ لامور الغرباء بعد حين .

فقام الغرباء فخرجوا ودخل المدعوون .

فنزل النعمان عن سريره ومشى خطوتين يستقبل السادات .

وذلك امر لم يكن يفعله لاحد من العرب الا اذا كان هنالك غرض له يريد تنفيذه .

كان اذا اراد ان يظهر رضاه عن عربي ، ابتسم له وهو جالس لا يبرح مكانه .

فقال اكثم بن صيفي في نفسه :

لامر ما غير الملك عادته .

فصافحهم النعمان واحداً واحداً ودعاهم الى الجلوس.

ثم قال :

اهلا باشراف العرب وسادتها ، أتعرفون لماذا دعوناكم ؟

فقالوا : لا .

فتلفت يتبين رجاله فلم يجد بينهم غريبا ، فقال :

« قد عرفتم هذه الاعاجم وقرب جوار العرب منها ، وقد سمعنا من كسرى مقـــالا تخوفنا ان يكون له غور ، وان يكون قصده من مقاله ان يتخذ العرب خولا في تأديتهم الخراج اليه كما يفعل بملوك الامم الذين حوله »

فقال عمر بن معدي كرب :

قص علينا ايها الملك ما سمعت .

فخبرهم ما قاله كسرى وما رد عليه .

فقالوا جميعا :

« وفقك الله ايها الملك ما احسن ما رددت وابلغ ما اجبت به ، فمرنا بأمرك وادعنا الى ما شئت »

قال : « انما الملك رجل منكم وانما ملكنا وعززنا بمكانكم ، وليس شيء احب الينا مما سدد الله به امر العرب ، واصلح به شأنها وادام به عزها » .

فقال اكثم : وما الرأي الآن ؟

قال : « الرأي ان تنطلقوا الى كسرى ، فاذا دخلتم نطق كل رجل منكم بما حضره ليعلم ان العرب على غير ما ظن او حدثته نفسه ، ولا ينطق رجل منكم بما يغضبه ، فانه ملك عظيم السلطان كثير الاعوان معجب بنفسه » .

فقال قيس بن مسعود :

وانا لقوم نحترم انفسنا ايها الملك !

قال : اجل ونحن لم ندعكم الا لانكم اعز العرب،فلا تغضبوا كسرى ولا تنخذلوا له انخذال الخاضع الذليل ، وليكن اول من يبدأ منكم بالكلام ، اكثم بن صيفي ، ثم تتابعوا على الامر بعده ، واحذروا ان يجد كسرى في آدابكم مطعنا فانه ملك مترف كما قلنا وقادر مسلط » .

فقال حاجب بن زرارة :

وماذا نقول له عن الخراج يا مولاي ؟

قال : قولوا له ما تشاؤون فنحن انما نبعثكم اليه لاجل هذا الخراج.

وكان الحارث بن ظالم البكري ، والحارث الآخر المري ساكتين ،

فقال لهما الملك :

لم نسمع للحارثين رأيا ، أتخافان من كسرى ؟

فقال البكري : نعم يا مولاي والخوف من عادة بكر ...

وقال المري : وانا لنرتجف خوفا قبل الوصول الى المدائن .. امـــا والله لو أصر كسرى على طلب الخراج لدفعنا اليه اسنة وسيوفا . .

وقال عمر بن معدي كرب : وملأنا المدائن رجالا .

فابتسم ابن صيفي وقال : انما ندبنا الملك لنكون رجـــال رأي لا رجال حرب . ألا يريد الملك ان يكتب كتاباً الى ملك الفرس ؟

فقال النعمان : بلى ، اكتب يا ابن صيفي .

من النعمان بن المنذر ملك العرب الى ملك الملوك كسرى . .

« اما بعد فان الملك القى الي من امر العرب ما قد علم ، واجبته بما قد فهم ، فليعلم الملك انه لا توجد بين الامم التي احتجزت دونه بمملكتها وحمت ما يليها بفضل قوتها ، امة تبلغ من القوة والتدابير ما بلغته العرب، وقد اوفدت ايها الملك رهطا من العرب لهم فضل في احسابهم وانسابهم وعقولهم وآدابهم ، فليسمع الملك وليغامض عن جفـــاء ان ظهر من منطقهم. وليكرمني باكرامهم وتعجيل سراحهم، وقد نسبتهم في اسفل كتابي هذا الى عشائرهم » .

ثم دعا بما في خزائنه من حلل الملوك ، فألبس كل رجل منهم حلة ، وعممه عمامة ، وختمه بياقوته . وامر له بفرس نجيبة ، وقال :

خذوا من تشاؤون من غلمان الخورنق وعبيـــده ، وليعدوا لـــكم حاجتكم من الزاد والكسوة وليكن نزولكم في المدائن على صهرنا عدي

ابن زيد قبل ان تقابلوا احداً من خواص الملك . فهو يمهد امامكم سبل الوصول الى كسرى ويذكر لكم عادات الفرس . انصرفوا لساعتكم .

فخرج القوم في اهبتهم واحمـــالهم وعبيدهم حتى نزلوا بالمدائن في قصر عدي .

فاحاطهم صهر النعمان بكل صنوف العناية والتكريم . وخرج معهم في اليوم الثاني يدلهم على ما في المدائن من قصـــور الاكاسرة وعظماء الفرس .

ثم وقفوا بعد يومين بباب كسرى . وذلك بفضل عدي واستئذانه مولاه .

فلما دفعوا اليه الكتاب قرأه وأمر بانزالهم الى ان يجلس لهـــم مجلساً يسمع منهم .

وبعد ان مضت بضعة ايام امر مرازبتـــه ووجوه اهل مملكته ، فحضروا وجلسوا على كراسي عن يمينه وشماله ، ثم دعا برجال الوفـــد على الولاء والمراتب التي وصفهم النعمان بها في كتابه ، واقـــام ترجمانه يؤدي اليه كلامهم .

فدخلت الرجال عليها حلل الملوك ، وفي المقدمة اكثم بن صيفي .

فانحنوا أمامه كما انحنى ملكهم من قبلهم وهم يأنفون من السجود .

فقال كسرى : من هو اكثم بن صيفي ؟

فانبرى اكثم وارتجل خطبته والترجمان ينقل الكلام بلغة الفرس .

ثم قام بعده عمر بن معدي كرب . فقيس بن مسعود . فالحارثان . فحاجب بن زرارة وألقى كل منهم خطبة اخذت بمجامع قلب الملك .

فلما انتهوا عن الكلام قال كسرى :

انكم يا امراء العرب من افصح الناس . فاذكروا لنا الآن ما قدمتم لاجله .

فقال اكثم : ما بعثنا ملك للعرب الا ونحن على الطاعة ، وان لنا ايها الملك لحاجة :

فقال : أفي حاجة واحدة بعثكم النعمان ؟

قال : نعم وهي حاجة العرب جميعها لا نستثني عشيرة او حياً ،فاذا أمر الملك بقضائها خرجنا من بلاده ونحن أشد اخلاصاً .

قال : لولا فصاحة لسانك لم تسد قومك ولما جعلك ابن المنذر رئيساً للقوم ، اذكر حاجة العرب .

فقال ابن صيفي :

ان العرب يا مولاي قبائل وبطون لا يجمعها بلد ولا تربطها عادة وهي في بلادها كالضيف الغريب تنتقل من حي الى حي ، ومن ارض الى ارض ترعى نوقها وماشيتها فتنتفع بنتاجها وتدفع ما يفضل للملك .

فأصغى كسرى الى قوله وكأنه عرف ما يريد اكثم من مقدمته .

واستطرد الرجل قائلا : وقد تمحل الارض عندنا فينزل النعمان عن حصته بالخراج لكنه لا ينزل عن حصة الملك ، فيضرب ويسجن ويقتل في سبيل هذا الخراج من يشاء من رجال العرب ، خوفاً من ان يتهمه الملك بالقعود عن تنفيذ امره ، وفي ذلك من الظلم ايها الملك ما فيه ، حتى ان العرب لتثور يوماً فتعمد الى السيف تقتل به الجباة فتنشب الحرب ، اتريد ايها الملك ، وانت اعظم ملوك الارض ، ان يحصد

السيف عشائرنا واحياءنا في سبيل قبضة من المال هي دون مـــا يتناوله الملك من اقليم واحد من اقاليم دولته ؟

فضحك كسرى ضحكة عالية ملأت الايوان وقال :

أيسألنا النعمان ان ننزل عن حق التاج ؟!

فقال الحارث بن ظالم المري :

ليس النعمان الذي يسألك ذلك ايها الملك ولكن نحن .

فظهرت الرصانة على جبين كسرى وقال :

ان ملكا يبني جدنا عرشه ، وتحمي جنودنا هذا العرش ، لا نأذن له في الانفراد بخراج ارضه .

فقال اكثم : واذا لم تقدر العرب على الدفع ؟

ـ نأخذ حصتنا من بيت المال في العراق وللنعمان بن المنذر شأنـــه بعد ذلك .

ـ ومن اين للنعمان ان يوجد المال اذا لم تدفعه العرب ؟

ما كنا لننظر في هذا فانتم اخبر منا بملككم وبما يفعل ، فـــاذا كان لكم ما تقولونه غير ذلك فاذكروه .

فقال عمر : ليس لنا غير الخراج نسألك النزول عنه فاذا ابيت ايها الملك فمر رجالك بأن يجمعوه .

فقال كسرى ويلك من انت ؟

ـ ابن معدي كرب فارس بني زبيد .

فالتفت الى عدي وقال بالفارسية :

أيجترىء بنو قومك علينا ونصبر ، فما رأيك ؟

قال : انزل عن حقك يا مولاي تجعل العرب عبيداً .
فابتسم وقال : هكذا سنفعل ولكن نختبر اقدامهم .
ثم حدق الى الزبيدي وقال :
أتمنع رجالنا من ذلك ايها العربي ؟
قال : نمنعهم ولو كانوا اهل فارس .
فقال كسرى : اذاً لا تجول الخيل جولة حتى تسقط قتيلا .
فضحك الزبيدي وقال للترجمان :
قل لمولاك انا قوم لا نموت الا في ساحة الوغى ، لكـــن يجب ان يعلم انَ فارس زبيد لا يسقط حتى يسقط نصف الجيش الفارسي ..
فلما ذكر الترجمان قوله للملك قال :
ماذا تصنع يا زبيدي اذا امرنا رجالنا بالقبض عليك الآن ؟
فضحك عمر وقال : وانا لو قيل لي ان اكثم بن صيفي عزل كسرى عن عرشه وجلس على هذا العرش لصدقت هذا القول ، واما انك تأمر رجالك بالقبض علي في ايوانك وبين يديك فهذا لا اصدقه .
ــ ولماذا ؟
ــ لاني اعلم ان الملوك لا ينقضون عهدهم . . ومع ذلك فاذا امرني الملك بالبقاء في المدائن فانا باق ، ولكن الى حين . .
ــ اي الى حين نأذن لك في المسير ؟
ــ بل الى ان يعلم بنو زبيد اني اسير .
فقال كسرى لعدي : انه من فرسان العرب لكن لا عهد له بمجالس الملوك .

ثم قال لاكثم : يا ابن صيفي ، ألك حاجة غير الخراج ؟

قال : ليست هي حاجتي ايها الملك بل حاجـــة اصحابك العرب ، وهؤلاء سفراء القبائل فاسألهم عما تشاء .

فقال ابن مسعود : خير لك ولنا ان ننصرف من المدائن ونحن انصار العرش الفارسي ، من ان نعود الى العراق والصدور تحمل حقداً .

فرأى كسرى ان المجال اضيق من ان يزيد اختباره ، فوجه كلامه الى اكثم قائلا :

« قد فهمنا ما نطقت به خطباؤكم وتفنن فيه متكلمكم ، ولولا اننا نعلم ان الادب لم يثقف اودكم ولم يحكم امركم ، وانـــه ليس لكم ملك يجمعكم فتنطقون عنده منطق الرعية الخاضعة لم نجز لكم كثيراً مما تكلمتم به . غير ان كسرى ليكره ان يجيبه وفـــوده ويخنق صدورهم والذي نحب هو اصلاح مدبركم وتألف شواذكم . وقد قبلنا ما كان في منطقكم من صواب وصفحنا عما كان فيه من خلل . فانصرفوا الى ملككم . واحسنوا مؤآزته . والتزموا طاعته . واردعوا سفهاءهم واحسنوا ادبهم فان في ذلك صلاح الامة » .

وقولوا للنعمان : ان كسرى لا يجهل ما في قلبه . فقد بعثكم الينـــا لتسألونا النزول عن الخراج لينفرد هو به . اجل . وانا لننزل له ولكم عن هذا الحق فخذوا خراج ارضكم فانتفعوا به . وليعالج النعمان به امر العرب فيكفيهم شر الحاجة والفقر . ولكن . . ولكن اعلموا اننا لا نغفل عن شيء . فاذا بدا لنا انكم نقضتم العهد استرجعنا حقنا بقوة

السيف لا تمنعنا العرب من ذلك بل لا تقف في وجـــه كسرى قوات العالم كله .

قال هذا ونهض وهو يقول لعدي :

أعط ابناء قومك من مالنا ما تشاء فبيت المال مفتوحة لك ابوابه .

فخرج الوفد العربي واكثم بن صيفي يقول لفارس زبيد .

لقد حسبت ايوان كسرى ساحة حرب فكدت تقتلنا . .

فقال : ومتى كنا نهتم للموت ، عند حفظ الكرامات ؟..

فقال قيس بن مسعود : لا تصلح الوفود الا اذا استند فيها ، رجال الرأي الى رجال السيف ..

وبعد ثلاثة ايام ، غادروا المدائن راجعين الى العراق ؛وحاجب بن زرارة يعد نفسه بردافة النعمان ..

* * *

١٧

يوم طخفة

عندما وقعت على النعمان على سفرائه الستة الذين بعثهم الى الاعاجم، قال لاكثم بن صيفي سيد السفراء :

ما رأيناك تبسم يا ابن صيفي الا لخير .. حدثنا بما سمعت ورأيت في إيوان الفرس .

فقال عمر بن معدي كرب : ألا تأذن لنا في الجلوس أيها الملك ؟

فأجابه النعمان قائلا : تجلسون حولنا فأنتم حراس العرش .

ثم قال للغلمان بين يديه : افرشوا الديباج لسادات العرب .

فجلست السفراء على وسائد أمام الملك .

فقال ابن صيفي :

أما كسرى فأعظم الملوك يا مولاي ، وأما ايوانه فقد رأينا الجواهر تبرق في سقفه وعلى جدره كما تبرق النجوم في سماء العراق ، ارضه يكسوها الديباج المبطن بريش النعام ، فكان الواحد منا ، وهو يمشي فوقها ، ينهض رجليه نهضا لئلا يعثر كمن يمشي في ارض تنبت شقائق النعمان ... وكان الملك الفارسي بين مرازبته وخواصه ، في ردائه وصولجانه وتاجه ، كاللؤلؤة البيضاء في قلادة من عقيق ... فسلمنا ووقفنا ..

فقال النعمان :

وأني لارى على جباهكم ايها السادة اثر السجود .

فقال الحارث المري :

ما كان العربي ليسجد لعلج من علوج الاعجام .

فصفق النعمان بيديه فرحا وقال :

احسنتم فهكذا فعلنا نحن ، هات ما عندك يا ابن صيفي .

فاستطرد الرجل قائلا :

فأمر كسرى بالجلوس ثم اذن في الكلام ، فكانت الخطب ، وكنت اری البشر يملأ وجه الملك ونحن نتكلم .

ثم سألنا عن حاجاتنا فارتفعت اصواتنا نقول : الخراج ، الخراج .

فرأيت وجهه يسود بعد ذلك الاشراق ، وسمعته يقول : ان الملك العربي الذي يحميه كسرى لا ينفرد بخراج ارضه ..

فاهتز جسم النعمان لما سمع وقال :

أكسرى يحمي ملك العرب ؟ ! أهو يقول هذا وجيش العراق يمشي امام جيشه ليحارب اعداءه ؟ وماذا كان جوابك ؟

فأومأ اكثم الى عمر بن معدي كرب قائلاً : امـــا الجواب فيذكره لك عمرو .

فنظر اليه النعمان ، فقال :

كان جوابنا ان درهماً واحداً لا يأخذه من ارضنـــا الا اذا خسر نصف جيشه .

ثم عاد أكثم الى الحديث قال :

فأكبرت ان يستخف فـــارس زبيد بأهل فارس وهو ضيفهم ، وخفت ان يغضب كسرى فتخسر العرب قضيتها ، ولكن صهرك عدياً قدر ان يستميل الملك ، فنزل عن حصته بالخراج . وأوصانا بأن نطيع ملكنـــا ؛ ونصلح عامتنا ، وهو يبتسم لنا ويأمر عدياً بأن يبرنا ويجزل صلتنا .

فتنهد النعمان كما يتنهد الجريح ، وقال :

أما الآن فنتاج ارض العرب للعرب وليس للفرس ، فقل لنا يا عمر ، ماذا كنت تفعل لو أمر بك كسرى فجعلوا في فمك قطعة من الحديد ؟

فضحك عمر وقال : أفتح لهم فمي حتى يحشوه حديـــداً .. أتسألني ايها الملك عما افعل في الموقف الصعب وانا فتى الحرب ؟ ! اما والله لو فعلها الاعجام لوثبت الى كسرى فطعنت صدره بهذا الخنجر الذي لا يفا رقني وأهويت على عرشه فكنا جثتين ..

فعلا ضحك القوم .

أما أكثم فقال : ولكانت تلك الطعينة سبباً لعناء العرب .

فقال : وما هو ذنبي اذا كان سيفي اسبق من لساني .

فقال النعـــمان : لقد كفانا صهرنا عدي شر حرب تحصد الاخضر واليابس، بارك الله فيك يا ابن معدي كرب فقد شرفت قومك، أما كسرى فلو لم يكن أرحب ملوك الارض صدراً لما كان اعظمهم جميعـــاً ، لقد أحسن في عمله ونحن حلفاؤه حتى تقوم الساعة .. الا اذا تدخل الفرس فيما لا يعنيهم فعندئذ نصبح في حل من العهد .. هكذا يجب ان تعلموا وتعلم العشائر .

ثم رأى ان يكافىء رجال وفده ، فقال :

ياسادات العرب : ان الملك يعترف بجميل رجاله ولا ينسى اخلاصهم له ، لقد أمرنا لكل واحد منكم بفرس من افراسنا وخمسين ناقة من النوق الحمر الا حاجب بن زراة فقد اعددنا له غير ذلك .

وكأنه ذكر في تلك الساعة امر الردافة فقال :

نريد ان نحدث بعضكم في خلوة قبل ان تنصرفوا الى بلاد قومكم ، نبدأ بأكثم بن صيفي .

فنهض جلساؤه فخرجوا الى الرواق وبقي اكثم وحده في مجلس الملك .

فقال النعمان : نستشيرك في أمر يا ابن صيفي :

فقال : ولك مني الرأي الذي يمليه الحب والطاعة يا مولاي .

قال النعمان : أنت يا أكثم سيد تميم حتى لتكاد تكون ملكها ، فأي الحيين اعظم نفوذاً من الآخر ، يربوع ام دارم ؟

فقال : النفوذ لبني دارم والقوة لبني يربوع كما يعلم الملك .

فهمس النعمان في اذنه قائلاً :

لقد سألنا الردافة لبني دارم ، حاجب بن زرارة ووعدناه .

فأطرق اكثم قليلاً ثم قال :

انه لرأي يفضي الى حرب يا مولاي .

ــ وهل يستأثر بنو يربوع ما داموا بردافة الملوك؟انهم اذا أبوا عمدنا الى السيف .

فقال : أبالسيف تجمع كلمة العرب يا مولاي ؟ ان اردافك أقوى مما تظن .

ـ ليكونوا أقوى العرب فنحن لا نحتمل ردافتهم بعــد وسنأمرهم بأن يعتزلوها لبني عمهم .

وكان اكثم يعرف طباع النعمان فقال:

افعل ما انت فاعل يا مولاي ففي يدك امر العرب .

فاجابه قائلا : ما كنا لنقدم على مثل هذا الامر الا بعد الامعان في التفكير .. ليدخل قيس بن مسعود .

فدخل الرجل ، فاستشاره الملك في امر الردافة فقال :

ما كانت ردافةالملوك ارثاً لبني يربوع، فليعتزلوها فغيرهم اولى منهم.

فقال النعمان : اجلس وليدخل الحارث بن ظالم البكوي .

فلما أقبل ؛ قال النعمان لرفيقيه : سنعمل اليوم برأي بني بكر .

لقد عزلنا بني يربوع عن الردافة وأعطيناها بني دارم ، فما رأيك ؟

فقال : اذا ذكر بن صيفي رأيــه فقد كفاك مــؤونة الاستشارة مولاي .

فقال الملك : لو اعجبنا رأي بن صيفي لما سألناك ، اترى نارالحرب تستعر بيننا وبين بني يربوع بسبب هذه الردافة ؟

فضحك الحارث ضحك الهازىء وقال : ما اظنهم يفعلون .

فالتفت النعمان الى اكثم وقال :

انت وحدك تقول لا ، ونحن الثلاثة نقول نعم ، من بقي بالرواق رجال الوفد يا قيس ؟

قال : الحــارث المري ، وعمرو بن معدي كرب ، وحــاجب ابن زرارة .

فأومأ الملك الى حاجبه قائلا : ليدخلوا جميعاً الا حاجبا .

فاقبل الاثنان ، فلما صارا بين يديه قال :

يا ابن معدي كرب ، الا يجوز للنعمان بن المنذر ان يستبدل ردفه بسواه ؟

فقال : للملك ان يفعل ما يشاء وعلى العرب ان ترضى .

ـ اما بنو يربوع فلا يرضون الا ان تكون الردافة لهم .

ـ وانت في اي حي تجعلها ايها الملك ؟

ـ في بني دارم ، ونخشى ان يمتنع بني يربوع فتنشب الحرب وما نحب ان نشهر السيف في وجه حي من احياء العرب .

قال عمرو : ان بني يربوع اضعف من ان يحاربوا النعمان ، وهكذا كان رأي الحارث المري .

فقال الملك : ليس فينا من ينكر هـذا الرأي الا اكثم بن صيفي ، وصهرنا عدي بن زيد ، اما نحن فسنمضي في الامر وسنري مـا يفعله اصحابنا بنو يربوع .

ثم قال : ادع الناس يا ابن شهبرة .

فلما قعدوا في مجلسهم قال لوزيره :

يا شهاب ، الا تتوارثون الردافة منذ اكثر من جيل ؟

ـ بلى يا مولاي .

ـ أليس لابناء عمك بني دارم حق فيها وهم من أشراف تميم ومن اصحاب القول في العشائر ؟

ففهم شهاب ما يريده الملك فقال :

بل هم من اشراف العرب يا مولاي غير ان الردافة لبني يربوع لا يتنازلون عنها ولا يطمع بها احد من قبائل الجزيرة والعراق .

فقال الملك : اجل فما ننكر كلمة مما قلت ، ولكـــن الملك يسألكم اياها ليرضى بها حياً غيركم ، أتبخلون بها علينا ؟

فارتسمت دلائل الهم بل دلائل الغضب على جبين الرجل وقال :

اما انا فكما يشاء الملك وقد اعتزلت الردافة الساعة فعين ابن زرارة فهو اعظم بني دارم ، ولكن اذا اراد الملك فليشاور الجماعـــة قبل ان ينحيهم عن قصره فهم اهل نجدته ومن اخلص العشائر لآل لخم .

فقال : احسنت وسنبعث اليهم في هذا ، اما انت فتبقى في الخورنق كما كنت ، الرادفة لغيرك والرأي لك .

فقال شهاب في نفسه : لو بعثني الى بلاد قومي لكان أولى .

ثم قال الملك لعصام بن شهبرة :

لقد ندبناك الى هذه المهمة يا ابن شهبرة ، فاختر رجلـــين من بني قيس واجعلهما رفيقيك الى طخفة حيث يقيم القوم ، وحدثهم بما سمعت منا واحفظ جوابهم .

وكان منزل بني يربوع اسفل طخفة ، وطخفة ارض خصبة كثيرة المرعى ، تبعد عن الحيرة سبعين او ثمانين فرسخاً .

فقال اكثم للنعمان : سيمتنع القوم ايها الملك فلا تشاور .

فابتسم وقال : لا اراهم يجترئون علينا ، واما المشورة فلا بد منها ، انصرف يا عصام واحسن لاصحابنا القول .

فانصرف الرجل لساعته ، وهو يرى ما يراه عدي بن زيد ، واكثم

ابن صيفي من ان الحرب ستستعر نارها بين النعمان وبين اردافه .

وقام النعمان فخرج وهو يقول :

لا يجمعنا مجلس ايها الناس قبل ان ينقل الينـــا حاجبنا جـــواب بني يربوع .

اما حاجب بن زرارة فكان قلبه يرقص في صدره من الفرح ، فقد سمع وهو خارج المجلس الى كل ما قيل فيه . .

فلما خرج النعمان قال له :

لقد وفينا بما وعدنا به بني دارم فعسى ان تحفظوا العهد وتعترفـــوا بالجميل فاكب ابن زرارة على يدي الملك يقبلهما ويقول :

ما حفظ العهد احد مثلما نحفظه نحن يا مولاي .

وكان شهاب بن قيس ، اول من خرج من المجلس بعد خروج الملك.

ثم تبعه القوم .

فلما توسطوا الرواق ، قال عمرو بن معدي كرب :

لقد اصبحت يا ابن زرارة نائب الملك فاين النوق تنحرها للعرب ؟

فاجابه اكثم بن صيفي قائلا :

والله لا يذبح بنو دارم ناقة حتى يذبح بنو يربوع الف رجل . . ان الرادفة لا تزول من حيهم حتى يتضعضع جيش الملك .

فقال الحارث بن ظالم البكري .

أتعني ان الردافة لا تؤخذ الا بالسيف ؟

قال : اجل ، فكما اخذ بنو يربوع ، هكذا يعطون .

* * *

الثمانون فرسخاً ، بين الحيرة وبين منازل آل يربوع اجتازها عصام ابن شهبرة ورفيقاه في يومين كاملين .

ما استراحوا غير مرة واحدة حتى نزلوا طخفة .

ورؤساء القوم يومئذ ، اشقاء شهاب بني قيس، وطارق ابو عميرة، وبشر بن عمرو بن جوين ، وشاعرهم ، مالك بن نويرة .

فقال قائل في بني يربوع :

ان عصام بن شهبرة في هذا الحي مع رجلين من قيس .

فاجتمع القوم وقالوا :

لا يجيئنا حاجب النعمان لأمرٍ بعثه فيه مولاه اهلا برسول الملك ، واكرموه وفادتـــه وهو لا يحدثهم بشيء وهم لم يسألوه حتى انقضت ثلاثة ايام .

فقال لعبد الله بن قيس شقيق شهاب :

يسألكم مولانا ملك العـــرب ان تنزلوا عن الردافـــة لبني عمكم آل دارم .

فبان الغضب في وجه عبدالله وقالَ :

متي كان بنو دارم ابناء عمنا ؟ ان الردافة لنا لا نتخلى عنها لعربي، ومع ذلك فامهلنا ننظر في الامر .

ثم دعا رؤســـاء الحي فاجتمعوا في مضرب لهم كبـــير يتشارون ، ومجلس الشورى يتألف من السادات والفرسان .

لكن الجلسة لم تطل ، فما هم الا ان دخـــلوا حتى خرجـــوا وهم متفقون ، وبشر بن عمرو بن جوين يحمل قرار المجلس بين شفتيه .

وعادوا الى بيت عبدالله وابن شهبرة يرى بعينه دلائل الغضب على الوجوه.
فقال بشر : يا ابن شهبرة ، الا تعيد علينا ما قلته لعبدالله ؟
قال : بلى ، ان الملك يسألكم ان تتخلوا لبني دارم عن الرذافة .
فقال : ما اسرع ما يفسد الملك امر رعيته ، ايسألنا ان نترك ردافتنا لاصحابه وهي حق اجدادنا وآبائنا وقد اخذناها بقوة السيف ؟!

إن الردافة في نظر بني يربوع ، كالتاج في نظر ملوك الحــيرة ... فكما ان التاج لا يطمع به حي من احياء العرب فالردافة لا تكون لغيرنا ونحن احياء .

ثم التفت الى رؤساء العشيرة وقال :
أتجيبون الملك بغير هذا ؟
فقالوا جمعاً : ما نعرف لنا جواباً غير ما ذكرت .
فرأى عصام ان القوم اجمعوا على الرفض فقال :
واذا مضى الملك في امره فماذا تفعلون ؟
فقال بشر : الملك في الخورنق يعزل من يشاء ويولي من يشاء فاذا قدر الملك على ذلك فليفعل ...
فغضب الحاجب لاهانة مولاه ، فقال :
أتجرؤ يا ابن عمرو على القول ان النعمان بن المنذر يخاف احداً ؟
قال : اجل كما يجرؤ النعــمان بن المنذر على اغتصاب حقنا ايظن النعمان ان بني يربوع يصبرون على الذل الى حد ان يصبحوا عبيداً لبني دارم ؟ والله لا تنتقل الردافة من هذا الحي حتى يمتلىء العراق من جثث الدارميين ، هكذا يجب ان يعلم ابن المنذر الجالس على عرش الحيرة ،

ألا تنقل الكلام يا ابن شهبرة كما تسمعه ؟

قال : بلى .

قال : اذن تقول للنعمان انا على عهده ما بقيت لنا الردافة وأما اذا اعطاها بني دارم فنحن لا نترك السيف حتى تقوم الساعة ، وتقول للردف المعزول شهاب بن قيس : ان بني قومه لا يرضون بأن يخرج من الخورنق فاذا طرده النعمان من قصره فليحمل عار الطرد ونحن نسترجع كرامتنا في ميادين الحرب يوم تصطدم السيوف والصفوف .. هذا هو جوابنا لا نزيد عليه كلمة وسنحشد سلاحنا حتى يرد علينا جواب شهاب .

فقال عصام : لا تغضبوا الملك فتخسروا عطف العرب .

فضحك بشر ضحك الساخر وقال :

لا نعترف بهذا الملك الذي لا ينظر الى ابعد من انفه ، لقد رأينا الآن ان نحارب ردف الملك الجديد مهما يكن شأنه في العراق ولو كان من اخوة النعمان ، واذا تصدى لنا الملك حاربناه ايضاً ولا نترك الميدان حتى تسبى نساؤنا والاطفال.

فقال عصام وقد امتلأ صدره غيظاً :

مهلا يا ابن جوين ، اني حاجب الملك ورسوله فلا اطيق ان تطعنوا عليه بالقول .. أتهينون ضيفكم يا بني يربوع ؟

قال : اما انك رسول الملك فنحن لا نعرفك واما انك عصام بن شهبرة فمرحباً بك .. انا لا نهين احداً لكن الملك يهين نفسه ونحن في حل من طاعته والخضوع له .

ـ اذن لا خير في الاقامة بين قوم لا يحترمون ملكهم .
ـ ولا خير في ملك ينسى المعروف ويعبث بعهد اصحابه .
فقام عصام فخرج مع رفيقيه وهو يقول :
لقد ركبتم يا بني يربوع مركباً صعباً .
فاجابه عبدالله بن قيس قائلا :
ذلك أفضل من السكوت على الذل فتعيرنا العرب ...

***

وعاد الثلاثة وعصام يفكر فيما رآه ، وكان يقول في نفسه :
ليس في رجال النعمان على كثرتهم ، غير عدي بن زيد وا كثم بن صيفي ، فاذا تركا الملك تركه الرأي . .
وكان النعمان ينتظر رجوع حاجبه ، ولم يكن يظن ابداً ان مجلس الشورى ، في بني يربوع ، يرد سؤاله ويستهين امره .
فلما قدم عصام الحيرة قاصداً الخورنق ، قال له احدهم :
ان الملك مع خواصه على الفرات .
وهو يعرف ذلك الشاطىء الآخر الذي يقضي فيه النعمان بعض الساعات .
فسار اليه وهو عابس الوجه ، لكنه لم يمتعض لخيبته في سفارته ، امتعاضه لما رآه على ذلك الشاطىء ...

رأى الملك جالساً علـى ضفة الفرات يحـادث عدي بن مرينـا ويبتسم له . .

ورجال البلاط يلهون بالرماية وصيد السمك .

فقال لرفيقه : بين ليلة وضحاها اصبح ابن مرينا نديماً للنعمان . . .

وعصام بن شهبرة ، يخاف ، ويخاف كثيراً ان يتغير النعمان علـى عدي بن زيد ، بقوة ما ينفخه في صدره من سعاية واكاذيب ، ذلك الخبيث الداهية ، عدي بن مرينا .

فعندما وقع نظر الملك على حاجبه ، استوى في مجلسه ، ومد اليـه يده ليقبلها ، قائلا :

ما وراءك يا ابن شهبرة ؟

قال : خير يا مولاي .

فحدق اليه الملك يتبين وجهه ثم قال :

لا اري وراء هذه الملامح خيراً . . قل ماذا رأيت في طخفة .

واحاطت رجال الخورنق بعصام لتسمع الحديث ، وحـاجب بن زرارة في القوم .

فقال عصام : قدمت طخفة عزيزاً وانصرفت وانا ذليل .

فقطب النعمان حاجبيه وقال :

أفي العرب حي يذل رسول الملك ؟ . . كيف ذلك ؟

قال : لقد اكرم القوم وفادتنا على اتم ما يكون من حسن الضيافة .

فقال : ذلك شأن العربي مع جميع الناس ، خبرنا ذلك .

قال : لم ينزل طخفة من قبل ، ضيف احب الى الجماعة من حاجب

الملك . فلما ذكرت لهم بعد ثلاثة ايام ، ما ارسلني الملك لاجله ، تنكر القوم واسمعوني ما لا احب ثم احسست بعد ذلك اني اقيم بين اعداء .

ـ اذن فهم يرفضون .

ـ بل جاوزوا الرفض يا مولاي الى اغرب منه .

ـ الى الاهانة ؟ !

ـ اجل يا مولاي .

فابتسم النعمان ابتسامته التي يعرفها اهل الحيرة وقال :

واراهم يشحذون السلاح ...

ـ نعم وقد حفظت جواب القوم كما قاله بشر بن جوين .

ـ ونحن نسمعه منك الآن .

فقال عصام : سيحاربون الردف الجديد ولو كان احد امراء البيت المالك ، واذا تصدى لهم الملك حاربوه ايضاً حتى تعود اليهم الردافة او يموتوا .

فنظر الملك الى شهاب بن قيس قائلا :

أفعلها قومك يا ابن قيس ؟

فخاف شهاب ان يكون الموت كامناً وراء ابتسامة الملك ، فقال :

أتراني أرسلت الرسل الى قومي ليقولوا ما قالوه ؟

قال من يعلم ..

ونظر الملك الى عصام مستفهماً .

فقال : لم يكن في طخفة من الرسل غير رسول الملك ، وبنو يربوع لا يرضون بأن يخرج شهاب من الخورنق الا اذا طردته طرداً وهم

يسترجعون كرامتهم في ساحة الوغى .

قال : واذا أخرجناه من قصرنا جثة محمولة على الاكف ؟

فارتسم الذعر على جبين الرجل وقال :

أتقتلني يا مولاي وأنا برىء وانت القائل انك لا تقتل الابرياء ؟

فقال : بل نقتلك بذنب قومك وانت سيدهم ...

فارتخت ركبتاه وكاد يسقط على الارض من شدة الخوف .

فقال ابن شهبرة : كلمة يا مولاي .

قال : ما هي ؟

قال : الرفق اولى حتى ينتهي امر القوم .

فنهض الملك عن مكانه كما ينهض الاسد الخائف وقال :

اصاب شهاب فنحن لا نقتل بريئاً .. اين فرسنا .

فأحضرت قطام وهي فرس للملك حمراء .

فركبها وقال لمن حوله : الى الخورنق فنستعين بالرأي .

وما ان وصل الى الخورنق حتى جلس ودعا رجال المشورة ورجال السيف .

وكان أكثم بن صيفي ، وعمر بن معدي كرب ، وجميع رجال الوفد قد غادروا الحيرة الا حاجب بن زرارة .

فقال النعمان لحاجب : اجلس عن يميننا يا ابن زرارة .

فجلس حاجب ، وهو يرى ، من فرحه ، ان الخورنق العظيم اصغر من ان يليق بمقامه .

وقام شهاب فقعد بين القوم .

فقال النعمان لردفه الجديد .

لقـــد خاف اكثم بن صيفي ورفاقه ان نستشيرهم في امر الحرب فتجعلوا في سفرهم .

قال هذا وضحك استخفافاً .

فقال شهاب في نفسه :

اضحك ما شئت ايها الملك فكرسي الردافـــة لا يثبت طويلا تحت بني دارم ..

ثم وجه النعمان كلامه الى رجال المجلس قائلا :

نحينا بني يربوع عن الردافة وجعلنا ابناء عمهم بني دارم اردافاً لنا فهل فيكم معترض ؟

فقالوا جميعاً : سمعنا واطعنا .

قال : فثار ثائر آل يربوع وبعثوا يهددون الملك بالحرب فما رأيكم ؟

فقال عدي بن مرينا : نتبع الرأي الذي يراه الملك .

قال : أما رأينا فسنبعث الى طفخة من يؤدب الجماعة .

فقال عدي : ليكن في الجيش بعض اخوتك يا مولاي .

ـ لماذا ؟

ـ حفظاً لهيبة الملك بين القوم .

فاستحسن النعمان رأيه وقال :

نبعث ولي عهدنا وواحداً من اخوتنا ألا تحسن قيادة جيش العراق يا قابوس ؟

ففرح الفتى بثقة ابيه وقال :

انك يا مولاي اخبر الناس بما يعرف ولي عهدك من امور الحرب.

فقال الملك : انك اهل لهذا فكن لعدوك مثلا بليغاً واحفظ في حربك الاولى هيبة آبائك آل لخم .

ثم التفت الى اخيه حسان قائلا :

سنرسل كتيبتي « الصنائع والوضائع » الى طخفة ، فكن انت على مقدمة الجيش وليكن قابوس على الناس ان بني يربوع لا يحتاجون الى اكثر من كتيبتين ، وانت يا ابن زرارة ألا تبعث الى قومك بني دارم فيمشوا الى قتال الجماعة تحت لواء ولي العهد ؟

فقال الوزير المعجب بنفسه : ابعث الى بني دارم والى ناس غيرهم من تميم .

قال : افعل الآن .

فكتب حاجب الى بني قومه كتاباً يستحثهم فيه على القتال ، ويعين لهم موضعاً ينتظرون فيه الجيش العراقي الزاحف بقيادة ولي عهد العراق وعمه شقيق النعمان .

فلما ارسل رسله قال النعمان لاخيه :

يا حسان ، انك زاحف الى طخفة لتسترجع هيبة الملك وكرامته ، فكن في حرب بني يربوع غيرك في حرب المعيـــدي . . ولا تحسد ابن اخيك على القيادة فهو مولاك وابن مولاك ونحن انما نبعثه ليتعلم كيف يقود جيشه عندما نهلك . . فاذا اخطأ فرده بالحسنى الى الصواب وكن في قتال غدوك ، اعظم نفساً وارحب صدراً ، منك في قصور الحيرة . . وان ظفرت فلا تظلم . . ان العدو الذي نحـــاربه انما نحاربه ليرجـــع

عن غيه لا لنفنيه ، واذا استأمن القوم فاترك السيف ، فعـدوك اذا طلب امانك فقد اعترف لك بالسلطان .

ثم قال : واذا رأيت انك أضعف من ان تقـود الجيش الى النصر فاستنجدنا فننجدك « بالرهائن » ثم « بدوسر » ولك ان تختار من تشاء من فرسان « الاشاهب » فيكونوا لك اعوانـاً . . قم الآن فاعرض الجيش واعد العدة ، اخرج معه يا قابوس .

فخرج الاثنان .

فقال المنذر بن الملك : ألا يأذن لي مولاي في القتال ؟

فابتسم النعمان لولده وقال :

اليوم دور اخيك وغداً دورك .

* * *

وبعد عشرين يوماً ، عبأ حسن وقابوس الجيش .

فلم يبق الا ان يأمر الملك بالزحف الى طخفة .

ففي فجر اليوم الثاني والعشرين، خرج الملك من قصره ومعه خواصه ورجال بلاطه ، ليعرض الجند بنفسه .

وكان يسير على جواده بين صفوف الجيش وهـو يحدث الفرسان والقواد ــ والابتسامة على ثغره ــ حتى طلعت الشمس.

فأومأ الى حسان بالمسير .

فخفقت راية العراق ومشت الصفوف .

فوقف الملك والفرق تمر امامه وهو يبتسم لهـــا حتى اقبل قابوس تحت رايته وحوله اعوانه « اركان الحرب » من الاشاهب .

فهمز النعمان جواده حتى داناه فلثم جبينه وانحدرت دمعة على خده ولعله حاول ان يودع ولده بكلمة فخنقت الدموع صوته .

ثم أقبلت النوق تحمل الزاد والعـــدة والماء وحراسها من رجـــال « الصنائع » حتى تولى الجيش كله وخلت الساحة .

فقال النعمان لخواصه : ما خفق قلبنا مرة كما يخفق الآن ... انهـــا والله لحرب مشؤومة .

فقال حاجب بن زرارة : ذلك لان مولانا ولي العهد لم يخرج لحرب الا هذه المرة .

وقال عدي بن مرينا : ان قلب الملك يخفق الآن كما ستخفق رايـة العراق ظافرة في طخفة .

فقال شهاب اليربوعي في نفسه : ان هذه الراية ستمزقها سيوف بني يربوع ..

***

اما شهاب فكان احب اليه ان يقيم في صحراء قاحلة تسرح فيهـــا الوحش من ان يبقى في الخورنق بعد ان نحاه الملك عن كرسيه .

ولكن لم يكن يجسر على ترك الحيرة الا اذا طرده النعمان .

تلك ارادة بني قومه فاذا خالفها قتلوه ...

وماذا يفعل شهاب اذا ظفر بنو يربوع ودارت الدوائر على جيش الملك ؟..

افلا يقتله الملك تشفياً وانتقاماً ؟

بلى ... فاذا كان مقتولا في الحالين فالاجدر ان يطيع ابناء قومه .

اذن يبقى في الخورنق حتى تنتهي الحرب .

لكنه كان واثقاً بالفوز فاذا كان لا بد من الموت فليمت في الخورنق ذلك اشرف لعشيرته .

واما النعمان ، فمذ زحف الجيش ترك اللهو والصيد بل هجر مجلسه لا يرتاح الى حديث احد من رجال البلاط الا حديث هند .

لكنه لم يهجر الخمر ..

بل كان يشربها كلما توارت الشمس وراء الافق وهو مفكر هادىء لا يطرد جليساً ولا ينتهر حاجباً .

والجيش ...؟ أما الجيش فكان يزحف الى طخفة بخطى واسعة وقد انضم اليه بنو دارم وبعض بطون تميم .

وكانت طلائع يربوع في اعالي طخفة ؛ تنتظر قدوم الجيش لتعرفه وتحصي عليه حركاته .

والقوم في طخفة قد اجتمعوا واستعدوا للدفاع عن الشرف ..

فلما اصبح الجيش على بعد مرحلة واحدة ، بعث قابوس قائده الاكبر ، بكتاب الى القوم جاء فيه :

من قابوس بن النعمان الى اهل طخفة :

لقدنكثتم عهدالملك يا اهل طخفة ونبذتم الطاعة ، فاذا ندمتم فاستأمنوا

والا فالحرب ..

فكتبوا اليه يقولون :

إنا على العهد ما دامت لنا ردافة الملك ، والا فنحن نحارب حتى نموت .

فالتقى الجيشان واقتتلا .. فبسط الموت جناحيه فوقهما وكثر القتل . والسيف يحصد الرقاب فتتدحرج تحت حوافر الخيل حتى كان العصر .

فاذا بجيش العراق يتراجع الى الوراء وأهل طخفة يتقدمون .

فذعر قابوس ، وكيف لا يستولي عليه الذعر وهـو يرى الضعف يدب في صفوفه والرماح تسوق هذه الصفوف الى مواقف العار .

فخرج من تحت رايته والسيف في يده يستحث به الجنود ..

لكن الشاة لا تقاوم الذئب ، فبنو يربوع كانوا ذئاباً تطارد قطيعاً من الغنم .

والضعيف في موقف اليأس يمسي أسداً .. فجيش الحيرة اكثر عدداً من اهل طخفة ، وهذا ما جعل بني يربـوع يستهينون بالموت لتنتصر القلة على العدد الكثير .

فبينما كان قابوس يضارب من حوله من الرجال ، اذا به امام طارق « ابو عميرة » اليربوعي وقد مد اليه سنان رمحه وشد عليه .

فرأى الفتى الشجاع نفسه امام بطل لا قبل له بحربه ، فلوى عنق فرسه وهو يفضل الهزيمة على الاسر ، فضرب طارق فرس ولي العهد فعقره ، فهوى الفتى الى الارض والدمع من قهره يجول في عينيه .

فدارت حوله الرجال وأسروه ، ثم هم طارق بان يجز ناصيته فقال له الفتى :

« ان الملوك لا تجز نواصيها » .

فقال : اصبت فاعطني سيفك .

فأعطاه السيف واصبح ولي عهد العراق ، وقائـد الجيش الاكبر الذي تنحني له رؤوس القوم ، اسيراً ذليلا بين يدي عدوه .

اما حسان فلم يكن اسعد حظاً من ابن اخيه ، فان بشر بن عمرو ابن جوين كان يطلبه حتى التقيا ، فدافع شقيق الملك عن نفسه دفـاع الابطال حتى سقط السيف من يده . فلما عمد الى الرمح كان بشر أسبق الى انتزاعه فلم يبق للامير الا ان يستأثر له .

اجل ، ان ذلك الجيش الكثيف لم يصبر عل قتال اهل طخفة اكثر من يوم ، فعادت فلوله الحيرة تحمل العار والذل .

ولكن .. ولكن من يجرؤ ان يقول للنعمان ان ولي عهدك واخاك اسيران في طخفة ؟ ؟

ان خبراً مثل هذا يخرج الملك عن حده ...

غير ان رجلا من رجال الصنائع ، اقتحم ذلك الخطر ، والنعمان في مقصورته في اعلى الخورنق ومعه ولداه هند والمنذر وزرجون بن نوفل وعصام بن شهبرة .

فلما بصر به الملك مقبلا على سطح القصر قال لحاجبه :

ان هذا الرجل يحمل الينا اخبار طخفة ، فليدخل حالا .

فدخل غير متردد ولا خائف .

فقال له النعمان :

أقادم انت من طخفة ؟

ـ نعم يا مولاي أبيت اللعن ؟

فقرأ الملك على جبين الرجل سطور الهزيمة فقال :

أأنت رسول قابوس ؟

ـ لا يا مولاي اني رسول نفسي وانا من رجال الصنائع .

قال : أهكذا يظفر بنو يربوع وانتم اكثر عدداً من نجوم السماء ؟

فبغت الرجل وتردد في الجواب .

فقال النعمان وهو يبتسم :

ان آثار الذل مطبوعة على جبينك ، خبرنا كل شيء .

فاخذ يقص القصة وهو لا يجرؤ ان يذكر ولي العهد وعمه .

فخفق قلب النعمان كما كان يخفق عندما عرض جنده قبل زحفه الى طخفة ...

لكنه لم يضطرب ولم تتغير ملامح وجهه ..

والرجل يحكي حكاية الفشل وهو يتجاهل امر الاميرين

فقال الملك بصوته العادي ولهجته الهادئة :

أقتل حسان وقابوس يا رجل ؟

فتنفس الرجل الصعداء وقال :

لا يا مولاي لكنهما اسيران .

فتمتم النعمان قائلا : الحمد لله على كل حال ... اين شهاب بن قيس يا عصام ؟

ـ في غرفته يا مولاي .

ـ ليحضر الساعة .

فأقبل شهاب وهو مطرق ، ففاجأه الملك بقوله :

يا شهـــاب لقد انتصرت طخفة والرأي مـــا رآه أكثم بن صيفي وعدي بن زيد ، أما قابوس وحسان فهما اسيران « فان أدركتهمـــا حيين فلبني يربوع حكمهم وارد عليهم واترك لهم من قتلوا وما غنموا وأعطيهم الفي بعير » اذهب الآن فوالله ما سمعت خبراً اشد وقعـــاً من هذا ، واما اذا كانا قتلا فالويل لطخفة .

وكان شهاب يعلم ان قومه لا يقتلون اسيرهم فقال للملك :

اني ضامن حياة الاميرين يا مولاي .

قال : وانا اضمن لك الردافة ، فانصرف .

فخرج شهاب فركب ناقته وسار لا يلوي على شيء وقلبه يرقص من الفرح لرجوعه الى الوزارة شريفاً ظافراً .

فلما قدم طخفةاحتفى به قومه واستقبلته النساء ينشدن اناشيدالنصر .

وكان قابوس وحسان في بيت اخيه عبدالله .

فلما دخل عليهما اكب على ايديهما يقبلها ويقول :

انتما ضيف طخفة ولستما اسيرين ..

وبعد ثلاثة ايام ، عادا الاميران الى الحـــيرة يتقدمهما ذلك الوزير الجليل .

فعانقهما الملك ، ولم يرد الا ان يفي لبني يربوع بما قال :

فقال لحاجب بن زرارة .

عد الى مكانك الاول واعط شهاباً كرسيه .. ان الردافة لم تخلق الا لبني يربوع .

وماذا يقول حاجب وقد استرجع القوم ردافتهم بحد السيف .

فتنحى عن كرسي الردافة لشهـــاب بن قيس وهو يكاد يموت غيظاً وخجلا .

ومنذ ذلك الحين ، ترك ابن زرارة الخورنق عائداً الى ديار قومه ولم يفكر عربي بعـــده قط في ان يسلب بني يربوع ردافتهم المنزلة من السماء ...

وفي حرب طخفة يقول مالك بن نويرة الشاعر من قصيدة :

ونحن عقرنا مهر قابوس بعدما رأى القوم منه الموت والخيل تلجب
عليه دلاص ذات نسج وسيفـــه جراز من الهندي ابيض مقضب[1]

* * *

(١) « الدلاص » معناها الدرع اللينة الملساء ، « والجزار » السيف الماضي » .

١٨

أسواق العرب — مفاخرة بين كريمين

حرب الفجار

كان للعرب — كما ذكرنا فيما تقدم — اسواق يقيمونها في شهور السنة ويحضرها معظم العرب بما عندهم من المآثر والمفاخر .

ومواضع أسواقهم كثيرة ، منها « دومة الجندل » ارض بني كلب تنزلها العرب في اول يوم من شهر ربيع الاول فيبيعون ويشترون ، ويأخذون ويعطون ، ويتفاخرون بالعطاء والجود والشعر .

ومنها ، سوق « هجر » اي ارض البحرين ، ينتقلون اليها في شهر ربيع الآخر ، ويتولى امرهم فيها احد بني عبدالله بن دارم .

وسوق عمان والمشقر ، وصحار وحضرموت ، وذي المجاز الى غير ذلك من الاسواق .

واعظم اسواقهم كلها « سوق عكاظ » في واد بين نخلة والطائف وهو الى الطائف اقرب بينهما عشرة اميال .

اما المكان الذي يجتمعون فيه فيقال له « الاثيداء » تقوم فيه الصخور يطوفون حولها يتبايعون ويتفاخرون ، وتنشد الشعراء ما تجدد لهم من الشعر ، وقد ورد ذكر هذا في اشعارهم ، كقول حسان بن ثابت :

سأنشر ان حييت لهم كلاماً　　ينشر في المجامع من عكاظ

وفي عكاظ كان يخطب الخطباء ، منهم قس بن ساعدة الايادي الذي خطب خطبته المعروفة هناك وهو على جمله الاورق ، وفي عكاظ ايضاً علقت القصائد السبع الشهيرة افتخاراً بفصاحتها على من يحضر الموسم من شعراء العرب ، وسميت المعلقات ، وهي للشعراء السبعة ، امرىء القيس بن حجر — الذي ورد ذكره في رواية الحارث الاكبر — وطرفة بن العبد البكري ، وعنتر بن شداد المشهور وزهير بن ابي سلمى ، ولبيد بن ربيعة العامري ، وعمرو بن كلثوم حفيد مهلهل بن ربيعة والحارث بن حلزة اليشكري .

وكان كل شريف من اشراف العرب يحضر سوق بلده الا سوق عكاظ فكانوا يقصدونها من مختلف الاقطار ، فمن كان له اسير سعى في فدائه ، ولكل سوق حكومة يرأسها واحد من الاشراف .

اما سوق عكاظ فكانت حكومتها اولا في بني تميم ، ثم انتقلت بعدهم الى عبدالله بن جدعان اغنى اغنياء قريش ومن اعظم ساداتها ، فاذا قدمت العرب عكاظ دفعت اليه اسلحتها حتى يفرغوا من اسواقهم وحجهم ، ثم يردها عليهم اذا ظعنوا (١)

وكان بالحيرة سوق تجتمع اليها الناس كل سنة ، وينصرفون منها على الغالب الى سوق عكاظ .

وقد مرت بضع عشرة سنة على النعمان بن المنذر ، وسوق الحيرة من اعظم اسواق العرب، يتفاخر فيها الناس بكل شيء وسيد المتفاخرين

---

(١) الاغاني والمشرق

جميعاً ، بالجود والكرم ، سعد بن حارثة بن لام ، واخــوه اوس والدا فرعة وزينب زوجتي الملك العربي .

وهما من بني طيء كـما علمت ، وصهرهما النعمان يمدهما بالنوق والمــال ، ويعينهما بعطاياه على مفاخرة النــاس ليظلا اجود العرب واكرمها .

وقد جعل لهما في يوم سوق الحيرة ربع الطريق طعمة لهما ولحيهما بني لام « اي ربع ما كان يأخذه من ضريبة ؟

ففاخر بنو حارثة العرب جميعها وانتشر ذكرهم في العراق ونجد والحجاز وفي سائر الاقطار .

ففي يوم من الايام ، قبل شهر ذي القعدة ، اي قبل ان يجتمع الناس في سوق الحيرة ، وقبل ان ينصرفوا الى عكاظ ، كان النعمان في مجلسه في الخورنق ؛ وعنده سادات العرب وشعراؤها ، بينهم النابغة الذبياني ، وعبيد بن الابرص ، وبشر بن ابي خازم ، فقال لجلسائه :

من ترون انه اجود العرب في هذا العام ؟

فقال عدي بن مرينا : بنو حارثة يا مولاي .

اما عبيد بن الابرص فقال : ارى ان حاتم بن عبدالله سيفاخر بني حارثة ، « اي حاتم طيء »

قال : ايقدر ابو سفانة على ذلك ؟

قال : نعم فهو عدو ماله يخرج طعامه الى الفلاة فان وجد من يأكله معه اكل والا طرحه .

فقهقه الملك ضاحكاً وقال : ابمثل هذا يفخر حاتم ؟ ان عبيد الخورنق

يفعلون اعظم من ذلك .

فقال النابغة : لكنه يعطي الناس كما يعطيهم ملك العرب .

فقال : اضرب لنا مثلا يا ابا امامة .

قال : « فبينا نحن قادمون عليك وقد اخذ فينا الجوع ، رأينا نوقاً ترعى وفتى قائماً الى جانبها على الطريق ، فقلنا له : يا فتى هل من قرى؟ فقال ، تسألوني عن القرى « الطعام » وانتم ترون النوق ؟ ونحر لنا ثلاثة من الابل ، فقال له عبيد : انما اردنا بالقرى اللبن وكانت تكفينا ناقة واحـــدة اذا كنت لا بد متكلفا لنا شيئا » اتعلم يـــا مولاي ماذا كان جوابه ؟

قال : خبرنا .

فقال : اجابنا بقوله : « رأيت وجوها مختلفة وألوانا متفرقة فظننت ان البلدان غير واحدة فأردت ان يذكر كل واحد منكم ما رأى اذا أتى قومه فقلنا فيه يا مولاي اشعاراً امتدحناه بها وذكرنا فضله ، فقال لنا حاتم : اردت ان احسن اليكم فكان لكم الفضل علي ؛ فانا اعاهدالله ان اضرب عراقيب ابلي عن آخرها او تقدموا اليها فتقتسموها » .

فقال النعمان : أفعلتم ؟

قال : نعمفاقتسمناهافاصاب الواحد منا تسعة وتسعين بعيراً ومضينا على سفرنا اليك .

فقال : وأين النوق الآن ؟

فقال بشر : هنا يامولاي يسمع جعجعتها اهل الحيرة.

وكان النعمان يعلم ان عبدالله ابا حاتم ينهى ولده حاتمـــاً عن التبذير

والاسراف ، فقال :

وماذا فعل عبدالله ؟

قال : عندما سمع بما فعل اتاه فقال له :

« اين الابل يا حاتم ؟ فقال : طوقتك بها يا أبت طوق الحمامة مجد الدهر وان بيتاً من الشعر يثنى به علينا لأفضل من ابلك ، فلما سمع ابوه ذلك قال : أبأبلي فعلت ذلك ؟ قال نعم ، قال : والله لا اساكنك ابداً ، وخرج ابوه باهله وترك حاتماً ومعه جاريته وفرسه وفلوها » .

ــ ومن قال لكم ذلك وانتم في الحيرة ؟

ــ رجل من بني سعد قدم الحيرة أمس ، وقد سمع حاتماً يذكر تحول أبيه عنه بابيات من الشعر .

ــ أحفظت شعره يا بشر ؟

ــ حفظت بعضه يا مولاي ، وهو من الشعر الجيد .

ــ اعد علينا ما سمعت .

فقال : قال حاتم :

« واني لعف الفقر مشترك الغنى	وتارك شكل لا يوافقه شكلي
وأجعل مالي دون عرضي جنة	لنفسي وأستغني بما كان من فضلي
وما ضرني ان سار سعد باهله	وأفردني في الدار ليس معي أهلي
سيكفي ابتناء المجد سعد بن حشرج	واحمل عنكم كل ما ضاع من نفل »

فاهتم النعمان لما سمع ، واكبر ان يزاحم حاتم اهل زوجته في سوق الحيرة وهو صهرهم : فقال :

لقد بدأت العرب تفد على الحيرة لتقيم سوقها ، فسنرى اي رجل

من طيء اكثر جوداً من الآخر ، ألم يقدم بنو حارثة بعد ؟

فقال ابن مرينا : لم يقدم احد من طيء .

فصرف النعمان جلساءه وهم فريقان :

فريق حزب لحاتم ، والآخر لبني حارثة ، وابن مرينا يميل الى هؤلاء ، لمنزلتهم من النعمان ، ولانه يريد ان يفوز بثقته لغرض من اغراضه .

* * *

والمفاخرة بالجود ، نوع من انواع السباق يتراهنون عليه كما يتراهنون اليوم على سباق الخيل او على صيد الحمام ...

فاذا تفاخر كريمان في احدى أسواق العرب ، انقسم الناس جميعهم قسمين ، يبذل كل قسم منهما ماله لصاحبه ليفاخر خصمه ، وقد تستعر لهذا السبب نار الحرب بين المتفاخرين اي بين احياء العرب ، فيقوم السيف مقام كل شيء ...

وكان حاتم من شعراء العرب ، وهو كريم جواد ، كما يعلم جميع الناس ، يشبه جوده شعره ، ويصدق قوله فعله ، وحيثما نزل عرفت العرب منزله .

وكان مظفراً اذا قاتل غلب ، واذا غنم جعل ما غنمه نهباً ، واذا سئل وهب ، واذا ضرب بالقداح « أي اذا لعب بالقمار » فاز ، واذا سابق سبق ، واذا اسر اطلق .

وكان اذا اهل الشهر الاصم (١) الذي كانت مضر تعظمه في الجاهلية ينحر في كل يوم عشراً من الابل فاطعم الناس واجتمعوا اليه .

وكان ممن يأتيه من الشعراء ، الحطيئة وبشر بن ابي خازم .

هذا ما يذكره التاريخ العربي عن حاتم ، وبنو حارثة ليسوا اصغر من حاتم شأناً ، فهم اشراف طيء وسادتهم ، ولهم الصوت البعيد في بلاد العرب .

واصعب شيء على بني حارثة، ان يغلبهم احد في الكرم ، او يجاريهم في العطاء ، فكانوا اذا رأوا جواداً له منزلته بين القوم ، يعالجون امره بالحيلة او بالقوة حتى يفضحوه .

كذلك كانوا يفعلون اذا استقوى احـد انسبائهم من بني طيء فلا يطيقون ان يروا في حيهم راساً عالياً غير رؤوسهم ، وصوتاً مسموعاً غير اصواتهم .

وكل ذلك ليستأثروا بالنفوذ والسيادة ويحفظوا لبيتهم ذلـك المجد الذي يسنده النعمان بماله وسلطانه .

هكذا كان يفعل الزعماء من قبل ، وهكذا يفعلون اليوم ...

ولكن من حق بني حارثة ان يفخروا ، فأبوابهم مفتوحة للضيف ، وقدورهم على النار ، وطعامهم مباح للرائح والغادي من العرب ..

وملك العرب العظيم صهرهم ، وهذا وحده يكفي ، ليفـاخر بنو حارثة جميع الناس .

---

(١) الشهر الاصم شهر رجب دعي الاصم لانه لم يكن يسمع فيه حركـة قتال ولا قعقعة سلاح .

فقبل ان يجتمع الناس في الحيرة ليقيموا سوقهم ، اقبل على بني طيء رجل اسمه الحكم بن ابي العاصي ، ومعه عطر يريد الحيرة ، فسأل حاتماً الجوار في ارض طيء حتى يصير الى عاصمة العراق ، فاجاره حـــاتم ، ونحر له الجزور فأكلوا ، وعند حاتم ، ابن عمه ملحان بن سعد .

فلما فرغوا من الطعام ، طيبهم الحكم من الطيب الذي يحمله .

« ثم خرج حاتم على راحلته يوما وفرسه تقاد ، وليس معه من بني ابيه غير ملحان الذي تقدم ذكره .

فاتاه بنو لام ، وفيهم سعد بن حارثة .

فوضع حاتم طعامه وقال :

اطعموا حياكم الله .

فقالوا له : من هؤلاء معك يا حاتم ؟ « وهم يريدون الحكم بن ابي العاصي ومن معه » .

قال : هؤلاء جيراني .

فقال له سعد بن حارثة وهو يريد ان يفضحه :

فأنت تجير علينا في بلادنا ؟؟

قال : انا ابن عمكم واحق من لم تخفروا ذمته .

فقالوا : لا والله.

واراد القوم ان يفضحوه كما فضح قبله عامر بن جوين في حادثة مثل حادثته .

ووثبوا اليه .

فأهوى حاتم لسعد بن حارثة بالسيف فأطار «ارنبة انفه» ووقع الشر .

ثم تحاجزوا ، « اي كفوا عن القتال » وقالوا لحاتم :

بيننا وبينك سوق الحيرة فنفاخرك ونضع الرهن .

فرضي حاتم ، فوضعوا تسعة افراس رهنا على يد رجل من بني كلب يدعى امرؤ القيس بن عدي ، ووضع حاتم فرسه .

وكان اياس بن قبيصة يومئذ في قومه .

فلما سمع ذلك ، جمع قومه بني حية وقال :

يا بني حية ، ان بني لام يريدون ان يفضحوا ابن عمكم حاتما ، وانا اخشى ان يعينهم صهرهم النعمان بن المنذر بماله وسلطانه فيلزمنا العار الى الابد ، اليوم يومكم .

فقال رجل منهم : عندي مائة ناقة سوداء ، ومائة ناقة حمراء فليأخذها حاتم .

وقام آخر فقال :

عندي عشرة افراس على كل فرس منها فارس مدجج لا يرى منه الا عيناه .

ثم قام آخر ، وهو حسان بن جبلة الخير ، فقال :

قد علمتم ان ابي قد مات، وترك مالا كثيراً ، فعلي كل خمر وكل لحم او طعام ما اقمنا في سوق الحيرة .

واياس ساكت وهو يسمع اقوالهم ؛ فلما انتهوا قال :

علي مثل جميع ما اعطيتم كلكم .

واخذوا يعدون عدة السفر الى الحيرة وحاتم لا يعلم بشيء مما فعلوا .

وهكذا فعل بنو لام ، عدوا الخيل والنوق ، واحصوا ما عندهم من

مال ، واعتمدوا في فوزهم ، على صهرهم النعمان الملك على عادتهم في كل سنة .

وبعد ايام خرج القوم جميعهم حتى انتهوا الى الحيرة وساحاتها تموج بوفود القبائل وطوائف الخيل والنـــوق ، وصنوف الطيب والجـــلود والقماش ، وقد استعدوا ليقيموا النوق .

وكان الهم يملأ صدر حاتم ؛ وهـو يعرف غنى بني حـارثة ، وكثرة مال صهرهم النعمان .

فقصد ابن عم له في الحيرة يدعى مالك بن جبار وهو كثير المـال ، فقال له :

« يا ابن عم أعني على مفاخرتي »

فقال له : ما كنت لاخرب بيتي ولا عيالي واعطيك مالي .

فانصرف عنه والدنيا تسود في عينيه .

ثم اتى ابن عم آخر له يدعى وهم بن عمرو وليس بينه وبينه صحبة وهو لا يكلمه .

فقالت زوجة وهم لرجلها :

هذا والله ابو سفانة حاتم قد طلع .

فقال : ما لنا ولحاتم اثبتي النظر .

فقالت : ها هو .

قال : ويحك هو لا يكلمني فما جاء به الي .

قالت : لا اعلم .

فنزل حاتم حتى سلم عليه فرد سلامه وحياه ثم قال :

ما جاء بك يا حاتم ؟

قال : خاطرت على حسبك وحسبي .

فقال : في الرحب والسعة هذا مالي .

وقص عليه حاتم القصة .

فاشرق جبين الرجل وقال :

عندي تسعمائة بعير فخذها مائة مائة حتى تذهب الابل جميعها او تصيب ما تريد .

فقالت امرأته : يا حاتم ، انت تخرجنا عن مالنا وتفضح صاحبنا « تعني زوجها »

فقال لها وهم : اذهبي عني فوالله ما كان الذي غمك ليردني عما اردت .

فقال حاتم :

الا ابلغا وهم بن عمرو رسالة فانك انت المرء بالخير اجدر

رأيتك ادنى الناس منا قرابة وغيرك منهم كنت احبو وانصر

اذا ما اتى يوم يفرق بيننا بموت فكن يا وهم ذو يتأخر(١)

وخرج حاتم من عنده وهو مستبشر وقد وثق بالفوز .

أما سعد بن حارثة فقد رأى ان يقابل الملك قبل ان يجتمع الناس .

فلما وقعت عليه عين صهره ، ورأى انفه الجريح ، قال له :

ما وراءك يا سعد .

فقال : سيفضحني ابن عبدالله حاتم يا مولاي .

---

(١) ذو في لغة طيء «الذي »

فاضطرب النعمان واصفر وجهه ، فقال :

وكيف ذلك ؟

فروى له سعد كل ما جرى بينه وبين حاتم .

فاطرق النعمان قليلا ثم قال :

لقد بدأت بالشر يا سعد ، وانا لنراك تستحل مالنا حتى لتبذله كله في سبيل مفاخرتك وانت لا تبالي ، الا تعلم ان اولادنا احق بهذا المال الذي نعطيك اياه لتنفقه في السوق ؟ ام انكم لا تريدون يا بني حارثة ان ينزل ضيف من العرب على حاتم ؟ ! الا فاعلموا ان حاتماً ليس من عبيدكم وانه حر في ماله يعطيه من يشاء ويمنعه من يشاء وله ايضاً ان يجير من يشاء فارضكم ارضه وبلادكم بلاده وهو مثلكم من سادات بني طيء . . .

فانطرح سعد على قدمي صهره يستغيث به ، والنعمان لا يقبل ولا يلين .

واذا بقابوس قد دخل .

فرأى جده يبكي كما تبكي الاطفال .

فقال : اسعد بن حارثة يستعين بالدموع ؟ . . ما لسعد يبكي يا مولاي .

فقال الملك : كلما اجتمع الناس مرة في سوق الحيرة اعطينا جدك نصف مالنا يفاخر به اجواد العرب ، لكنه لم يرض بهذا بل اخذ يراهن الناس على المفاخرات وهو يرى ان بيت المال في العراق له وحده لا شريك له به حتى راهن اخيراً حاتم بن عبدالله الطائي وجاء يسألنا ان

نعينه . ! فكيف ترى يا قابوس ، انعطيه كل ما عنـــدنا ولا نبقي لكم شيئا ؟ ومن يضمن لنا ان القبائل النازلة بالحيرة لا تعين حاتماً ولا تقف الى جانبه في السوق فيفضح جدك نفسه ويفضح الملك ؟ ؟

فقال قابوس : ليس في سوق الحيرة من الخيل والنوق والمال اكثر مما عندك يا مولاي ، فاذا فضح بنو حارثة وغلبهم حاتماً لحقت الفضيحة الملكتين ، امي وزينب ، ثم اذا عيرتهما العرب بهذا فكأنما تعير الملـــك واولاده من بعده وجميع آل لخم .

والملك لا يرضى ان يرتفع في العرب رأس فوق رأسه ، فانظر في هذا يا مولاي قبل ان ينصرف جدي ويبدأ الحيّان بالمفاخرة .

فنظر النعمان الى ولده نظرة فيها شيء من الغضب ؛ ثم قال :

اتجود بمال الملك يا قابوس ليفوز جـــدك ؟

فقال : بل أجود بمال الملك وولي عهده وزوجتاه وسائر افـــراد البيت المالك ، الم تجعل لولي عهدك طائفة من النوق والخيل يا مولاي ؟

ـ بـــلى .

ـ اليس عددها خمسة آلاف ؟

فضحك النعمان وقال :

كان عددها خمسة آلاف يوم ولدت .

ـ اذن هي اليوم اكثر من عشرين الفاً ؟

ـ اجل ، فما هو غرضك من السؤال ؟

قال : نزلت عنها كلها لجدي سعد . . .

ففرح الملك بهذه الروح العالية والخلق الكريم ، فقال :

وتصبح فقيراً ؟ ؟

قال : حسبي اني قابوس بن النعمان .

فارتسمت دلائل العز على جبين الملك وقال :

وحسب الملك ان ولي عهده اجود العرب .

ثم التفت الى حميه وقال له :

لقد اعناك يا سعد ففاخر من تشاء .

فنهض الرجل والدموع تملأ عينيه ، وخرج وهو يتوكأ على ذراع حفيده قابوس ويقول :

لقد حفظت مجدنا يا بني .

فقال : ليس كثيراً على ولي عهد العرب ان يعين جده .

واجتاز القاعة الى الرواق الكبير فالتقيا بعدي بن مرينا : فقال لسعد. السنا انصارك على حاتم وبني جية ؟ اطلب ما تريد فمالي كله هو مالك . .

فشكر سعد واثنى عليه ، ثم قال له :

ابنو حية يعينون حاتماً ؟!

قال : نعم وعلى رأسهم سيدهم اياس بن قبيصة ، وقد سمعت انه سيقابل الملك في هذا .

فعاد الهم الى صدر الرجل وقال لقابوس :

ايفسد علينا امزنا ابن قبيصة ؟ والله لا اراه يقابل الملك حتى يخرج من مجلسه وقد ارضاه .

فقال قابوس : ان الملك لا يكون عوناً لخصوم اهله .. تعال ننظر

في امرنا قبل ان تجتمع العرب .

وانصرفا ومعهما عدي بن مرينا .

اما السوق ، فستقام في اليوم الثاني ،وقد تناقلت الافواه خبر الرهان وكثرت ظنون القوم واقاويلهم هذا يشايع حاتماً وهذا يشايع بني حارثة، والفريقان يعلمان ان كلا المتفاخرين سيملأ ايدي القوم مالا مما سيبذله يوم السباق . .

وفي اقل من ساعة ، عرف اهل الخورنق جميعهم ان الملك سيعطي سعداً مال ولي العهد .

فقد اذاع الخبر عدي بن مرينا وهو يعتقد انه اذا اذاعه تنحى حاتم عن السوق خوفاً من الملك ، فيتم الفوز لبني حارثة من اهون الطرق ، دون ان يعينهم هو بدرهم واحد من ماله .

وانتشرت الحكاية في البلد ، فاخذ غلمان بني لام ينادون قائلين : اذا كان مال الملك في يدي سعد فلا نخاف احداً .

وكان اياس بن قبيصة في خيمة له ، ينظر في الامر ويعد عدته مع رهطه وانصار حاتم ، وهو لا يريد ان يقابل الملك او احداً غيره من رجال الخورنق لئلا يظن الناس ان انصارحاتم يستعينون برجال القصر.

فلما خبره رجاله ما سمعوه ، امتلأ صدره غيظاً وقال :

احملوني الساعة الى الملك .

فحمل حتى اصبح امام قاعة الجلوس ، وعند الملك بعض وفود العرب .

فقال لصاحبه عصام بن شهبرة وعيناه تبرقان : الا يأذن لي مولاك

في الدخول ؟

فابتسم عصام قائلا : اراك قدمت لشريا اياس وعند الملك السادات والامـــراء .

فقال : لا ازل من محفتي حتى ادخل عليه وا كلمه وحـــده ، ومن عنده من العرب ؟

قال : قوم من ثقيف وهوازن وكنانة بينهم البراض بن قيس الكناني، الذي خلعه قومه ، ومروة بن عتبة الكلابي .

فقال : لا اعرف احداً من هؤلاء ؛ قل للملك ما ذكرت لك .

فدخل عصام فقال :

لقد اقبل اياس على محفته يا مولاي .

فاجابه الملك قائلا : مرحباً بالقادم فليدخل .

قال : يسأل الملك ان يأمر بخلوة .

فقال النعمان دون ان يتردد : لقد امرنا بذلك فليخرج من في المجلس وليدخل ابن قبيصة .

فقام الناس فخرجوا وهم يتلفتون ليروا هذا القـــادم العظيم الذي يملي ارادته على النعمان .

فرأوا رجلا ضعيف الجسم ابيض اللحية يحمل في محفة .

فقال احدهم : اهذا اياس بن قبيصة الذي يملأ اسمه بلاد العرب .. قالها بلهجة استخفاف .

فاجابه عصام قائلا : اخفض صوتك فاذا سمعك فقد جنيت عـــلى نفسك ..

ثم دخل اياس فحطه رجاله امام السرير وتراجعوا الى الوراء حتى خرجوا .

فقال اياس : انعم صباحا ابيت اللعن .

فقال النعمان : وحياك الهك ، فماذا تشاء ؟

قال : اتمد اهل نسائك بالخيل والمال ايها الملك ؟ اظن بنو لام ان يصنعوا بحاتم كما صنعوا بعامر بن جوين قبله ولم يشعروا ان بني حية بالبلد . ؟ فان شئت والله ناجزناك حتى يسفح الوادي دماً . فليحضروا مجادهم غداً بمجمع العرب » وسنرى من يفوز ...

واي رجل في العرب يجرؤ ان يخاطب النعمان بمثل ما خاطبه اياس ابن قبيصة ..؟

فعرف النعمان الغضب في وجه اياس وكلامه .

« يا احلمنا ، لا تغضب فاني سأكفيك » وسأرى سعداً .

فقال : الان ؟

قال : في هذه الساعة فلا نعطي خصومك شيئاً .

ثم نادى الملك حاجبه فقال له :

قل لرجال اياس ان يحملوه ولينصرفوا وقل لسعد بن حارثة ان يحضر مع ولي العهد .

فخرج اياس وهو يبتسم بعد ذلك الغضب .

وكان جواب النعمان ، جواب ملك حكيم يحقن دماء شعبه فلا يقذف بهم الى النار ..

وما هي الا ساعة حتى اقبل ولي العهد ووراءه جده سعد وجماعة من

صحابه واهله .

ففاجأ النعمان سعداً وجماعته بقوله :

« انظروا ابن عمكم حاتما فأرضوه » .

فقال قابوس : ماذا جرى يا مولاي ؟

قال : لم يجر شيء فدع الكلام لبني حارثة ، اتذكر لي يا سعدحاتما ولا تذكر اياس بن قبيصة ؟

فقال سعد : مالي ولاياس يا مولاي .

قال : لقد جـاءنا الان في محفته يرغي ويزبد وهـو يتهم الملك بمشايعة اهله .

فقال رجل من بني لام : ومن هو اياس بن قبيصة حتى يخرج الملك عن رأيـه ؟

فاجابه قائلا : الملك يعرف ماذا يقول ، انسعر بيـدنا نار الحرب لتفاخروا الناس ؟ « لا والله ما نحن بالذين نعطيكم مالنا تبذرونه ومـا نطيق بني حية» . فاذا فاخرتم حاتماً ففاخروه بمالكم وافضحوا انفسكم ان شئتم فان بين يدي حاتم مالا يشتري به الحيرة وما فيها اذا اراد .

ثم التفت الى قابوس وقال :

نقول هذا لتسمع يا قابوس ، ان كل ناقة تهبها لجدك سعد تنطرح حولها الرجال جثثا من الفريقين فلا تزال النار تضطرم وتمتد حتى تندلع السنتها في قصر الخورنق ، افهمت الان لماذا لا نعين بني لام ، انا اياس ابن قبيصة لا يسكت على ذل ، فما هو الا ان نمد يدنا لبني لام حتى يعمد بنو حية الى سيوفهم وتمشي وراءهم قبائل عين التمر وما والاها فتجري

بين بيوت الحيرة واسواقها انهار من الدماء ، فوالله لئن عرفت انـــك ساعدت جدك بناقة واحدة لاساعدن حاتماً بألف حتى يفتضح بنـــو لام الى الابد .

فقال قابوس : ما كنت لافعل الا ما يأمر به الملك .

قال : هذا ما اريده فلا تغتر بمـــا تسمع وترى .. وانت يا سعد ، الا تكف عن هذه المفاخرة التي ستجر الويل .

فقال سعد : وارش(١) انفي يا مولاي ؟

فقال الملك : دع هذا ايضا فان الحرب من ورائه .

فخرج بنو لام وهم يلعنون اياس بن قبيصة .

حتى اتوا حاتما وهو في خيمته وعنده وجوه انصاره وجماعـــة بني حية بينهم اياس .

فقالوا لحاتم : « اعرض عن هذه المفاخرة نـــدع ارش انف ابن عمنا سعد » .

قـــال : « لا والله لا افعـــل حتى تتركوا افراسكم » وتعترفوا بالضعف والعجز .

فقالوا : « تركنا ارش انف صاحبنا وافراسنا قبحها الله وابعدها » .

« فعمد حاتم الى الأفراس فنحرها واطعمها الناس وسقاهم الخمر ، وقال في ذلك قصيدة مطلعها :

ابلغ بني لام بان خيولهم عقرى وان مجادهم لم يمجد

---

(١) « الارش » قيمة من المال تدفع بدل العضو المقطوع او المكسور من جسم الانسان .

فسر اياس وحمل الى الملك فقال له :

ابيت اللعن يا مولاي لقد حقنت الدمـــاء وحفظت العرب ، فنحن قومك ما دمت .

فابتسم النعمان قائلا : ما كنا لنغضبك يا ابن قبيصة في امر مثل هذا، كيف حال صاحبك حاتم ؟

واذا بحاتم قد اقبل وهو يستأذن .

فقال اياس : هذا صوت حاتم ايها الملك .

فأمر به فأدخل ، فلما بصر به الملك مقبلا مد اليه يده وهو يقول : بارك الله فيك يا اجود العرب .

فاجابه حاتم : وأمامك يا ملك العرب تنحني رؤوس الاجواد .

قال : لقد ضيعت مال قومك يا حاتم .

قال : بل اشتريت لهم به اثواباً من المجد لا تبلى ، اتلومني على بذلي المال ايها الملك وانت الوهاب الكثيرالعطاء الذي يملأ العراق احسانك؟

فقال : ما نلومك على شيء نحن على مثله ، اطلب ما تشاء .

قال : اسأل الله ان يحفظ حياة الملك وحياة بنيه .

ــ وغير ذلك ؟

ــ وماذا اطلب غير ذلك ايها الملك وانا ان اعطيتني مالا انفقته قبل ان اجتاز الخورنق ..

ــ اليس لك مطمع بشيء يا ابن عبدالله ؟

فقال : ليس لي في الحياة غرض الا ان اشرف قومي .

قال : وانك قد شرفتهم ، احضر مجلسنا غــداً قبل ان تنصرف ،

واحضره يا اياس .

فقال اياس : لا ننصرف يا مولاي حتى تنتهي السوق ونرى من يذهب الى عكاظ .

ـ اذاهب انت ؟

ـ لا يامولاي فبين الحيرة وبين عكاظ مراحل لا يجتازها ابن قبيصة .

ـ وحاتم ؟

فقال حاتم : اشاور قومي فاذا أرادوا فعلت .

قال : أصبت فحياتك ليست لك بل لقومك .

* * *

وقامت السوق .. بين بائع ومفاخر وشاعر ،والناس جميعهم يدعون للملك ويتغنون بفضله .

حتى اوشكت السوق ان تنتهي والملك لم يجلس للناس كما وعد اياس بن قبيصة وحاتماً .

ذلك لانه رأى ان يدعو العرب النازلة بالحيرة جميعها الى الطعام ، قبل ان يجلس لهم .

وهكذا فعل ، ففي اليوم الخامس والعشرين من الشهر ، طافت الحجاب والحراس في الصفوف وهم يقولون :

لا ينصرف احدكم الى بلده قبل ان يحضر مأدبة النعمان .

والطعام بسطوه في ساحات الحيرة امام الخورنق حتى ان الحيرة بما

فيها شيوخها وشبابها واطفالها واضيافها اكلت من خبز الملك .

ليعش ملك العرب ولتكثر خيراته ...

ذلك كان دعاؤهم وهم يأكلون ...

والنعمان بينهم يحدث من حوله من الاشراف ويبسم لاضيافه .

وكان اياس قريباً منه ، فقال له :

اي السوقين افضل يا ابن قبيصة ، عكاظ ام الحيرة ؟

فقال ابن مرينا : السوق التي يحضرها الملك .

فهمس اياس في اذن حاتم قائلا :

لغن الله هذا الرجل اني لا اراه الا وارى الشر منبعثاً من عينيه .

ثم قال للملك : ان سوق عكاظ يا مولاي اميرة الاسواق ، اليهـا تجتمع عرب الحجاز واليمن ونجد وتهامة والبحرين ، وتفد عليها الامراء والشعراء من جميع البلاد فلا يبقى في العرب غني وشريف وشاعر الا ويشد اليها رحاله ، ولكن ليس في عكاظ ملك يدعو العرب ويبسط لهم طعامه كما يفعل النعمان بن المنذر ، ان الحيرة في هذا افضل من عكاظ .

فرفع النعمان صوته قائلا :

ايها الناس من يذهب منكم الى عكاظ ؟

فارتفعت اصوات بعضهم يقولون : انا ذاهبون ايها الملك .

فاخذ يجيل نظره بالقوم كأنه يفتش عن رجل يعجبه ..

فقال اياس في نفسه: هذا النعمان يبحث عن واحد يجيز له لطيمته(١)

(١) اللطيمة : الطيب او النوق التي تحمل الطيب وصنوف الثياب والسلاح .

وكان النعمان يبعث الى سوق عكاظ كل عام بلطيمة يجيزها له احدهم فتباع ويشترى له بثمنها الجلود والحرير والحذاء والبرود ، فاذا انصرفت العرب الى الحج بعد عكاظ عادوا الى الحيرة يحملون للنعمان ما اشتروه من متاع .

وللنعمان طريقة خاصة في ارسال لطيمته الى عكاظ ، كان يقول لجلسائه قبل شهر : سنبعث الى عكاظ بلطيمة فمن يجيزها ؟

فيقوم احدهم فيقول انا ..

وذلك لان اللطيمة كانت عرضة للاخطار ، اخطار النهب والسلب، فشذاذ العرب كثيرون في الطرقات والساحات والقرى ولا سيما في ايام الاسواق ، وفي العرب قبائل كثيرة لا تعرف النعمان ولا تعترف به ملكاً ، فاذا مرت لطيمته بارضها تصدت لحراسها وسلبوهم ما معهم وقد تنتهي الحادثة بالقتل .

من اجل ذلك كان الملك بحاجة الى من يجيز له تجارته ، اي يحفظها في الرواح والمجيء .

ثم قال الملك : من اراد ان يحضر مجلسنا فموعده غداً .

وهو يريد ، كما قال اياس ، ان يختار حارساً للطيمته .

وكسرى نفسه كان يفعل فعل النعمان فيبعث الى عكاظ او ذي المجاز لطيمة ويجيزها له العرب .

وشرب الناس جميعهم حتى سكروا ، فقاموا فتفرقوا في الحيرة ، وعاد النعمان الى قصره مع خواصه واهل دولته .

* * *

غص مجلس النعمان ، في اليوم الثاني ، بالابطال والنبلاء .

وهم من مختلف الاقاليم ، بينهم البراض بن قيس من بني كنانـــة ، وعروة بن عتبة الكلابي ، ويقال له الرحال ، وقد مر ذكرهما .

وللبراض بن قيس حكاية ، فقد كان سكيراً فاسقا فاتكا ، كثـــير العربدة كثير الشر .

فخلعه قومه وتبرأوا منه .

فلجأ الى بني عمه ، بني الدليل ، فشرب فيهم فخلعوه .

فلم يبق له الا ان يستجير بقريش .

فأتى مكة « وقريش وكنانة فرعان » فاستجار بحرب بن امية كبير قريش يومئذ فحالفه حرب واحسن جواره .

لكنه لم يترك الخمر ، بل اخذ يشرب بمكة والناس يعجبـــون لفاسق خليع ينزل بجوار حرب .

فهم حرب بان يخلعه ، كما فعل به قومه وبنو عمـه ؛ فقال لحرب :

« انه لم يبق احد ممن يعرفني الا خلعني سواك ، وانك ان خلعتني لم ينظر الي احد بعدك ، فدعني وانا خارج عنك »

ثم ترك مكة ولحق بالحيرة حتى اتى النعمان ، وعاصمة النعمان ملجأ الفارين ومعقل الخائف .

اما عروة « الرحال » فهو من هوازن « من قيس عيـــلان » وكان بطلا شجاعا .

فلما جلس الناس قال الملك لقهرمانه :

أجهزتم اللطيمة ؟

قال : نعم وقد اعددنا كل شيء .
فنظر الى جلسائه قائلا :
من يجيزها لنا يا معشر العرب .
فانبرى البراض الخليع يقول :
« انا اجيزها على بني كنانة ، « اي على اهل الحجاز » .
فقال النعمان : « انما نريد رجلا يجيزها على كنانة وقيس .
فقال عروة الرحال : « ا كلب خنيع يجيزها لك يا مولاي ؟ ابيت اللعن انا اجيزها على اهل الشيح والقيصوم من اهل تهامة ونجد » .
فغضب البراض وقال : « وعن كنانة تجيزها يا عروة ؟
قال : « وعلى الناس كلهم » .
فقال النعمان : حسبك يا عروة لقد دفعنا اليك اللطيمة فاخرج بها غداً.
فامتلأ صدر البراض غيظاً وقال في نفسه :
والله لا ادعه يجاوز حياً من احياء العرب .
فعرف بعضهم ان البراض يضمر الشر وقد قرأوا دلائله على جبينه الاصفر . . .
اما الناس فسكتوا جميعا ، وكان بينهم من يريد ان يجيز لطيمة الملك لو لم يسبقه عروة الى ذلك .
فلما كان اليوم الثاني خرج عروة بلطيمة الملك ومعه رجالها من اهل الحيرة .
فخرج البراض خلفه يتبع اثره وعروة يرى مكانه ولا يخشاه .
فقال النعمان لوزيره بعد خروج عروة :

اترى عروة قادراً على هذا ؟

فقال شهاب : نعم لولا هذا الخليع اللعين الذي خرج وراءه .

فقال النعمان : ما كان مثل البراض ليجتريء على ابن عتبة .

فقال : بل تحدثه نفسه بأن يناجز السماء لو استطاع الصعود اليها ، أخليع يرعى حرمة ؟ ان عروة لمقتول يا مولاي .

فلم يصدق النعمان ان البراض يتصدى للطيمته المقدسة .

حتى اذا كان عروة في ارض يقال لها اوراة الى جانب بلد يدعى فدك ، نام في ظل شجرة هناك وهو لا يهتم للبراض ولا يحسب له حساباً .

فوجـــد البراض غفلته وهو انما يتبع اثره ليجد هذه الغفلة فيقضي عليه .

فدنا منه وعروة يغط في نومه حتى حـــاذاه فضربه بالسيف فقتله ، وانصرف الى موضع في الوادي فكمن فيه .

فلما رأتَ رجال اللطيمة زعيمهم قتيلا ، هربوا .

فاستاق البراض النوق الى «خيبر» وبعث رسولا الى حرب بن امية في عكاظ يخبره انه قتل عروة ، ويسأله ان يكتم الخبر لئلا تعرف «قبائل قيس عيلان» فتقتل بعروة ، عظيماً من عظماء قريش .

فنشر حرب بن امية الخبر بين اشراف قريش ، مثل هشام والوليد ابني المغيرة ، وعبدالله بن جدعان ، وغيرهم من رؤساء القوم .

وكانت العرب قد دفعت اسلحتها الى ابن جدعان حتى يفرغوا من سوقهم وحجهم .

فقال حرب لعبدالله : احفظ سلاح قيس عيلان .

فقال له ابن جدعان : « ابالغدر تأمرني يا حرب ؟ والله لو علمت انه لا يبقى منها سيف الا ضربت به ولا رمح الا طعنت به ما امسكت منها شيئا ، ولكن لكم مائة درع ومائة رمح ومائة سيف في مـــالي تستعينون بها » .

ثم صاح ابن جدعان في الناس :

من كان له عندي سلاح فليأت وليأخذه .

فأخذ الناس سلاحهم .

ثم بعث اشراف قريش الى عامر بن مالك « ملاعب الاسنة» وهو زعيم قيس يقولون له « نحن راجعون الى مكة فقـــد نشبت فيها حرب وخفنا تفاقم الامر فلا تنكروا رجوعنا » .

فلما كان آخر النهار ، بلـــغ ملاعب الاسنة قتل البراض عروة ، فقال لقومه :

خدعني حرب وابن جدعان ؟ قوموا نزحف الى مكة .

فركبت هوازن في اثر القوم فادركوهم في مكان يقـــال له نخلة ، فاقتتلوا هناك ، حتى دخلت قريش الحرم وجن عليهم الليل فكفوا .

وكان النبي العربي الكريم يومئذ معهم وهو في العشرين من عمره .

« ذلك هو يوم الفجار الاول ، وقد سمت قريش هذا الحرب فجاراً لانها كانت في الاشهر الحرم فلما قاتلوا فيها قالوا قد فجرنا » .

فلما احتمت قريش بحرمها ، نادى احد بني قيس قائلا :

يا معشر قريش : ميعاد ما بيننا هذه الليلة من العام المقبل بعكاظ .

ثم كان اليوم الثاني من الفجار ، ولم يكن في ايام العرب اشهر منه.
وكانت قيس قد تقدمت الى عكاظ قبل قريش ومعهـا بنو ثقيف وعلى كل بطن منهم رئيس .

اما قريش فقد جمعت الجموع وفيهم كنانة والاحـابيش ، عليهم القواد والرؤساء ، وعلى الجماعة حرب بن امية امير الامراء .

ومعه بنو امية ، سفيان وابو سفيان ، والعاص وابو العاص وسواهم من عظماء قريش .

فلما نزلوا عكاظ ، قيد حرب وسفيان وابو سفيان انفسهم وقالوا: لن يبرح احد منا مكانه حتى نموت ونظفر ، فسموا يومئذ العنابس اي الاسود .

ودارت رحى الحرب بـين الفريقين وثبتا في المجال ، حتى بدت طلائـع النصر في صفوف قيس وهمّ بنو كنانة بالهرب ، فحافظ بنو مخزوم وبنو المغيرة حفاظاً شديداً ودافعوا عن شرفهم احسن دفاع .

فلما رأت كنانة صبرهم ، استقوت ورجعت الى الميدان ، ثم حملوا على قيس حملة واحـدة من كل وجـه فانهزمت قبائل قيس والنهار لم ينتصف ، « ثم تحـاربوا بعدها ثلاث مرات ، فقتل من الجانبين خلق كثير ، بينهم ابو سفيـان بن امية ، والعوام بن خويلد وغيرهمـا من سادات مكة ، وجرح حرب بن امية .

واشهر قتلى قيس ، الصمة ، والد دريد بن الصمة .
ثم تداعوا الى الصلح على ان يعودوا القتلى ويأخذوا ديتهم، ففعلوا

وعادوا الى الوفاق والوئام » .

وكان ذلك في اواخر الجيل السادس للميلاد .

* * *

ذلك كان شأن اللطيمة التي بعثها النعمان بن المنذر .

بدأت بالموت ، وانتهى امرها بالموت ، وجرت الدمار على الناس.

كذلك كان شأن لطيمة اخرى بعثها كسرى بعد ذلك .

غزاها بنو عامر ، وهم ايضاً من قيس عيلان ، فأخذوهـا وقتلوا حراسها .

فغضب النعمان غضباً شديداً لكرامته التي جرحت وسلطانه الذي أهين، ايكون في العرب حي يعرض للطيمة كسرى وهو خليفه واللطمية تمر ببلاد يبسط عليها نفوذه ويمد فوقها رواق ملكه ؟

وكيف لا يغضب وقد يتهمه كسرى بالضعف وهو الملك المسلط القادر وقد ضمن لملك الاعجام سكوت العرب ؟

فاستنفر اخاه لامه وبرة بن رومانوس الكلبي ، وأرسل الى بني تميم لجمعهم وقال لهم :

« اذا فرغتم من عكاظ ورجع كل قوم الى بلادهم ، فـاقصدوا بني عامر في نواحي « السلان » .

فخرجوا وهم يكتمون امرهم .

فلما فرغ الناس من عكاظ ، عرفت قريش قصدهم فارسل عبدالله ابن جدعان رسولا الى بني عامر يخبرهم قصد بني تميم .

فحذر القوم واستعدوا للحرب، ووضعوا عيونهم يترصدون الزاحف

فلما اقبل الجيش ، كان بنو عامر واقفين بالسلاح .

فلم ينقض اليوم الثاني على الحرب حتى تضعضع جيش النعمان وعادت العائدة عليه .

فكانت اللطيمتان شراً على العرب وشؤماً على النعمان .

فضاق صدره وملأت الكآبة نفسه .

لكن الزمان علمه الصبر على المحن ، وقد عرف ، في الحروب التي توالت ، كيف يحتاط لنفسه ، وكيف يبعث لطائمه الى اسواق العرب ويصون لطائم كسرى في مستقبل الحين .

* * *

١٩

عدي بن مرينا ، وعدي بن زيد

— النعمان المقيم على عهده —

اما الزمان فيمر ، واما النعمان فيتغير كلما مر هذا الزمان . .

لا يعرف رجال دولته متى يغضب ، ومتى يكون راضياً ؟

فالغضب والرضى يولدان في ساعة ، ليس لها قياس ، ولا يقعان تحت قاعدة .

وهنالك غرابة في الطباع ، فقد يغضب حين يجب ان يرضى ، ويرضى حيث يجب ان يغضب .

وكلمة واحدة يسمعها النعمان عن احد رجاله ترفع منزلة ذلك الرجل او تحطه الى اسفل .

ذلك كان شأنه في العشرين سنة التي انقضت على تتويجه .

ويوما نعيمه وبؤسه مقدسان ، غير ان الناس — كما ذكرنا — لا يعرفون موعدهما ، فقد يكون البؤس في الربيع والنعيم في الشتاء ، اوهذا في الخريف والآخر في الصيف ، فيبر الناس ويقتلهم في ذينك اليومين ، ما طاب له القتل والاحسان .

وما اكثر ما كان يندم على عمله ، فقد قتل نديميه وندم ، واستوزر حاجب بن زرارة متعجلا في حرب بني يربوع ثم ندم ، وبعث اللطيمة

مع عروة الرحال ثم ندم وحارب بني عـــامر لاجل لطيمة كسرى ثم ندم ، واليوم ، يطرد الربيع بن زياد من الحيرة ولا يلبث حتى يندم

ولماذا طرد الربيع وقد كان ينادمه ويؤاكله ويخلو به على شرابه ؟؟

لانه سمع فيه كلام غلام من بني عامر ، وبنو عامر خصومه ! وهم الذين تصدوا للطيمة الملك الفارسي .

وكان سيد بني عامر يومئذ كما علمت عامر بن مالك بن جعفر الذي مر ذكره والمعروف ، بملاعب الاسنة .

فوفد على النعمان مع اخوته طفيل ومعاوية وعبيدة ، وابن اخيه لبيد ابن ربيعة وهو غلام .

وكان الربيع ، اذا خـــلا بالنعمان ، طعن في الجعفريـــين وذكر معايبهم .

فعل ذلك مراراً ، لانه عدو هؤلاء الجعفريين وهم لا يحبونه ، وقـــد نشبت الحرب اكثر من مرة ، بينهم وبين قومه بني عبس .

فلما دخلوا علي النعمان ، رأوا منه تغيراً وجفاء وقد كان يكرمهم قبل ذلك ويقرب مجلسهم .

فخرجوا من عنده غضاباً ، وصغيرهم لبيـــد يحفظ امتعتهم ويغدو بنوقهم كل صباح فيرعاها فاذا امسى رجع اليهم .

فاتاهم ذات ليلة فوجدهم يتذاكرون امر الربيـــع وما يلقون منه ، فسألهم فكتموه ، فقال لهم :

والله لا احفظ لـكم متاعاً ولا اسرح لـكم بعيراً او تخبروني .

وكانت ام لبيد ، امرأة مـــن بني عبس نشأت يتيمـــة في حجر

الربيع ، فقالوا :

خالك قد غلبنا على الملك وصد عنا وجهه .

فقال لهم لبيد : هل تقـــدرون على ان تجمعوا بيني وبينه فازجره عنكم ثم لا يلتفت النعمان اليه ابداً .

قالوا : وهل عندك من ذلك شيء ؟

قال نعم :

فقالوا : نصبح فنرى فيك رأينا .

فقال لهم ملاعب الاسنة : انظروا غلامكم فان رأيتموه نائما فليس امره بشيء وانما يتكلم بما جاء على لسانـــه ، واذا رأيتموه ساهراً فهو صاحبكم .

فراقبوه فوجدوه قد ركب رحل ناقة حتى بزغ الفجر .

فقالوا له : انت والله صاحبنا .

ثم حلقوا رآسه وارسلوا جديلتين من شعره الى الجانبين وألبسوه حلة فاخرة ، ثم غدوا به على النعمان .

وكان النعمان يتغدى ومعه الربيع ليس معه غيره .

والاروقة والقاعات مملوءة بالوفود .

فلما فرغ من الغداء اذن للجعفريين .

فدخلوا عليه وذكروا له ما قدموا لاجله .

فاعترض الربيع في كلامهم .

فقام لبيد يرتجز ويقول ، من قصيدة :

نحن بنو ام البنين الاربعـــة ومن خيار عامر بن صعصعه

يا واهب الخير الكثير من سعه   اليك جاوزنا بلاداً مسبعه
مخبر عن هذا خبيراً فاسمعه   مهلا ابيت اللعن لا تأكل معه

ثم اخذ في هجاء الربيع لا يهتم لمجلس الملك .

فلما فرغ من انشاده التفت النعمان الى الربيع شذراً يرمقه وقال : اكذا انت يا ربيع؟

قال : لا والله يا مولاي لقد كذب علي ابن اللئيم .

فقال النعمان : اف لهذا الغلام لقد خبث علينا طعامنا .

ثم امر ببني جعفر فاخرجوا وقام الربيع فانصرف .

فقال النعمان لقهرمانه : اعط الربيع ضعف ما كنا نعطيه من المال ومره بالانصراف الى اهله .

فلما سمع الربيع امر الملك ، كتب اليه يقول :

اني قد تخوفت ان يكون قول لبيد اثر في ذهن الملك فلست بذاهب حتى تبعث من يفحص عن امري فيعلم من حضرك من الناس اني لست كما قال :

فأرسل اليه الملك : انك لست قادراً على ما زلت به الالسن ، فالحق باهلك .

فقال الربيع بعض ابيات من الشعر مطلعها :

لئن رحلت جمالي ان لي سعة   ما مثلها سعة عرضاً ولا طولا

فكتب اليه النعمان يقول من قصيدة :

قدقيل ذلك ان حقا وان كذبا   فما اعتذارك من قول اذا قيلا

فانصرف الربيع الى بلاد قومه وهو يقول في نفسه :

خير للشريف ان يرعى نوقه في الوادي السحيق من ان يجالس النعمان وينادمه ..

وكان عصام بن شهبرة يرى كل ذلك ويقول :

من كان يظن ان النعمان يتغير على ابن زياد ؟؟ اين عدي بن زيد يرى كل هذا ؟

كان عدي بن زيد ، في السنوات العشر التي مرت على زواجه ، يتردد الى العراق كما يفعل من قبل ، يمكث اياماً في جفير ، ثم يزور بني يربوع وبني جعفر اصحابه ، ويعود الى الحيرة فيقيم فيها حتى ينقضي الشتاء .

وهو في الحيرة وفي المدائن ، ذلك السيد الكبير النافذ الكلمة ، وكلما زاده الملكان براً وعطفاً ، ازداد مروءة وفضلا، في خدمة الامتين اللتين يحبهما .

وكان مقامه في الخورنق ، بين نبلاء العرب وساداتهم ، كمقام النعمان نفسه ، بل كان في نظر الناس اعظم نفسا من النعمان ، وارحب صدرا ، واوسع نفوذا .

خصومه ، عدي بن مرينا وقومه ، والاسود شقيق الملك وبعض اخوته ، ومن يتبع هؤلاء من الرجال .

اما الباقون من رجال الخورنق فكلهم مخلصون له ، لكنهم ضعاف بالنظر الى ابن مرينا ورفاقه الامراء .

ولم يكن في الاسرة المالكة كلها من يحترم الملك اكثر من احترام عدي اياه ، غير ان صراحته من جهة ، وسوء ظن النعمان من جهة ،

كانا يغيران الملك عايه من حين الى حين ، فيصبر بانفة وكبر على جفائه، ويغض من طرفه على الكثير مما يسمع منه ويرى .

وليس في الحيرة شيء احب الى عدي ، من مداعبته ولده زيداً ، في بيت هانىء مربيه .

ولم يكن زيداً طفلا في ذلك الحين ، بل هو ابن عشر سنوات يبسم له الجمال والشباب ، والدنيا كلها في عينيه نور وبهاء .

وحول زيد ، حكماء العرب والفرس ينفخون حكمتهم في صدره ، ويعلمونه الادب الذي يتعلمه ابناء الملوك والنبلاء .

وابطال العرب يعدونه لميـــادين الحرب . . . فكان على صغره ، نابغة من نوابغ ذلك الزمان ، في كل مـــا يمر به من مشاهد الاختبـــار وصنوف العلم .

وكان مال عدي قد كثر ووفر ، واتسعت ارضه في العـــراق حتى لتزيد على ارض هانىء بن قلام ، اغنى اغنياء الحيرة ، فاتخذ له وكلاء ونوباً يعنون بامور الزراعة والاستثمار، واقام على بيته في عاصمة العرب ، قهرماناً من بني جعفر ، يدير ثروته الكبرى .

اما هند فكانت من احسن نساء العرب ادباً واكرمهن خلقاً ؛ وهي كما علمت ، تحترم زوجها عدياً ولا تحبه ، كما تحترم المرأة الصالحـــة رجلها او اباها .

وكانت نصرانية في الظاهر والباطن ، تحب المسيح بن مريم اكثر من كل شيء في هذا الوجود، فتعمل على نشر مذهبه في امتها وبين صواحبها الوثنيات حتى بلغ بها الامر انها كانت تحبب اليهن الزهد والخروج عن

العالم ، في دير تبنيه لهن في الحيرة ، كالدير الذي بنته قبلا جدتها هند الكبرى ، احدى نساء المنذر بن ماء السماء .

والنعمان لا يرد لهند قولا .. فوضعت اسس الدير تنفق على ذلك من مال عدي ، اكثر مما تنفق من مال الملك .

والاثنان ، ابوها وزوجها ، يبذلان لها المال ويعطيانها منه ما تشاء دون حساب .

غير ان التاريخ لم ينس خطأها وخطأ الملك فيما يعني زيداً . .

ولد زيد في الحيرة قبل ان تتزوج هند ، ثم تزوجت واصبح زيد في السنة العاشرة من عمره ، ومع ذلك فهي لا تعرفه ، كما ان اباها الملك لا يعرفه ...؟!

ان في ذلك وحده ، دليلا على عقلية النعمان واهل بيته .

لم يكن عدي بن زيد يرضى بان يدخل ولده الخورنق الا اذا اظهرت هند رغبتها في ان تراه ، وأذن الملك في ذلك .

لكن هنداً لم تظهر تلك الرغبة ، لان اباها الملك كان ارفع من ان يسأل ابن قلام ان يرسل اليها زيداً .

وهانيء بن قلام لا يبعث الصبي الى قصر الملك الا اذا أذن ابوه .

فنشأ زيد في بيت هانيء ، وهو لا يعرف قصر النعمان من الداخل بل لا يعرف هنداً زوجة ابيه ...

وهذا اغرب ما في حياة بعض الناس من عبر .

ولولا فرعة ، أجل لولا تلك الملكة ام هند ، لكانت هند اقرب الناس الى زيد ، تحتضنه كما تحتضنه المرضع وتقوم على خدمته كالجواري

اللواتي يسهرن على حياته .

لكن الملكة لا تريد ان تكون ابنتها مربية !! وهذا هو وجه الصعوبة في الامر .

وكثيراً ما كانت هند تسأل عدياً ولده ، وتطلب اليه ان يحضره الى الخورنق لتراه ، فكان يقول :

ليس لاحد في القصر ان يأمر بهذا الا الملك ..

والملك ساكت وقد لا تتسع ذاكرته لمثل هذه الامور ..

حتى ان عصام بن شهبرة قال له يوماً :

أرأيت ابن عدي يا مولاي ؟

فأجابه قائلا : من هو ابن عدي هذا ؟

قال : زيد .

فقال : اتريد ان نزور ابن قلام في بيته لنرى زيداً ، ان عدياً ارفع من ان يجعل ولده في قصرنا ، ويربيه كما نربي اولادنا ..

وما كنا لنعجب لهذا ، فان عدي اعظم من الملك واعز مقاما ، الا ترى السادات والاعوان يحفون حوله ويمشون امامه وخلفه كلما نقل قدماً ؟ تلك هي كبرياء الاعاجم يمثلها لنا عدي كما هي فلا تحدثنا بعد بامر ولد ينشأ في بيت صاحبه عدو الملك .

وكان عصام يعرف حكاية آل قلام كما روتها هند للنعمان ، في تلك القاعة الخاصة التي اختلى فيها الملك بزوجته وبنته كما قرأت فيما تقدم » .

لكنه تجاهل فقال : ايكون ابن قلام عدو الملك ونحن لا ندري ؟

قال : عدو يلبس لباس الصاحب ويخفي بغضه في اعماق صدره ،

ولو قدر لجاهرنا بالعداوة .

فقال : ان الملك ادرى بأمر رعيته اما انا فلا ارى هانئاً الا مخلصاً للعرش .

قال : انك يا عصام لا تعرف ما يعرفه الملك .

ــ أظن ان عديا لا يعرف هذا يا مولاي .

فهز الملك رأسه قائلا : ان صهرنا يعرف من شؤون العرب ما لا يعرفه الناس فهو لا يجهل تاريخ آل لخم في الحيرة .

ــ ومن يصدق يا مولاي ان عدي بن زيد يوالي أعداء الملك ؟

قال : انه لا يهتم لهذا الملك فقد أغناه كسرى وا كفاه .. الا ترى ارضه تضيق بالوكلاء ، ونوقه تملأ العراق ، والمال يبذله للعرب كما يفعل النعمان ؟

ــ ولكنه اذا اعطى فهو يعطي باسمك يا مولاي .

فضحك النعمان ضحكا عاليا ظهر فيه الاستخفاف كله وقال لحاجبه :

ما حسبت من قبل انك ابله الى هذا الحد ، الا تعلم ان عدي بن زيد لا يتردد في لبس التاج العربي اذا رأى سبيلا الى ذلك ؟..

فتراجع عصام الى الوراء وقد بغت لهذه المفاجأة .

فقال النعمان : لا تستغرب ايها الابله ، ان المرء اذا استغنى مل موقعه واخذ يطلب المزيد حتى ليطمع بان يكون من حراس السماء فماذا بقي على صهرنا عدي وقد اصبح من اعاظم البلاط في المدائن واميناً لسر كسرى ومن اغنى اغنياء العرب؟ بقي عليه يا ابن شهبرة ان يمسي ملكاً

يجر اذيال العز والمجد ويضحى من في العراق عبيداً له ، فاذا لم يطمع بهذا اليوم فلا بد له من ان يطمع به غداً فيقوم النزاع بيننا وبين كسرى على التاج العربي ، ويسر عدي بن زيد يومئذ ان تنقرض سلالة آل لخم ويضمحل ذكرهم من هذا الوجود ، اما قولك انه يعطي الناس باسم الملك فهذا كلام ما نحب ان نسمعه مرة اخـــرى فالملك لا يصدق الظواهر والاكاذيب . .

فكاد عصام ينسى موقفه ويدافع عن صاحبه ، غـــير انه ذكر في تلك الساعة ظاهر الحيرة ، وتينك الحفرتين اللتين احتجبت تحت ترابها جثتا النديمين خالد وعمر . .

فخاف ان يراجع النعمان فيدفن كما دفنا . .

فاطرق وهو يقول : قد يكون ذلك يا مولاي .

ثم خرج وهو يرى ان يطلع عدياً على رأي الملك فيه .

وكان يقـــول في نفسه : ان يـــد عدي بن مرينا تلعب من وراء الستار . . .

وكان عدي بن زيد ، في ذلك الحين ، امام منزل هانيء بن قلام في ساحة واسعة تشبه ميدان الخورنق ، وهو مستند الى جدار قائم هنـــاك ينظر الى ولده زيد ، على ظهر مهر اشهب يتمرن على الركوب .

اجل ، كان ذلك الولد الذي لا يجاوز العام العاشر يتلوى على صهوة جواده كما تفعل الابطال ، فيرسل مهره كالسهم ساعة يشاء . ويثنيه ساعة يشاء . واذا اخطأ في ارساله ورده ، رده استاذه الى الصواب حتى تعب الاثنان ، الفتى وجواده ، فارتمى زيد بـــين ذراعي ابيه ، وهو

يبتسم لمليكة بنت هانيء ، الجالسة على وسادتها امــام والدها بـبــاب المنزل .

واذا بعصام بن شهبرة قد أقبل وهو يقول :

لو طلب الي ان اسابق زيداً في الميدان لما فعلت .

قال عدي : لماذا ؟

فقال : لان الرجال لا تحسن الركوب كما يحسنه طفلك .

فاجابه زيد قائلا : اراك نسيت مليكة يا عم « وكان يدعو عصاماً عمه » .

فقال : اذا ثبتت مليكة على ظهر الجــواد كما يثبت زيد فهــي سيدة الفرسان .

ثم قال : سبحان من جعلكما اخوين متشابهين .

ودخل القوم الى المنزل، فانصرفت مليكة وزيد الى احدى الشرفات واختلى الرجال الثلاثة في تلك القاعة المستطيلة التي اجتمعوا فيها قبل زواج عدي .

فقال عصام : ان الملك لا يعرف زيداً يا عدي .

قال : اجل انه لا يعرفه لانه لا يريد ذلك .

ـ وكيف عرفت هذا ؟

ـ لان الملك حفظــه الله ما سألني عنــه قط منذ خروج زيد الى الوجود .

ـ اذن تنتظر الملك ليدعو اليه زيداً كأنك ارفع من ان تأخذه اليه ليلثم يده ويد الملكة ام هند ويقيم عند قابوس والمنذر ؟

فقال : انك يا عصام حاجب الملوك وتجهل احوالهم .

ـ فلم يفهم عصام مغزى قوله ، فقال :

كيف ذلك يا عدي ؟

قال : ان مجالس الملوك ليست للفتيان بل للسادات والنبلاء من وفود الناس ، ثم ان قصر الملك لا يطأ عتبته احد مهما يكن امره الا اذا اذن الملك نفسه ، اتريد يا ابن شهبرة ان آخذ زيداً الى الخورنق فيقول لك الملك : من اذن لك في هذا ؟ ؟ . اني لا افعل ما يغضب النعمان ..

فقال : لكنك صهر الملك ومربيه وانت ضيف الخورنق .

قال : ولاجل ذلك لا افعل ، ان صهر الملك ومربيه ، تحب ان يكون من ابعد الناس عن الادلال لئلا يسيء الملك به ظنه ، وانا احب النعمان كما تعلم يا ابن شهبرة ، احبه كما احب زيداً واحترمه كما احترم كسرى . فاذا امرني ببذل دمي في سبيل طاعته فعلت ويشهد الله ، اما ان اجعل زيداً في الخورنق وبين ابناء النعمان دون ان يأمر بذلك فما كنت لاقتحم هذا الخطر .. فقل لي يا عصام ، احدثك الملك بهذا؟؟

قال : اجل ، وهو يقول انك لا تهتم له وانت ارفع من ان تجعل زيداً في قصره .

فالتفت عدي الى هاني ، قائلاً : اصبت فيما قلته لي من قبل ، ان ملكاً لا يثبت على حال ــ اهكذا يظن بصهره يا عصام ؟

فقال : بل هو قليل الثقة بكل من حوله حتى بقابوس ولي عهده ، ألم تر ماذا فعل بالربيع بن زياد .

فابتسم عدي وقال : بل رأيت فعله بنديميه وقد كانـــا امبني سره ، فيا خيبة الامل بهذا الملك الذي ربيته في حضني وكنت ارقد تحت قدميه أتراه ينظر الي كما ينظر الى خصومه ؟

فقال هانىء : ليس له نظام في هذا فانت صاحبه اليوم وخصمـــه غداً ، ولكن لا اراه يعق صهره وعنده هند .

فهز عدي رأسه وسكت ..

أما عصام فلم يرد ان يخون مولاه بافشاء حديثه عن آل قلام .

لكن قرب عدي بن مرينا من النعمان كان يملأ نفسه ويوغر صدره، فقال لرفيقه :

يجب ان ننظر في الامر من جانب آخر .

فنظرا اليه مستفهمين .

فقال : ان الملك يحب ابن مرينا اليوم وأخشى ان تكون لهجته أثر من آثار ذلك اللعين .

فارتسم الاباء على جبين ابن زيد وقال :

والله ما بعثت زيـــداً الى الخورنق الا اذا سألني الملك ان افعل ، وليسع ابن مرينا ما شاءت السعاية فانا لا ابالي .

فقال هانىء : واذا غضب النعمان يا عدي ؟

قال : اذا غضب النعمان غضب كسرى فالملك الاكبر لا يريد ان يمس كاتبه .. وفي اي شيء احب الملك ابن مرينا ؟

فقال عصام : ابن مرينا سيد الخورنق اليوم والنعمان آلة في يده ، فالامر الذي خفنا منه وقعنا فيه .

فقال : انك يا عصام حاجب الملوك وتجهل احوالهم .

ـ فلم يفهم عصام مغزى قوله ، فقال :

كيف ذلك يا عدي ؟

قال : ان مجالس الملوك ليست للفتيان بل للسادات والنبلاء من وفود الناس ، ثم ان قصر الملك لا يطأ عتبته احد مهما يكن امره الا اذا اذن الملك نفسه ، اتريد يا ابن شهرة ان آخذ زيداً الى الخورنق فيقول لك الملك : من اذن لك في هذا ؟ ؟ . اني لا افعل ما يغضب النعمان

فقال : لكنك صهر الملك ومربيه وانت ضيف الخورنق .

قال : ولاجل ذلك لا افعل ، ان صهر الملك ومربيه ، تحب ان يكون من ابعد الناس عن الادلال لئلا يسيء الملك به ظنه ، وانا احب النعمان كما تعلم يا ابن شهرة ، احبه كما احب زيداً واحترمه كما احترم كسرى ، فاذا امرني ببذل دمي في سبيل طاعته فعلت ويشهد الله ، اما ان اجعل زيداً في الخورنق وبين ابناء النعمان دون ان يأمر بذلك فما كنت لاقتحم هذا الخطر .. فقل لي يا عصام ، احدثك الملك بهذا؟؟

قال : اجل ، وهو يقول انك لا تهتم له وانت ارفع من ان تجعل زيداً في قصره .

فالتفت عدي الى هانىء قائلاً : اصبت فيما قلته لي من قبل ، ان ملكاً لا يثبت على حال ـ اهكذا يظن بصهره يا عصام ؟

فقال : بل هو قليل الثقة بكل من حوله حتى بقابوس ولي عهده ، ألم تر ماذا فعل بالربيع بن زياد .

فابتسم عدي وقال : بل رأيت فعله بنديميه وقد كانـــا اميني سره ، فيا خيبة الامل بهذا الملك الذي ربيته في حضني وكنت ارقد تحت قدميه أتراه ينظر الي كما ينظر الى خصومه ؟

فقال هانیء : ليس له نظام في هذا فانت صاحبه اليوم وخصمـــه غداً ، ولكن لا اراه يعق صهره وعنده هند .

فهز عدي رأسه وسكت ..

أما عصام فلم يرد ان يخون مولاه بافشاء حديثه عن آل قلام .

لكن قرب عدي بن مرينا من النعمان كان يملأ نفسه ويوغر صدره، فقال لرفيقه :

يجب ان ننظر في الامر من جانب آخر .

فنظرا اليه مستفهمين .

فقال : ان الملك يحب ابن مرينا اليوم وأخشى ان تكون لهجته أثر من آثار ذلك اللعين .

فارتسم الاباء على جبين ابن زيد وقال :

والله ما بعثت زيـــداً الى الخورنق الا اذا سألني الملك ان افعل ، وليسع ابن مرينا ما شاءت السعاية فانا لا ابالي .

فقال هانیء : واذا غضب النعمان يا عدي ؟

قال : اذا غضب النعمان غضب كسرى فالملك الاكبر لا يريد ان يمس كاتبه .. وفي اي شيء احب الملك ابن مرينا ؟

فقال عصام : ابن مرينا سيد الخورنق اليوم والنعمان آلة في يده ، فالامر الذي خفنا منه وقعنا فيه .

ـ وما يفعل ابن مرينا وهو لا يجرؤ ان يرفع الي نظره .

فقال : لا تستخف بالرجال يا عدي فابن مرينا قادر على ان يغير النعمان فيصير الحمل ذئباً ..

قال : لكن الذئب لا يظهر امام الاسد ، ومع ذلك فسأرى الملك وأتبين موقفه قبل ان ارجع الى المدائن ، فاذا جفا فلا كانت الحيرة وما كنت لاعود اليها فأزور ملكاً لا يحفظ الجميل .

فقال ابن قلام : اراك نسيت زيداً وهنداً .

قال : آخذ ولدي وأترك بنت الملك لابيها فقد كان ذلك الزواج في مصلحة الملك لا في مصلحتنا نحن الزوجين ، ولهند مائتا ألف درهم في العام تنفقها على الدير الذي تبنيه ، ومائة الف تبذلها لطالبي الاحسان ، ولو لم تكن بنت النعـمان وهي من اهل الخورنق لبعثت اليها مائة الف اخرى تستعين بها على قضاء الحاجات .

ثم ان الغضب في وجهه واستطرد قائلا :

لقد كفاني ما احتملته من هذا الملك ، اني لم ازره مرة الا وانا خائف على نفسي كالعدو يحذر عدوه ، واذا نطقت في مجلسه تصورت الموت كامناً وراء القول الذي انطق بهفلا اعلم متى يغضب ومتى يفتر ثغره ..

وانا احترمه واحبه ، واذا مثلت بين يديه فكالعبد يمثل بين يدي مولاه لا كالوالد يرى ولده الذي رباه ، أتراه ارفع من ان يتعهد ولدي بعنايته وعطفه ولولا عدي بن زيد لكان من افقر اهل الحيرة ؟ ؟

ثم رفع صوته قائلا : هكذا تحفظ الملوك جميل الناس ، اجلسه كسري على العرش فنكث عهده ، ولو قدر لشهر في وجهه السيف ، وانا اخفي

عيوبه امام الملك واذا دخل ايوانه مرة رفعته ووضعت مـــن حضر من الملوك غيره حتى ليجلس عن يمين كسرى ويرفع صوته في الكلام متظاهراً بالعز والملك يغض من طرفه ويمن علي بقوله : لقد سكتنا على ما قاله النعمان لانك صهره وانتما تعلمان ان العرب كلها لا تثبت يوماً واحـــداً امام الجيش الفارسي اذا بعثه كسرى غازياً ، الى العراق .

لقد خبرت العرب والعجم ، ورأيت الكثيرين من الملوك والامراء فلم ار اغرب من طباع النعمان ولا اقرب الى الغضب . انه يجفو الرجل الذي اجلسه على عرش الحيرة ، ويقرب العدو الذي كاد يسلبه التاج ، ولعمري انه لخلق كريم ان ينسى الملك عدوه ويجعله من خواصه ...

فهمس عصام في اذن هانىء قائلا :

ان ابتسامة واحدة تبدو على شفتي النعمان تنسي عدياً كل شيء .

فاجابه قائلا : اصبت فهذا القلب الطاهر لا يعرف الحقد .

فقال عدي : ماذا تقولان ؟

قال عصام : نقول انك لم تكن تصدق ما كان يقال لك عن الملك؟

ـ والى الآن وانا لا اميل الى التصديق الا اذا رأيت وسمعت ..

فضحك الاثنان !

فقال : ومن يقوم في ذهنـــه ان الملك الذي لا يثق بولده ، يثـــق بعدوه ، اني سأعرف غداً ما اريد معرفته ، فاذا رأيت تغـــير النعمان تركت الحيرة الى ما شاء الله كما قلت .

قال عصام : ولكن احذر ان تثير غضبه يا عدي فـــلاك الموت لا يفارق سريره ..

فقال : ما اظنه يجترىء على مربيه .

قال هانىء : اخشى ان يقذف بك حسن الظن الى الهاوية . اتسمح لي يا عدي بان اقترح ؟

قال : تقترح ماذا ؟

قال : ان تجعل زيداً في الخورنق فالملك لا يحب ان تجعله في آل قلام .

– ومن قال لك ذلك ؟

قال : اذا كان الملك ينسى اصحابه والمحسنين اليه فقد نسي فضل بني قلام واصبحنا اعـــداءه . واني لاراه يجفو المخلصين له ويستسلم لاولئك الخونـــة الذين يطوفون حول عرشه ... الا يذكر الملك آل قلام يا ابن شهبرة .

قال : اما امـــامي فلا ... ولكن سمعت ان لآل قلام ثأراً عـــلى بني لخم .

قال : اما الثأر فقد نسيناه وانا لنفخر بهذا النسيان .

فقال عدي : لو لم يكن آل قلام من اخلص العرب لابن المنذر لما جعلت زيداً بينهم .. ان عصاماً ينقل ما سمع من الملك ...

قال : لا ولكن سمعت بعضهم يتحدث عن هذا . فماذا ترى ياعدي أينتقل زيد الى الخورنق ؟

فقال : اذا امر النعمان فعلت والا فزيد يبقى هنا . وسأرى غداً ماذا يكون .

ثم نهض فنادى زيداً .

فلما اقبل قال له : اتذهب معي الى المدائن يا زيد ؟
قال : المدائن عاصمة الفرس ؟
ـ نعم ولك في المدائن قصر كقصر الخورنق والخدم والعبيد يملأون حجراته .
فأطرق الصبي ساعة ثم قال :
اذهب على شرط .
فضمه ابوه الى صدره وقال : اتشرط على ابيك يا بني ؟ ما هو شرطك ؟
فقال : ان تذهب معي اختي .
فضحك الثلاثة وظهرت الدموع في عيني عدي . ثم قال :
ان مليكة ليست اختك يا بني .
فقال : اعرف هذا فهي اختي بالرضاع وما كنت لأتركها مختاراً .
قال : ان اباها لا يسمح لها بالذهاب .
فطوق الفتى عنق ابيه وقال له :
اما ابي فيأذن لي في البقاء .
فقال هانيء : احسنت يا بني فالحيرة افضل من المدائن . انصرف الآن .
وعندما خرج نظر عدي الى الاثنين مستغرباً ما سمع .
فقال له عصام : لا تستغرب ما ينطق به القلب فلغة القلوب لغة السماء .
ثم انصرف عصام الى الخورنق وبقي هانيء وعدي يتحدثان لايعلم

تحد ما يدور بينهما من الاحاديث والاسرار .

***

بات النعمان ليلته وهو يفكر في امر صهره .

والناس يفدون عليه كما يفدون على النعمان ...

وحكايات عطائه واحسانه تتناقلها الوفود حتى ملأت العراق .

وهو في الحيرة . امام النعمان نفسه . يجر ذيول الغنى والفخار ...

تلك امور كانت في نظر الملك من افظع الذنوب ..!!

أتتحدث العرب عن عدي بن زيد . وتتناقل اخبار عزه وغناه . والنعمان بن المنذر حي ؟!.

ان في ذلك اهانة للملك وازدراء ...

وكيف يجوز لعدي بن زيد ان يعطي النـــاس في الحيرة وصاحب الحيرة هو رب العطاء !!.

أيكون للعرب ملكان في عاصمة واحدة بل في قصر واحد ؟.

ان هذا فوق الطبع البشري ...

وعدي ، فوق كل ذلك . يزدري ملكه الى حـــد انه لا يطيق ان يرى ولده بين ابناء هذا الملك ...

ذلك لان بني مجروف اعظم شأناً واعلى نسباً من بني لخم ..

بهذا كان النعمان يحدث نفسه في ذلك الليل لكنه كان يتردد كثيراً في قبول تلك الظنون التي كانت تتوارد الى ذهنه المضطرب .

اي ان نفسه الشريرة ونفسه العاقلة كانتا تتحاربان . .

وقبل ان يستسلم للنوم ، كان العقل قد انتصر على سوء الظن ، فنام وهو يبتسم لعدي .

غير ان احلامه كانت سوداء . . فقد رأى عدي بن زيد متربعاً في عرش الحيرة وعلى رأسه التاج . وعن يمينه هاني‌ء بن قلام وولده زيد عن شماله . وبين يديه امراء العرب واعيانها والشعراء جماعات جماعات. ورأى نفسه ، اي النعمان ، واقفاً بالباب بين العبيد والغلمان وفي يده وعاء يفت فيه المسك للملك الجديد .

فأفاق مذعوراً وصهره ماثل بين يديه بالتاج وثياب الملك . . .

فنادى حاجبه وقال :

ألم تر عدي بن زيد يلبس تاج العراق ؟

فعرف عصام ان احلام الملك كانت مزعجة . . . فقال دون ان يتردد :

بل رأيته جاثياً على ركبتيه امام قدمي الملك وهو من اخلص العبيد.

قال : اما نحن فقد رأينا تاجنا يبرق فوق رأسه .

فقال عصام : الحمد لله فقد كان ذلك في الحلم يا مولاي .

فنظر الملك الى حاجبه شذراً وقال له :

اتريد ان يكون ذلك في اليقظة يا لعين ؟

فابتسم عصام وقال : بل اريد ان يثبت ملك النعمان الى الابد .

قال : حسنا . فاسقني كأسا من الخمر وقل لي اين كان عدي امس ؟

ـ في منزل هانيء يداعب زيدا ويعلمه ليقول : يعيش النعمان

ملك العرب .

ـ ومن نقل اليك ذلك يا اكذب الناس ؟

رأيت وسمعت يا مولاي .

فقال : سنسأل عديا عن هذا والويل لك .. اين الخمر ؟

فخرج عصام ثم عاد يحمل كأسا واحدة في وعاء من ذهب .

فقال له الملك : وهبنا لك هـذا الاناء الذهبي عـلى ان تأمر لنا بكأس ثانية . .

فقال عصام في نفسه : ما شرب الملك الصبوح الا لأمر .

ثم احضر له كأسا اكبر من الاولى فشربها .

ثم نهض ، فلبس ثيابه دون ان يأمر حاجبه بان يناوله هذه الثياب .

وكان عصام . في تلك الساعة . يفكر فيما قـالـه للملك عن عدي . ويخشى ان يسأل الملك عدياً عن ذلك فيثبت كذبه .

وهو لا يقدر على الخروج من الخورنق الا لعذر .

غير ان قريحته الجامدة لم تستطع في ذلك الصباح ان تخلق الاعذار .

فلبث في مكانه وقد اصيب بما يشبه الذهول .

حتى سمع الملك يقول باستخفاف :

دلنا على طريق المجلس يا ابن شهبرة ..

فمشى امامه حتى توسط الاثنان الرواق فرأيا النـاس قد اجتمعوا ينتظرون قدوم النعمان .

وعدي بن زيد اول من وقعت عليه عين عصام .

فقال في نفسه : من يحفظ لي رأسي اذا عرف الملك اني كاذب ...

واستند الناس جميعهم الى الجدار وقد حنوا رؤوسهم ليدخل الملك الى مجلسه .

فأومأ النعمان اليهم بان يتبعوه وهو يبتسم لابن مرينا .

حتى جلس الناس في مجالسهم والصمت ينشر ظله في سماء القاعـــة حتى لتسمع تردد الانفاس .

فقال النعمان لصهره : ما رأيناك امس يا عدي فاين قضيت ليلتك؟

فاجابه قائلا : لا اخرج من الخورنق يا مولاى الا لاري زيدا فقد بت ليلتي في بيت آل قلام .

قال : وكيف رأيت زيداً في بيت صاحبك ؟

وتلك اول مرة يسأله الملك فيها عن زيد منذ ابصر النور .

وعصام بن شهبرة بالباب وقد مد عنقه ليسمع الحديث وقلبه يخفق من الخوف .

فقال عدي : انه بخير يا مولاي بظل الملك .

قال : بل بظل ابيه وبظل اصحابه آل قلام .

فقال : ليس لابيه ولآل قلام وجود متى وجد الملك .

فابتسم وقال : انك لاكبر من الملك يا عدي .

فاهتز الرجل في كرسيه وقال : بل من اكبر عبيده يا مولاي .

فقال : اي عبد من عبيدنا يملك نصف العراق ويجر ذيول العز كما يجرها عدي بن زيد !؟.

فقال عدي ولم يتردد : لا يليق بصهر النعمان بن المنذر الا ان يكون كذلك .

فاجابه الملك قائلا: كما انه لا يليق بهذا الصهر ان يسابقنا في العطاء..
كم يبلغ من العمر ولدك زيد ؟

ــ انه في السنة العاشرة كما يعلم الملك .

ــ وهل هو جميل كأبيه ؟

ــ لا اهتم لجمال وجهه كما اهتم لجمال نفسه واخلاصه للملك .

ــ ومن يبث في صدره هذا الاخلاص ؟..

ــ هانيء بن قلام في غيابي . والرجال الذين حوله . وانا كلما قدمت الحيرة .

قال : اذن فولدك زيد يعرف ان له ملكاً .

قال : وهو يردد الدعاء لهذا الملك ولانجاله الامراء .

فقال : وأراه يلفظ دعاءه بالفارسية فهو يدعو لملك الفرس .

فملأت الرصانة وجــه عدي وقال : بل يلفظه بلغة آبائه واجداده فيقول :

يعيش النعمان بن المنذر مالك العرب ..

فاشرق جبين ابن شهبرة وايقن ان رأسه باق على جسده .

اما الملك فالتفت الى عصام وقــال له : لقد صدقت يا عصــام فحفظت رأسك .

فلم يفهم الناس ماذا عنى الملك بقوله .

ثم قال النعمان لعدي : لماذا تسدل بيننا وبين زيد هذا الحجاب ؟
اترانا لا نستحق ان نراه ام هو ارفع من ان يخدم الملك ؟

فقال : اما الاطفال فلا يصلحون لخدمة الملوك . واما ذلك الحجاب

فاذا اراد الملك ان نرفعه فرفعناه . اتريد يا مولاي ان تقول العرب ان عدي بن زيد يزدري مجلس النعمان فيدخل ولده الىالخورنقبدون اذنه؟ ومتى كنت اخطوه خطوة واحدة دون ان استشير الملك ؟ . أ أكون في المدائن اشد اخلاصا لمليكي مني وانا في الحيرة ؟ فـــاذا كنت في ديوان كسرى نفسه اترك هوى كسري واتبع هوى النعمان فكيف ا كـــون في الخورنق وانا انمتع برضاك واستظل بظلك ؟

ثم رفع صوته قائلا : اتمنعني من العطاء يا مولاي وانا اقوللوفودي: هذا مال الملك فانفقوه فيطاعته . ام تستكثر علي هذه الضيعة التي املكها وانا ما ملكت شبرا من الارضالا بفضلك ومن احسانك ؟؟. فاذا كان هذا فساعلق بابي في وجوه العرب وانزل عن كل ما املك في العـــراق وفي بلاد العجم ليهبه الملك لمن يشاء من طالبي الاحسان .

واما زيد فاذا امر الملك جعلته في الخورنق بين حجابه وغلمانه بل فليأمرني اذبحه على عتبة هذا المجلس فيثق النعمان باخلاص عدي بن زيد ويعلم من حضر من الرجـــال اني لا اضن بدمي اسفكه على اقدام هذا العرش .

وكان الكلام يخرج من فم عدي مطبوعاً بطابع اخلاص فريديرتسم على جبينه ، الى ان قال :

لقد نشأت صريحاً حراً يا مولاي . اقول للنور هذا نور ، وللظلام هذا ظلام . فاذا قلت اني اخلص الناس للنعمان العظيم فانـــا صادق . وسينتقل هذا الاخلاص الى زيد فينشأ كما نشأ ابوه من قبله ، فاذا شاء الملك فليتفحص عن امري . وليرسل رسله الى المدائن فيعلموا اني ذلك

العربي الذي يقدس مليكه ويحترم مصلحة قومه .

قال هذا ونظر الى الاسود وابن مرينا . وهو يعلم انهما يسعيان به من وراء الستار ويعملان على هدم ما بناه من مـــنزلة رفيعة في قصر الملك اللخمي .

وسكت ينتظر جواب النعمان. وقد اسودت وجوه بعضهم وابيضت الآخرين .

اما النعمان فقال : اتنتظرنا يا عدي ان نأمرك باحضار زيد وهند في القصر وهي تكاد تكون امه ؟ .

قال : اني اعرف هنـــدا بنتا للملك قبل ان اعرفهـــا زوجة لي . أفيملكني الغرور حتى اطرح طفلي بين يدي هند فاجعلها مربية له وهي اعظم نساء العرب وبنت اعظم ملك .

فقال : لكنها زوجتك على كل حال .

قال : اما اذا كنت قد شرفتني بهذا الزواج فذلك عطف لا انساه . غير اني اعرف نفسي فلا اجهل مقام هذه الزوجة .

فنسي الملك احلامه عند مظاهر ذلك الادب وذلك الحب .. فقال: وآل قلام ايحبون الملك ؟ .

قال : كما يحبه عدي بن زيد .

فقال ؟ اواثق انت بما تقول :

قال : الوثوق كله يا مولاي وكما اثق بنفسي .

فابتسم النعمان لصهره وقال له :

بارك الله فيك وفي اصحابك الامناء انك خير من نعرف من الرجال.

اتعلم ماذا اردنا بقولنا هذا ؟. ان الملك يتحرش بصهره ليختبر صبره ورحابة صدره . فابق زيـــداً في بيت صاحبك . واعط من تشاء من وفود العرب فليس في الحيرة من يتعرض لك ..

ثم التفت الى جلسائه قائلا :

أترون احداً اجدر بالنعمة من عدي بن زيد ؟

فأجابه ابن مرينا بقوله : ما كان في العرب اجدر منه يا مولاي .

فقال عدي : خير العرب من شرفه الملك بثقته .

قال : احسنت وقد شرفناك بهذه الثقة يوم اخترناكصهرا ... متى تترك الحيرة ؟

ــ ان الشتاء قد انقضى وسأعود الى المدائن .

قال : خبرنا ابن شهبرة ان زيداً يحسن الركوب بالرغم من صغره . اصحيح هذا ؟

ــ نعم يا مولاي وكلما همز جواده يصيـــح بأعلى صوته : يعيش النعمان ...

قال : اعطيناه فرسنا « روحاء » ومهرها الأشهب .

ثم التفت الى ولديه ..

فقال قابوس : وانا اعطيته « ام الروض » .

« وام الروض فرس لا تلحق »

وقال المنذر : وانا ابعث اليه مهري . الجندب .

وهكذا اهديت كرائم خيل النعمان في ساعة . الى ذلك الفتى النبيل الذي لا يجاوز عامه العاشر .

ولم يكن هنالك من يعلم . اذا كان النعمان رضي عن عدي فأحسن الى ولده الذي لا يعرفه ام تظاهر بالرضى وهو يخفي غضبه .

غير ان المعروف . هو ان عديا نسي كل مـــا قاله لهانيء بن قلام وعصام بن شهبرة ولو سأله احدهما في تلك الساعة رايه في النعمان لقال له : انه مرسل من الله ...

لقد ذكر عندئذ انه مربيه . وانه احب اعضاء الاسرة المالكة الى قلبه . وانه بذل الجهد كله ليلبسه تاج العراق . بل ذكر انه لولاه لم يملك ولم يرتفع له ذكر . فكان هانيء وعصام صادقين اذ قالا : ان ابتسامة واحدة يفتر عنها ثغر النعمان تنسي عدياً كل شيء ..

كذلك كان معروفاً . ان الاسود شقيق الملك وعدي بن مرينا كادا يتميزا غيظاً لما رأياه من مظاهر ذلك الرضى .

غير ان الابتسامة الصفراء التي ظهرت على شفتي ابن مرينا كانت من تلك الابتسامات الجهنمية التي ينطوي تحتها الحقد والانتقام .

فهمس في اذن الاسود قائلا : كن واثقاً بان هذا الرضى لا يطول امره .

اما ابن زيد فكانت عيناه قد امتلأتا دموعا .

فوقف وقال : اقسم برأس الملـــك ، وبشرفي وشرف آبائي اني لا اخون مولاي النعمان وابناء النعمان ما بقيت . وسأعلم زيـــدا ــ وقد بدأت بهذا ــ ان يخدم مليكه ويطيعه ، كما خدمه ابوه واطاعه فيما مضى. وكما سيفعل في الايام الباقية له .

وتلألأ نور الاخلاص على جبين عدي .

فقال الملك : ونحن نعد صهرنا بأن نبره ونحسن الى ولده ما بقينا .
ثم غير الحديث فقال للقوم :
الا تعلمون اين يقيم زياد بن معاوية اليوم «يعني النابغة شاعره الاكبر»
وفي القوم بعض شعراء العرب . فقال احدهم في بني فزارة يامولاي.
قال : اجل فقد عرف ذنبه فلا يجسر ان يزورنا .
فنظر القـــوم بعضهم الى البعض الاخر متسائلين وليس بينهم من
عرف اذا كان النابغة مذنبا .
فقال الملك : الا تعرفون تلك القبة التي تضرب لزياد في سوق عكاظ
فتأتيه الشعراء فتعرض فيها عليه اشعارها ؟
فقال بعضهم : نعم .
قال : فبينما كان شاعرنا الذبياني في قبته هذا العام وعنـــده شعراء
العرب وقال له احدهم وهو من الحجاز : « بمــاذا استحق النعــمان بن
المنذر شعرك ؟ »
اتعلمون بماذا اجابه ذلك اللعين ؟
فمدوا اعناقهم وظلوا ساكتين .
فقال : اجابه بقوله : قد استحق شعري بعصافيره وعطاياه ...
وابتسم النعمان ابتسامته الهائلة واخذ يجيل نظره بالقوم الذين استغربوا
الرواية ...
ثم قال : ان الذبياني اللعين لم يجد في النعمان شيئاً يستحق المدح الا
عصافيره وعطاياه . اما والله لئن علمت أن احداً منكم اجاره لاجعلن حيه
ساحة حرب . فليختف في بطن الارض خير له من الظهور . ان ظهوره

خطر علية اليس فينا خصلة واحدة يقول فيها ذلك اللعين شعره ام هو احساننا اليه جعله عدوا ؟!

فقال ابن مرينا : اجل ذلك هو الاحسان الى من لا يستحقون ...

لعنه الله وما اكل وشرب الا في آنية الفضة والذهب من عطايا الملك وعطايا ابيه وجده. فهل نسي هذا حتى لم يذكر محاسن الملك وخصاله...

قال : وكنا نغلق بابنا في وجوه الشعراء ونقرب مجلسه واذا اكلنا جلس معنا حتى لتحاذي ركبته ركبتنا ونحن نبسم له ونعطيه ولا نسأله عما يفعله في الخورنق فقد كان احد امرائه وسادته . ومع ذلك فقد كافأنا النذل وازدرى مليكه المحسن اليه امام شعراء العرب واعيانها . فويل لبني فزارة اذا بلغهم قولنا وجفظوا جواره .

فقال شهاب اليربوعي : اتعد قوله اهانة يا مولاي وهو يعترف بجود الملك واحسانه ؟

فاجابه النعمان قائلا : كان الاجدر به ان يعترف بغير هذا ولا يقول: ما مدحناه عن حب ..

فقال ابن مرينا : أقال هذا ايضا ؟

فقال الملك : اجل ونقلوا الينا ما سمعوه لا ينسون منه كلمة . ومنذ انصراف الناس من عكاظ لم نر للذبياني وجها فهو يخشى ان يقدم الحيرة بعد ذلك القول .

قال شهاب : قد تكون هناك وشاية يا مولاي .

فقال : لا تخلق الاعذار يا ابن يربوع فابن معاوية كافر بالنعمة وقد اهان مولاه .

ومعنى ذلك ان النعمان وثق بقول ذلك الواشي وانتهى الامر .

غير ان اسمه اي الواشي ظل مكتوماً فلم يبح النعمان لرجاله به ولم يجسر احد منهم على ان يعيد عليه السؤال .

ثم انتقلوا بالحديث الى دير هند .

فقال الملك : ان هندا ستصبح بعد قليـــل . بفضل زوجها عدي . زعيمة النصارى في الحيرة وسترأس جيشاً جرارا من بنـــات العراق ينقطعن في ذلك الدير لعبادة الله .

قال عدي : أبفضلي انا ايها الملك ؟

قال : اجل فلولا المال الذي تبذله لهند لما قام ديرهـــا بالقرب من دير جدتها تناطح ابراجه السحب .

فقال : ايبذل الملك ماله ثم يقول القوم هذا مال عدي ؟ اني مـــا اعطيت هند درهما واحدا الا من مال الملك . واما انها ستصبح زعيمة النصارى فذلك لانها بنت النعمان والنعمان زعيم العرب وملكها .

قال : يعلم الناس جميعا ان مالنا كله هو بين يديك . اتعلم مـــاذا اعددنا لكسرى من الهدايا في هذا العام ؟

قال : لا .

قال : الف ناقة من العصافير . ايكرم كسرى صهونا ويجعله رئيس ديوانه ولا نبعث اليه من نوق المنذر ؟..

فقال : ليس في هدايا المـــلوك التي ترسل الى المدائن اعظم من هدايا النعمان .

فقال ابن مرينا : وهل يوجد بين الملوك اعظم من ملك العرب ؟..

فاجابه النعمان قائلا : ان صهرنا يعرف ماذا يقول .

فقال عدي في نفسه : كيف يقولون لي ان النعمان قد تغير علي. فوالله ما كان قط اكثر عطفا علي من اليوم .

وفي ذلك الحين كان عصام بن شهبرة يقول ايضا في نفسه : ماقرب النعمان احدا الا قربت ساعات غضبه .

ثم اخذ الملك يحدث رجاله ويحدثونه حتى حان وقت الغداء . فقال:

اتتغدى اليوم مع هند ام مع زيد يا عدي ؟

قال : مع من يشاء الملك فما آكلت احدا وانا في الحيرة الا بأمره.

ــ اذن تتغدى معنا اليوم فيطيب شرب الخمر ..

ثم نهض فنهض الناس وانصرف كل واحد منهم الى مكانه .

• • •

كان الشتاء قد انقضى عندما عاد عدي بن زيد الى المدائن وخلفه مائة عبد من عبيد العراق يقودون عصافير النعمان التي بعثها هدية الى الملك الفارسي العظيم . حفيد انوشروان .

ولم يكن عدي يترك الحيرة الا وقد وثق امر زيد . فأوصى صاحبه هانئا بما فيه مصلحة ولده اذا طال مكثه بالمدائن او حدث ما لم يكن بالحسبان .

كذلك كان يضع لقهرمانه الجعفري منهاجاً ينهجه في اثناء غيابه . ليعطي هندا ما تحتاج اليه من المال . ويحتفظ بالباقي في بيت هانىء ابن قلام.

اما عدي بن مرينا . فلم يكن في العراق كله . رجل مثله يغضي على القذى ويصبر على ما يكره .

كان اذا اراد امرا عالجه بكل اساليب الخداع والرياء . والحيلة والدهاء لا يهتم لما يقوم في وجهه من مصاعب وعراقيل . حتى يستقيم له ذلك الامر ولو امتهنت من اجله كرامته واهين شرفه .

واذا نسي الناس احقادهم وعداواتهم . فابن مرينا لا ينسى شيئاً من ذلك . ولا يغفر لعدوه خطيئته مهما تسامح ذلك العدو وكان كريما .

ومنذ ملك كسرى النعمان على العرب . بفضل عدي بن زيد كما مرأت اضمر البغض للاثنين . ولو استطاع لانتزع التاج عن رأس النعمان ووضعه على رأس اخيه الاسود . وقذف بعدي بن زيد الى اعماق الارض .

لكن الوصول الى التاج ليس هينا فحول العرش جنود كرمل البحر . ويكفي ان يكون كسرى وحده حاميا التاج العربي . بنفوذه وقوة الجيش .

فلم يبق امام ابن مرينا الا ان يختار الامر الهين . فيبدأ بعدي بن زيد اولا . ثم يمد يده الى النعمان . اذا قدر .

غير ان عدي بن زيد في المدائن امنع من النعمان في قصره وبين رجاله . واذا قدم الحيرة . كان في جوار حميه النعمان . كالنعمان نفسه. تحرسه الرجال وتفديه بالمهج . وتنتشر حوله هيبة الملك وجلاله .

ولم يكن غرض ابن مرينا ان يحط عديا من سماء عزه فحسب . بل كان غرضه ان يمحو اسمه من صفحة هذا الوجود . ثم يفكر بعد ذلك في ان يمحو اسم النعمان نفسه . فيصبح امر العراق . في الظاهر . في يد

الاسود بن المنذر . كملك متوج . ويمسي ابن مرينا في الواقع . سيـــد العرب جميعها بدون منازع .

ولماذا لا يكون ذلك . وهـــو الشريف وابن القوم الاشراف الذين ينسبون الى لخم ، وبكلمة واحدة يقولها لاحد رجاله ينطرح عدي بن زيد جثة مضرجة بالدم ، بطعنة خنجر او بضربة سيف .

ولكن . ونكن لا يلبث الامر جتى يظهر . وخلف عدي ملكانمن اعظم ملوك ذلك الزمان . يطوقان العراق كله بالرجال حتى يقبضا على القاتل ثم يعرفان ذلك الدماغ الذي فكر بالقتل . وتلك اليدالتي سلحت يد الجاني فيضربان بني مرينا ضربة لا يرتفع لهم بعدها صوت .

فعمد الى ذلك اللين . الذي اذا ظهر في وجهه حجب ذلك الخبث الذي ينطبق عليه صدره .

ورأى مع رفيقه الاسود ان الامر لا يتم لهما كما يريـــدان الا اذا كانت يد الملك فيه .

اي ان الرجل الوحيد الذي يضرب عديبن زيد ولا يباليهوالملك.

والملك الذي يتغير كلما غربت الشمس وطلع الفجر لا يصعب عـلى هذين الرجلين ان يستميلاه .

واما ان النعمان لا يحبهما وقد اضمر لهما الشر منذ توجه كسرى . فذلك شيء اخر لا ينظر اليه . لان النعمان ينسى كل شيء . اجل . انه كان ينسى كل شيء ...

وكان الاثنان غنيين . كما تقدم . والمالمهما كثر .فلا قيمة لهعندهما اذا كان بذله يرضي الملك .

فاخذا في البذل . حتى انه لم يكن في الدهر يوم الا على بابالنعمان

هدية من ابن مرينا .

فاصبح من اكرم الناس عليه بل اصبح اعز رجاله . واحبهم اليه . والزمان يشهد . ان انصار الرجل واصحابه يكثرون جداً عندما يكون في اوج عزه . ويتركونه عندما يهوي من سماء ذلك العز ...

فطافت الرجال حول ابن مرينا وهم يحملون مباخرهم ويحنون له رؤوسهم كما يحنونها للنعمان .

ذلك لانه اضحى شريك النعمان في احكامه . بل هو سيد الخورنق الاكبر المسلط على كل شيء في العراق . والنعمان لا يقضي في ملكه شيئاً الا بأمره ...

واذا ذكر عدي بن زيد في مجلس الملك . احسن عليه الثناء وذكر فضله . لكنه كان يقول : ان المعدي ـ نسبة الى معد ـ لا يصلح الا ان يكون فيه خديعة ومكر ...

وجعل يقول لاصحابه الذين حوله : اذا رأيتموني اذكر عدي بن زيد عند الملك بخير فقولوا انه لكما تقول لكن كبرياءه لا تقف عندحد. فاذا سألكم الملك عن هذا فقولوا : ان عدي بن زيد يقول دائماً ان النعمان عامله وانه هو ولاه ما ولاه من امر العراق ولولاه لم يكن النعمان شيئاً ...

فاتبع الرجال هذا القول . واخذ الجو يتكهرب والغيوم تتلبد في السماء .. وكلما ذكر عدي بن زيد في مجلس النعمان قال لجلسائه :

لا تذكروا في مجلسنا هذا اللعين الناكر الجميل .

فكان النعمان في هذا يثبت لاهل زمانه ولابناء الاجيال المقبلة انه ذلك الملك السامي في عاطفته واخلاقه . والمقيم على عهد المخلصين له من الرجال.

٢٠

زيد ومليكة

ولد زيد بن عدي في اواخر سنة ٥٩٥ للمسيح . اي بعد ان مرت على النعمان بن المنذر احدى عشرة سنة . كما قرأت .

وكان زيد كما قرات ايضاً . فتى يقل وجود امثاله بين فتيان العراق . في الجود والصراحة . والجرأة والاخلاق . وحكمة النفس والجمال، وكما حمل زيد ، وهو غلام ، لواء النبالة والشرف ، هكذا حمل — وهو غلام — لواء الصبابة والحب .

تغلغل حب مليكة في قلبه ، وهو في الثانية عشرة، ولم يكن حبا توجده العاطفة الوثابة والطيش ، بل كان خاضعاً في كل مظاهره واسبابه لناموس النشوء والارتقاء .

ولد يوم ولدا ، واخذ ينمو في فؤاديهما كلما اشتد لهم ساعد ، كالغرسة الصالحة في الارض الصالحة ، حتى اذا كبرت اخرجت ازاهيرها يتدفق منها النور والبهاء .

اجل ، في الثانية عشرة كان زيد عاشقا ، وفي الثانية عشرة كانت مليكة تذوب غراماً .

وابو مليكة يرى صورة هذا الحب مطلة من عيون الحبيبين ، ويقرأ آياته في وجهيهما مكتوبة بسطور الطهر والاخلاص .

وليس هنالك ما يمنع الصغيرين من الاجتماع، فالخيول مسرجة يركبانها

متنزهين في سهول الحيرة خلفهما طائفة من العبيد ، وزورق الصيد بغلمانه مربوط الى ضفة الفرات ينزله العاشقان فيتهادى بهما فوق الماء كما تتهادى في مشيتها الغادة الحسناء .

واي شيء يعكر صفو ذلك الغرام والحياة تبسم له وخيرات الارض لترامى على قدميه .

العاشقان في هناء . وابواهما راضيان . حتى ان زيادا اخا مليكة . وهو في الخامسة عشرة من العمر . كان يبسم لهذا الحب الذي يربط بيته ببيت عدي بن زيد . حين يصبح الاثنان في سن الزواج .

وكانت رسائل زيد الى ابيه في المدائن . سطورا واضحة يصف فيها حبه لمليكة . وما يكابده من لواعج هذا الغرام .

وعدي . تدمع عيناه كلما قرأ تلك السطور الطافحة بحكمة ولده وادب نفسه ، ويكتب اليه يعلله بالمنى . ويعده بقرب ذلك اليوم الذي تصبح فيه مليكة عروسا له .

وكان احب شيء الى عدي اذا قدم الحيرة. ان يرى ذينك الولدين. على صغرهما يتحدثان بلغة القلوب . وذلك الحب الطاهر يبسط فوقهما جناحيه .

ولم يكتف الاثنان . مليكة وزيد . بأن يتشاكيا الهوى ويستعذبا اللهو والصيد بل تعاهدا على الوفاء لا تفصل احدهما عن الاخر حادثات الزمان .

وكانت مليكة . من اولئك الفتيات اللواتي تنطق افواههن بما في الصدور اي انها لا تعرف الرياء والكذب : واذا وعدت . فوعدها

صادق . وعزيمتها ثابتة .

وكانت اجمل فتيات الحيرة واطهرهن خلقا . حتى ان نساء العرب كانت تقول :

لو اجتمعت فتيات الجزيرة ليختار النعمان احداهن عروسا لــولي عهده لما وجد بينهن احسن من بنت هانيء .

ولكنها صغيرة السن لا تصلح لقصور الملوك .

والنساء كما نعلم . اذا تناقلت افواههن خبرا انتشر ذلك الخبر في البلد وملأ المجالس والمحافل . والاكواخ والقصور .

وكان قابوس في عنفوان صباه ومقتبل عمره . وهــو اعظم فتى في العرب تنظر اليه بنات الاشراف نظرهن الى النجم .

اي ان اجملهن وجها واغلاهن نسبا لم تكن تطمع بقابوس .

فهنالك حظ . ولقابوس وحده ان يختار .

فلما بلغه قول نساء الحيرة . قال لامه فرعة :

أتعرفين مليكة بنت هانيء بن قلام ؟

فبغتت الملكة لسؤال ولي العهد . وقالت :

اتسأل عن آل قلام يا قابوس وهم اعداء الملك ؟

قال : ما رأيت لهذا العداء وجودا الا في مخيلة الملك .

قالت : انسيت حكايه الثأر التي قصها علينا قبل زواج هند ؟

قال : انها لحكاية غريبة يا سيدتي . أيمـوت ثأر آل قــلام جيلين كاملين ثم ينتفض حيا ؟ ان ذلك لغريب .

فقالت الملكة : ما معنى هذا يا قابوس ؟

قال : معناه ان آل قلام لو ارادوا ان يثأروا قتيلهم لفعلوا . ومع ذلك فنحن نتحدث عن الجمال لا عن تواريخ الاجيال .

ــ ماذا تريد الان يا بني ؟

ــ أتعرفين هذه الفتاة التي يقولون انها اجمل نساء العرب ؟

ــ اراك تعشق على السماع يا قابوس .

ــ نعم ولو ضمنت رضى الملك لاخترتها زوجة .

فقطبت الملكة حاجبيها وقالت :

ان الملك لا يريد ان يعرف هذه الفتاة ولو كانت من الملائكة فاترك هواك يا قابوس ولا تحدث به الملك .

قال : الا يسمح لي الملك بان ارى وجهها على الاقل ؟

فقالت : بل لا يسمح لاحد من اعضاء اسرته بان يفكر في من لا يحبهم فاحترم نفسك ولا تذكر لأبيك كلمة .

فخرج قابوس وهو يقول اذا كان الملك لا يرضى فقد نسيت هذا الهوى ...

فاستوقفته فرعة قائلة : اذا كان هواك على هذا القياس فانت مجنون يا بني .

فقال : اعدك بأني لا اعود الى مثل هذا الجنون .

***

٢١

رجوع النابغة

تزوير يعقبه انفجار

قال هانىء بن قلام لعدي بن زيد :

ان العاشقين الصغيرين يكاد يقتلهما الغرام يا عدي .

فاجابه عدي قائلا : اترى ان نزوجهما في هذا السن ؟

قال : نعم فلا اراهما يصبران حتى يكبرا .

فضحك وقال : اخشى ان يكون غرامهما لعبا .

فقال : اما انا فاخشى ان يكون هذا اللعب خطرا على الاثنين .

ــ اذن نضرب موعدا للزواج .

ــ نعم وهذا هو الرأي .

فسكت عدي مليا ثم قال : اتزوج مليكة قبل اخيها زياد ؟

قال : ان زيادا لا يعرف العشق فمتى عرفه زوجناه .

واخذا يتحدثان حتى اجمعا على ان يكون الزواج في سنة ٦١٠ . اي بعد ان تمر سنتان اثنتان .

ذلك لان الحديث جرى في شتاء سنة ٦٠٨ وعدي بن زيد لا يعرف شيئاً عن تغير النعمان لأن النعمان قدر ان يضبط عاطفته ويخفي غضبه فلم يظهر برودا .

ولم تتغير عادة عدي في الرواح والمجيء بين الحيرة والمدائن . في الشتاء وفي الصيف . وكلما قدم الحيرة مرة حمل للنعمان وللاميرين ولديه شيئا من طرائف الفرس واختص هندا زوجته بهدية من اللؤلؤ او من الذهب .

اما عدي بن مرينا فكان ينفث سمه من وراء الستار مغتنما في ذلك غياب عصام بن شهبرة كي لا يفسد عليه امره ويخبر عديا .

لكن عصاما كان يعرف خبث الرجل ولؤمه فاذا اجتمع بعدي حذره منه . وذلك الرجل الطاهر الخلق لا يهتم لقوله .

حتى استطاع ابن مرينا ان يثير غضب النعمان كما مر وشاء القدر ان يبقى الامر مكتوما .

واما العاشقان ففي سنة ٦٠٨ كانا في الثالثة عشرة من العمر فلا تزف مليكة الى زيد الا متى اصبحا في الخامسة عشرة غير ان الموعد لم يرض مليكة . اجل انها لم تظهر لابيها الا الرضى ولكنها عندما اختلت بزيد اظهرت له خوفها من ذلك .

لم يكن ذلك الخوف مبنيا على اساس انما قلبها الخفاق كان يضطرب اضطرابا . ونفسها تحدثها بوقوع شر .

وكان زيد يهزأ بهذه المخاوف وهو يرى المستقبل يبسم له كما يبسم له حاضره فكل شيء كان في نظره ابيض ناصعاً في حين ان مليكة كانت ترى السماء الصافية والفضاء المتلألىء اشد سوادا من الليل .

وتلك الاحلام احلام الصبا والشباب ، والآمال العذبة التي تسود اذهان العاشقين ، كانت احلاما مزعجة واما لا سوداء .

حتى ان ذلك الشعاع الملائكي المرسل من عينيها السوداوين الذابلتين انطفأ فجأة فأصبحت عيناها ترسل الكآبة والالم وعلى جبينها الاسمر كتب الهم سطره البليغ .

فقال لها زيد يوماً وهما في زورق الصيد :

أتحبينني يا مليكة ؟

فنظرت اليه نظرة عتاب وقالت :

تسألني عن الحب وانت تعلم ان حياتي هي لك !!

قال : ولماذا طلق ثغرك الابتسام ؟

فتنهدت قائلة : اخشى ان تكون سنة ٦١٠ سنة شؤم .

ـ اما انا فأرى غير ذلك . ارى ان قول النساء في الحيرة اثر في ذهنك حتى اصبحت تفكرين في قابوس ابن الملك .

فتساقط الدمع على خديها الملتهبين وضمت يديها على صدرها وقالت:

لا تتهمني بغرامي يا زيد فانا لا عهد لي بابناء الملوك ولا امد يدي الى فتى من فتيان العرب ولو كان ابن السماء . لقد نشأت وانا لا اعرف غير زيد بن عدي لا ينطق لساني بغير اسمه ولا ينطبق جفني الا على صورته . ولا يخفق هذا القلب الا على ذكره . فاذا نمت فهو حلمي . وان استيقظت فهو امنيتي وبغيتي . وجميع الملوك والامراء لا يصلحون في نظري لان يكونوا عبيداً لهذا الحبيب الذي ملك قلبي .

وانا لا اعرف ابن الملك . رأيته مرة على ضفة الفرات مع اخيه المنذر تحيط بهما الامراء والرجال . اما هو فلم يرني لأني كنت مستندة في هذا الزورق الى ذراعك ايها الحبيب القاسي القلب . ولو لم يقل لنا احد

الصيادين ان الموكب هو موكب ولي العهد لما عرفنا قابوسا هذا ولكان مر امامنا كما يمر سواه من الناس . الا تذكر هذا يا زيد ؟

قال : نعم لكن الاقاويل كثرت في الحيرة فالناس لا يتحدثون الا بزواج ولي العهد حتى اضحى اسمك على الشفاه . ولقد سمعت القهرمان يقص ذلك على ابي فنهاه ابي عن ذلك بقوله : ان ولي العهد اعظم من ان يتحدث الناس بأمر زواجه وهو يعرف ان يختار عروسه .

ـ واي شأن لي فيما سمعت حتى تقول اني افكر في قابوس ؟

ـ خفت ان يبهر عينيك بريق التاج الذي سيوضع على رأسه .

ـ ان ذهني لا يتسع للتفكير في اصحاب العروش .

ـ اذن انت لي وحدي يا مليكة ؟

ـ نعم ولك وحدك الى الابد .

ـ واذا جاء قابوس ؟

فقاطعته قائلة : اذا جاء جبريل يسألني اللحاق به الى الجنة لرفضت الجنة لانك لست فيها . ايكفيك هذا ؟

ـ وترفضين ولاية العهدا كراما لي ؟

ـ بل اعاهدك امام الله اني ارفض عرش العراق نفسه اذا لم تكن انت على هذا العرش .

ـ ولكن لا تنسي ان هناك ملكا .

ـ وانا اسألك الا تنسى ان لي قلبا لا يخاف الملوك .

فايقن الفتى عندئذ ان ذلك الامير الذي تردد اسمه الافواه ويدعونه ولي العهد لا يستطيع ان يسلبه مليكة . تلك التي سلبته عقله . فقال :

كفى لقد صدقت .

فقالت وصوتها يخنقه البكاء : ما كنت احسب من قبل انك لا تثق بي.

قال : اسمعهم يقولون ان العاشقين كثيرو الظنـــون فاعـــذريني اذا كنت من هذا الصف .

فابتسمت لهذه المداعبة وقالت : اراك تهزأ بكآبتي يا زيد .

فقال : بل احاول ان انتزع هذه الكآبة من صدرك .

فقالت : اما كآبتي فلا تزول حتى امسي زوجة لك .

فتمادى في مزاحه قائلا : لي او لقابوس . ؟

فنهضت مليكة بعظمة الملكات ومشت الى مؤخر الزورق فجلست على وسادة موضوعة بين خشبتين وارسلت نظرها الى الفرات الفياض وعيناها تملأهما الدموع .

فعلت ذلك احتجاجا على ذلك المزاح الذي لا معنى له .

فلحق بها الفتى ، وفي مؤخر الزورق على مرأى ومسمع من الملاحين جثا امامها وعلى ركبتيه قائلا :

لقد اخطأت يا مليكتي فتجاوزي عن ذنبي .

فاتكأت على حافة الزورق وهي تشهق بالبكاء .

فلما لم يسمع جوابا قال : اذا لم تكفي عن البكاء قذفت بنفسي الى الاعماق .

فنظرت اليه بفتور قائلة : اتستغرب دمعي وانت تثيره ؟

قال : ما كنت لاعود الى مثل هذا بعد الآن ، ولكن على شرط !

ــ أفي القضية شروط يا زيد ؟

ــ نعم فانا كثير الظنون كما تعلمين . وكلما رأيتك تبكين قــام في ذهني ان لقابوس يداً في هذا البكاء . فاتركي بكاءك اترك سوء ظني . والا فانا اعود اليه كلما جال الدمع في عينيك الفاترتين .

ففهمت الفتاة حيلته فقالت :

اراك تحاول كما قلت ان تنتزع الكآبة من هذا الصدر . والا فانت تهينني .

فابتسم قائلا : لقد حذرت الآن ، ولكن قولي لي أليس في امركما يدعو الى العجب ؟

ــ بلى واراك تعني موقفي هذا بعد تعيين موعد الزواج .

ــ اجل فبينما انت تبسمين قبل اليوم لكل شيء اذا بالالم يتغلغل الى اعماق نفسك عندما جعلوا لزواجنا موعداً .

فانهضته قائلة : ذلك لاني ارى في منتهى الافق خطوطاً سوداء .

فقال : ذلك وهم يا مليكة فلا تستسلمي للاوهام .

فلمع في عينيها ذلك الشعاع الساحر وقالت :

اتمنى ان تكون مخاوفي اوهاما .

ثم تناولت يد الفتى وعاد الاثنان الى تلك الشبكة الصغيرة يقذفان بها الى الفرات .

ذلك كان شأن العاشقين الصغيرين . يتشا كيان الهوى ببلاغة العاشقين ويتجاذبان احاديث القلب برقة اهل الصبابة وامراء الغرام .

وليس في ذلك مجال للغرابة فتلك العاطفة السامية التي يسمونها حبا ، توحي البلاغة والعذوبة ، وتجعل اذهان العشاق ــ وان كانوا صغاراً ــ

ارق تصوراً من مخيلات الشعراء .

ولو لم يكن الحب فضاحاً لخفايا القلوب ، لظن الناس الذين يرون العاشقين الصغيرين ، ان الاثنين اخوان .

اذ لا يخطر بالبال ان الثلاثة عشر عاماً تجمع بين قلبين بمثل ما تجمع بين مليكة بنت هانيء وزيد بن عدي ..

وامتلأت الشباك من السمك .

فاشارت مليكة الى سمكة كبيرة حمراء قائلة :

ما رأيت بين طوائف السمك واحدة تلبس مثل هذا اللباس ..

فاجابها زيد قائلا : ذلك لباس الملوك فلعلها الملك او ولي عهده .

فهمست في اذنه تقول :

اذن اصبح ولي العهد اسيرك .

فقال : نعم ولكنه ولي عهد سيء الحظ . فاطلقيه يا مليكة .

ـ لمـــاذا ؟

ـ لانه قد يكون عاشقاً وانا لا احب ان تحتفظي بابناء الملوك .

فقالت : وقد تكون هذه الاسماك الصغيرة من حاشية الملك وخواصه، فلترجع الى الفرات .

ثم قلبت شبكتها فقفز السمك الى الماء وهما يضحكان !

واخذ الزورق يدنو من الشاطيء . وطوائف الصيادين على ضفتي النهر العظيم تنظر الى ذينك العاشقين يرجعان الى منزلهما . كزوجي حمام يعودان الى الوكر اذا اقبل المساء .

وكان هانيء وعدي جالسين في احـــدى الشرفات يشربان الخمـــر

ويأكلان التمر . والى جانبهما زياد بن هانىء ، يبري سهامه ويشحذ سيفه الصغير .

فلما اقبل العاشقان قال لهما عدي :

اين تركتما السمك يا زيد ؟

فقالت مليكة : تركناه يسرح ويمرح في الفرات .

فضحك عدي وقال : واظن انكما نسيتما الشباك في المياه .

فاجابه زيد قائلا : ملأناها سمكاً من جميع طوائفه ، واجناسه ثم اطلقناها كالملك الكريم يطلق اسراه .

ـ ذلك ما لا يفعله الصيادون يا بني .

ـ اجل ، ولكن رأينا بين الاسماك ملكاً يجر ذيل ردائه الاحمر وخلفه خواصه ورجال بلاطه فكرهنا ان نصيد الملوك .

فاسكته ابوه بقوله : مثلك من يتحدث عن الملوك يا زيد ؟

قالت مليكة : لم يكن ذو الرداء الاحمر ملكا بل كان ولي عهد .

ولم ينتظر زيد جواب ابيه. فقال : ونحن لا نحب ولي العهد فأبقيناه في الفرات .

فقطب عدي حاجبيه وقال : لئن عدت الى ذكر الملك وولي عهده مرة اخرى تركتك عائداً الى المدائن . . ان الملك وجميع آل لخم اصل نعمتنا ولولاهم لم نكن شيئاً . أفلا تذكر ما كنت اقوله لك عن النعمان ؟ . .

فقال : ما تحدثنا عن النعمان يا ابي ولكن عن ملك آخر .

قال : فهمت كل شيء فلا تعد الى مثل هذا واذا خفت ان يسلبك

قابوس هذه الفتاة فاعلم ان قابوس ارفع من ان يسلب احداً حقه .

فضحكت مليكة ضحكاً عالياً ما ضحكت مثله منذ عينوا موعد الزواج وقالت لابيها :

ان زيداً يستحق هذا التوبيخ فقد ردد اليوم اسم ولي العهد اكثر من عشرين مرة .

قالت هذا وانصرفت باسمة !

فلحق بها زيد وهو يقول : يكفيني اني اسرت ولي العهد ثم اعدته بطن الارض .

وبعد انصرافهما قال هانىء لعدي :

لو زوجناهما اليوم لفعلنا خيراً .

فقال عدي : انهما يؤثران اللعب في هذه السن على ان يكونا زوجين بينهما صلة الزواج .

* * *

وتناقلت وفود العرب خبر غضب النعمان على شاعره الاكبر ، النابغة ابي امامة .

وكان ابو امامة ، نازلا على بني فزارة كما تقدم ، والقوم يحترمونه ويحبونه ويمنعون النعمان اياه ولو ذهبوا ضحية المروءة والوفاء .

فلما تناقلت الافواه خبره قال للقوم :

اني راحل عنكم قبل ان يطلبني ابو قابوس .

وكان النابغة بريئا مما نسب اليه . غير ان خصومه ارادوا انيكيدوه ويحطوه من منزلته عند الملك ، فخدمهم الحظ ، ولم يكن بين الملوك من يصغي لاقوال الواشين مثل النعمان بن المنذر .

واخذ النعمان يطلبه وهو يهرب من وجهه متنقلا بين احياء العرب من حي الى حي حتى مل موقفه واحس بالتعب من كثرة الاسفار .

وهو شيخ كبير السن لا يقدر على الرواح والمجيء الدائمين .

فولى العراق ظهره ، وتوجه الى الشام قاصداً اولئك الملوك الذين سار ذكرهم في القطر العربي اولئك الغسانيين الذين جعلوا بلاد الشام من اخصب بلاد الناس ، واصبحت قصورهم ومنازلهم كعبة لوفود الاقطار ومحجاً لجماعات الشعراء .

فاكرم القوم وفادة النابغة ، شاعر النعمان عدوهم الألد وخصمهم الاكبر الذي يخشى جانبه بين امراء العربان .

واخذت قريحة الشاعر تخلق الشعر وتجود بالجيد منه في مدح الامراء ووصف حروبهم ومواقعهم وفضلهم . ورواة العرب يتناقلون شعره ويرددونه في مجالسهم واحيائهم حتى نقلوه الى الحيرة . واعادوه على مسمع النعمان ، في مجلسه الحافل بنبلاء العرب ، كما القاه ابو امامة في مجلس الغسانيين .

من هذا الشعر قصيدة في عمرو بن الحارث الاصغر احد امراء آل غسان جاء فيها :

وثقت له بالنصر اذ قيل قد غزت　　كتائب من غسان غير اشائب

اذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدي بعصائب

ومنها :

ولا عيب فيهم غير ان سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم من الجود والاحلام غير عوازب

فلما انشدوها النعمان ، هاج هائجه وقال :

أفعلها الذبياني اللعين والله لاجعلنه عبرة لامثاله .

واستمر النابغة على هربه ثلاثاً كان فيها موضع الحفاوة والاجلال غير ان الغريب وان طال بعده عن بلده . فالشوق يدفعه الى ذلك البلد حتى ليترك العز الذي هو فيه . ويركب الاخطار عائداً الى القوم الذين نشأ بينهم وعاش في جوارهم .

وهذا ما كان من النابغة الذبياني يفكر فيه . حتى انه قال لبعض اصحابه :

سأعود الى العراق فأرى قومي واموت .

وكان يحب النعمان بن المنذر ، فوق ما كان يحب اباه وجده ابن ماء السماء .

ذلك لان النعمان كان يبره ويجزل صلته ولم يكن يأكل ويشرب الا في آنية الذهب والفضة من عطاياه .

والعرب تعلم ان النابغة كان اقرب المقربين الى النعمان . واكثرهم ادلالا عليه . ما سأله حاجة الا قضاهـا له . ولم يطلب اليه امـر الا امر له به .

فكيف يجفوه مولاه بعد ذلك الاحسان وذلك الولاء ؟

انه من الصعب على النابغـــة ، وهو سيد الشعراء وامير القـــلم ، ان يهبطه خصومـــه بكلمة واحدة من خالق مجده الى حضيض الهوان والذل ...

فاستأذن جبلة ملك الشام في الرحيل وشد رحل ناقتـــه في ليلة مظلمة تاركاً ربوع الشام وهو يقصد بلاد قومه .

وقال لعبده وهو في الطريق: اذاسألكعني الناسفقلاني من الحجاز.

اجل كان الرجل خائفاً ان يقبض عليه النعمان فيقتله قبل ان يتفحص عن امره وقبل ان يرى ابناء عشيرته .

ولم يعرج على حي من احياء العرب الا ويقـــول عن نفسه : « اني من الطائف وانا قادم من الشام » .

حتى نزل على بني فزارة قبل ان يمر بقومه بني ذبيان .

فقال له احدهم : ويلك يا ابا امامـــة . أترمي بنفسك الى الهوة ولا تبالي ؟

فاجابه قائلا : ما كنت لأهتم لما بقي لي من الايـــام . . أتعلم لماذا قدمت ؟

قال: لقد انتهى اجلك فالموت يبرق من سيف الجلاد ، جلادالحيرة.

فابتسم الشيخ الذي سئم عيشه قائلا :

ولكني ما تركت الشام الا لاعود الى الحيرة . . أليس في بني فزارة من يجيرني عند النعمان ؟

فتشاور القوم واجمعوا على ان يجيروه فيصحبه اثنان منهم الى الحيرة ويسألا الملك باسم قومهما ان يعفو عنه .

فاقام فيهم شهراً ثم انصرفوا . وقد اعد النابغة قصيدته المشهورة يسترضي بها النعمان منها قوله :

فتلك تبلغني النعمان ان له ... فضلا على الناس في الادنى وفي البعد
ولا ارى فاعلا في الناس يشبهه ... وما احاشي من الاقوام من احد
الا سليمان اذ قال الإله له ... قم في البرية فاحددها عن الفند
وخبر الجن اني قد اذنت لهم ... يبنون تدمر بالصفاح والعمد
فمن اطاع فأعقبه بطاعته ... كما اطاعك على الرشد

ومنها :

انبئت ان ابا قابوس اوعدني ... ولا قرار على زأر من الاسد
هذا الثناء فان تسمع لقائله ... فما عرضت ابيت اللعن بالصفد
هاك معذرة ان لم تكن نفعت ... فان صاحبها قد تاه في البلد

وكان حسان بن ثابت في الحيرة ، قدم على النعمان وقد امتدحه ، وهو من شعراء الغسانيين يتغنى بفضلهم .

وحسان من الحجاز ومن مشاهير الشعراء .

فأتى عصام بن شهرة فجلس اليه . فقال له عصام :

« اني لأرى عربياً أمن الحجاز انت ؟

« قال : نعم .

« قال : فكن من بني قحطان .

« قال : فانا قحطاني .

« قال : فكن حسان بن ثابت .

« فاجابه قائلا : انا هو .

« فقال عصام : اجئت بمدحة الملك ؟

« قال : نعم وارجو ان تستأذن لي .

ـ الست شاعر الغسانيين في الشام ؟

ـ بل انا شاعر الملوك الذين يحسنون الي ويعرفون فضلي .

ـ وهل تعرف عادة النعمان في مجلسه ؟

ـ لا فهذه هي المرة الاولى التي اقدم فيها عليه .

قال : اذا دخلت عليه فانه يسألك عن جبلة بن الايهم ملك الشام ويسبه فاياك ان تساعده على ذلك او ان توافقه فيه او تخالفه . ولكن قل له : مـا دخول مثلي بينك وبين جبلة وهو منك وانت منه . وان دعاك الى الطعام فلا تؤاكله فان اقسم عليك فأصب من الطعام الشيء اليسير ولا تأكل أكل جائع .

فقال حسان : جازاك الله وبعد ذلك ؟

قال : ولا تطل محادثته ولا تبدأ بخبر حتى يكون هو السائل لك . ولا تطل الاقامة في مجلسه لئلا يمل فيأمر باخراجك .

ودخل عصام على الملك ثم خرج اليه وقال له :

ادخل يا شاعر الغسانيين ولا تنس .

فدخل حسان فسلم وحيا النعمان تحية الملوك . والناس بين يديه .

فنظر اليه النعمان قائلا : يا ابن ثابت اتركت لنا شيئاً من شعرك ام استنفده كله اصحابك بنو غسان ؟

فقال : لقدمدحتك ايها الملك بما لم امدح بمثله اجدا قبلك من الملوك.

ـ وهل يأذن لك جبلة في هذا وهو لا يطيق ان يسمع كلمة ثناء على سواه .

ـ ليس لجبلة ان يأمر الا رعاياه وانا لست من الشام بل من الحجاز.
قال : احسنت ولكنه رجل غادر حسود لا تلبث قوائم امارته حتى تنهار تحت الاقدام .

ثم اندفع يشتم جبلة وحسان ساكت لا يقول كلمة : حتى قال :
الم يعجبك قولنا يا حسان ؟
فقال : ما كان مثلي ليدخل بين الملوك . اتأذن لي في الانشاد ؟
فأذن له فانشده شعراً جيداً استحسنه النعمان .
ثم دعا بالطعام والشراب ففعل حسان ما امره عصام به فلم يأكل ولم يشرب الا قليلا .
فقال النعمان لقهرمانه : اعط ابن ثابت عشرة الاف درهم وبرودة وسيفاً .
ثم قال لحسان : امكث عندنا شهراً ولك منا كل يوم مثل ما اعطيناك الآن .

فشكر حسان واثنى وخرج .
فقال له عصام : ما رأيت ؟
قال : رأيت ما وصفته لي كأن الملك كان حاضراً وكأنه يعيدقولك ثم امر لي بجائزة ودعاني الى البقاء في الحيرة شهراً كاملا ادخل عليه في كل يوم من ايامه .

فقال : لقد بلغني ان النابغة الذبياني قادم عليه ، فاذا قدم فليس لاحد منه حظ سواه . فاستأذن حينئذ وانصرف مكرماً خير من ان ينصرف مجفوا .

قال : ولكن عرفت ان النعمان غاضب على الرجل .

قال : نعم لكنه استجار ببني فزارة وانا ارى ان النعمان سيرضى .

ــ اذن سأبقى حتى يقدم النابغة .

ومكث بضعة ايام حتى قدم الفزاريان ومعهما النابغة .

فامر النعمان بان ينزلوهما في الخورنق ويحسنوا وفادتهما وهو لا يعرف انهما يجيران النابغة وانه معهما .

ولامور خاصة تشغل بال النعمان لم يأذن لهما بل كان يرسل اليهما بطيب مع جارية من جواريه .

فكانا يأمرانها بان تبدأ بالنابغة قبلهما وهي لا تعرفه .

فقالت للنعمان يوماً : ان مع ضيفك رجلا شيخا طويل اللحية ، لا يتطيبان قبله .

فعلم النعمان انه النابغة لكنه لم يأذن للفزاريين ولم يرد ان يسألهما عن ذلك الرجل .

غير ان النابغة ضجر من هذا فهو يحب ان يقابل النعمان فاما ان يفوز برضاه واما ان يأمر بقتله .

فالقى شعره الذي ذكرنا بعض ابياته على جارية النعمان وسألها ان تغنيه به اذا اخذت فيه الخمر .

ففعلت ما امرها به وتغنت بشعر ابي امامة في ساعة من ساعة سكر النعمان .

فطرب الملك السكران واستعاده منها فاعادت غناءه وهو يهز رأسه طرباً ثم قال :

« هذا شعر علوي . هذا شعر النابغة .

لكنه لما صحا في اليوم الثاني نسي كل ما قيل في تلك الليلة وما سمعه من شعر وغناء .

وعند الغروب ، خرج الى الرواق الكبير وهو يحدث ابن مرينا ولا ثالث بينهما .

فعارضه الفزاريان والنابغة بينهما قد خضب لحيته بحناء .

فلما رآه النعمان قال : هي بدم كانت احرى ان تخضب .

فانطرح الفزاريان على قدميه قائلين :

ابيت اللعن يا مولانا قد اجرناه والعفو اجمل .

فقال : ايستحق العفو هذا اللعين وهو لا يرى فينا خصلة تستوجب المدح ؟ .

قال النابغة : لقد كذب النمام القائل اني ذكرت في عكاظ ذلك القول .

قال : بل انت الكذوب الكافر بالنعمة .

فجثا النابغة على قدميه ورجلاه ترتجفان ودموعه تبل لحيته . ومد يديه مستعطفا وهو يقول :

لقد رضيت بالموت يا مولاي اذا كان ما بلغك صحيحاً .

فالتفت الملك عندئذ الى عدي بن مرينا وقال :

يظهر ان شاعرنا بريء مما نسب اليه . قم يا ابا امامة لقد امناك .

هكذا كان النعمان يرضى ، وهكذا كان يغضب . وبين الغضب والرضى ساعة من الزمن . على شرط ان يجثو المغضوب عليه امامه

ويستغفر ...

ثم قال الملك : عودوا الى المجلس فسينشدنا شاعرنا ما نظمه من الشعر من جديد ..

فعاد القوم : وطابت نفس النابغة فأخذ يرتجل الشعر وعلى جبينه دلائل السرور والاستبشار .

فلما فرغ من انشاده اجال النعمان بصره في القوم فلم يجد لا قهرمانا ولا حاجبا .

فقال لابن مرينا : ناد عصام بن شهبرة .

فكاد ابن مرينا يختنق لما رآه من رضى الملك عن شاعره .

وهو لا يطيق ان يرى الملك راضياً عن رجل كان مغضوباً عليه .

ذلك لانه كان يخشى ان يظهر النعمان رضاه عن عدي بن زيد بعدما اوغر صدره عليه وملأه حقداً .

وساعة عتاب قصيرة تكفي لان يبتسم النعمان لصهره ويزول من صدره كل اثر سيء ووشاية كاذبة .

ولا يحدث العتاب الا اذا اجتمع الاثنان . النعمان وعدي . فينقضي كل شيء ويتلاشى تعب ابن مرينا الذي عاناه في سبيل القضاء على ابن زيد . كما يتلاشى الضباب في الفضاء .

وماذا يستهدف هذا الرجل اذا ظل صهر النعمان على منزلته وفي سماء مجده ونفوذه ...

فعول على ان يضرب الضربة القاضية . دون يترك للاثنين سبيلا للاجتماع .

وقد وفرت، للرجل الاسباب . فالنعمان يملأ صدره الغيظ والغضب على عدي . لكنه لا يمد اليه يده بسوء الا اذا لمس خيانته بتلك اليد .

وقد يكون النعمان خائفاً من كسرى فلا يتعرض لعدي بن زيد الا اذا طفح الكيل ..

اذن بقي على ابن مرينا ان يخترع السبب الذي يخرج النعمان عن حده وهذا لا يتم له الا اذا اجتمع بمجلس شوراه . اي بالاسود شقيق الملك ومن شايعهما من الرجال .

بل لا يتم له الامر الا اذا بالغ في الكتمان . واعد عدته في الخفاء وفي ظلام الليل. لئلا يعرف عصام بن شهبرة ـ كما تقدم ـ فيفضح سره . ويفسد عليه امره .

كل هذه الافكار جالت في ذهن ابن مرينا وهو يجتاز قاعةالجلوس لينادي عصاماً ٠

لقد اقمناك يا عصام الآن مقام قهرماننا ٠ فاعط ابا امامة شاعرنا مائة ناقة من نوق العصافير يختارها بنفسه ٠ وجاريتين من جواري‌اليمن وعبدين وفرسين ،واذا منعت اخوتنا وابناء عمنا من الدخول فلا تمنع النابغة فقد اعدنا اليه سابق عزه في الخورنق لا يتقدمه شاعر في الجلوس والانشاد ٠٠٠ اذهب واختر جائزتك يا ابا امامة ثم عد فحدثنا بمارأيت في ربوع الشام ٠

ثم اشار الى الفزاريين قائلاً :

واعط هذين الرجلين مثل ما اعطينا النابغة لكل منهما خمسين ناقة وجارية وفرساً وعبداً فقدكفاهما انهما اجاراه ٠

فخرج الثلاثـــة مع عصام • وقام الملك فأومأ الى ابن مرينا بأن يتبعه ••

* * *

ما كاد ينقضي شتاء سنة ٦٠٨ حتى كان عدي بن زيد في المدائن• على امل ان يعود الى الحـــيرة في سنة ٦٠٩ لان ظواهر النعمان لم تكن ظواهر رضى •

اجل : كان عدي يعرف طباع النعمان فلا يعجب لتغيره •ولكنه لم يكن يرضى بان يحول عنه وجهه وهو في مجلسه •

وكـــان يقول في نفسه : والله لن اعود الى الحيرة الا اذا دعـــاني النعمان نفسه •

ثم ذكر ان مليكة ستزف الى زيد بعد عامين ، اي في سنة ٦١٠ • فسيعود اذا الى الحـــيرة في ذلك العـــام فيزوج ولده • وينقل بيته الى المدائن • الى حيث تنحني له رؤوس القوم •

واذا ابت هند الا ان تبقى في الحيرة فلتمكث فيها ما طاب لهـــا الزمان . ولتنفرد في ديرها تنقطع فيه الى العبادة اذا رأت ان الدير خير لها من هذا العالم .

ولا شيء يثني عدياً عن عزمه . فقد مل حيـــاة المداهنة والمصانعة والرياء .

ويكفيه ، ان رأسه ، وهو في الحيرة، لا يبقى على جسده الا اذا صانع الملك العربي وحرق له البخور .

والويل له اذا كان صريحا . فالصراحة تبعث بصاحبها الى القبر .

والحر يصعب عليه ان يلبس في كل يوم حلة .. ويتسفل الى حد ان يكون كاذباً وجباناً .

من اجل هذا كله . كان عدي بن زيد يحاول ان يمحو الحيرة من ذهنه.

وهو اذا زار الحيرة.فلكي يرى عصام بن شهبرة . واياس بن قبيصة. وآل قلام . واصحابه بني جعفر وبني يربوع . بل لكي يرى ولده زيداً تبسم له الدنيا ويمشي بخطى واسعة في طريق الشرف والمجد .

وكان عدي ، قد سمع باذنه ورأى بعينه ، ان ابن مرينا هو صاحب السلطان في الخورنق والناس كلهم من اتباعه . واحزاب العرب تلتف حوله لقربه من ذلك الملك الذي لا يعرف له دين .

ولم يبق من رجال النعمان . من يحب عدياً ويؤثره على سواه . الا عصام بن شهبرة والوزير شهاب اليربوعي .

اما عصام فقد اثبت حِبه واخلاصه غير مرة واما شهاب ، فوزير جبان ، يحتفظ بمنصبه ولا ينفع اصحابه .

فلو كان اياس بن قبيصة مقيما في الخورنق ، لهان على عدي ان يحبط مساعي خصومه ، ويصون منزلته في بلاط الملك.

لكن اياساً في عين التمر ، فهو حاكمها من قبل كسرى فلا يترك ولايته ويقدم الحيرة الا لامر ، او اذا قامت السوق ، كما مر .

واما هانيء بن قلام وبنو جعفر ، فلم يكونوا من رجال النعمان ،

الا ان كانوا من اعز العرب واشرافها .

وخير لعدي بن زيد ، ان تكون العرب كلها خصوماً له، ويكون النعمان ورجال بلاطه من اصحابه . ذلك لان رب البلاط هو مصدر النعم بعد الله ، والحياة والموت بين شفتيه .

وكان عدياً ــ عندما فكر في عدم الرجوع الى الحيرة ، كان يخدم في ذلك ابن مرينا وانصاره من حيث لا يدري . او كأنه كان يساعد القدر الجائر الشاهر سيف نقمته وظلمه فوق رأسه .

وللاقدار ناموس يختلف في تفسيره الحكماء .

وكانت الايام تمر مر السحاب ، ومليكة وزيد ينتظران ذلك اليوم الذي جعلاه موعداً لزواجهما ، وفي نفس الفتاة ألم مبرح لا تعرف سببه ولا تستطيع ان تزيله . وكلما طلعت الشمس وغربت ، تزداد نار الغرام المتقدة في صدريهما ضرما وسعيرا .

والامل فسيح المجال ، حتى ان ايام العاشقين لتنقضي بالاحلام وبالمنى. وكلا الاثنين ــ زيد ومليكة ــ ظل للآخر . فهما لا يفترقان الا اذا أوى كل منهما الى غرفته بعد ان ينتصف الليل .

حتى اشتهر امرهما في الحيرة . وجعلهما الناس مثلا من امثلة الهوى . على ان آل قلام لم يكتموا خبر الزواج فعبيد منزلهم وجواريه تحدثوا به . فبلغ عدي بن مرينا . في ساعة له فيها الحظ . . .

اجل ، كانت الايام تمر والعاشقان في سكرتهما . سكرة الصبابة وسكرة الشباب ، وهانيء بن قلام نائم على فراش ناعم وثير لا ينظر الا الى مستقبل ولديه الزاهر .. وعصام بن شهبرة غافل عما يجريه

المتـــآمرون في ظلام الليل .. وقـــد انقضى الربيع والصيف وكاد ينقضي شتاء سنة ٦٠٩ . وعدي بن زيد لم يقدم الحيرة كما هي عادته في كل عام ...

فقلق اهله واصحابه ، وارسلوا الرسل الى المدائن يتفحصون عن امره . فورد عليهم جوابه يقول فيه انه باق في بـلاد الفرس الى شتاء العام الثاني عام ٦١٠ .

اي انه سيجيء في ذلك الشتاء ليحتفل بزواج العاشقين الصغيرين .

فبكت مليكة وهي لا تعلم لماذا تبكي . واذا نهاها زيـــد عن البكاء قالت : دعني ، فهذه الكـآبة التي تتغلل في الصدر لا يزيلها غـــير تفجر الدموع ..

وزيد ..! اما زيد ، فكلما عبس وجه الحيـــاة في عيني مليكة ، اشرق في عينيه ذلك الوجه ، واستعجل الزمان باللذة واللهو حتى ينقضي العام ولا يشعر به فيقدم ابوه حاملا اليه امنية نفسه ، وصفاء عيشه .

غير ان الزمان لم يكن عبداً لزيد . . والقضاء سلطـــان مستبد لا يصانع احداً ولا يرحم عاشقاً .. فقد كانت الايـــام تتمخض لتلد الحادث الغريب يستطير له فؤاده ..

* * *

كان عدي بن مرينا يدفع بيده وبقوة دهائه ذلك الحادث الغريب ليولد . وعندما كان زيد . ذلك الفتى العاشق الطاهر القلب ـ يستعجل

الزمان بلذة غرامه . كان ابن مرينا في الوقت نفسه يستعجل هذا الزمان بدسائسه وكذبه وطلاقة لسانه ونعومته .

اي ان اخبث الناس قلبا ، كان يسعى باصدق رجل عرفه العراق في ذلك الزمان .

وذنب ذلك الرجل انه رفع الى العرش فتى ضيعت نصف عقلـــه الخمر ، وافسد النصف الآخـــر ، جلوسه على ذلـــك العرش قبل ان يهذبه الدهر ...

وليس غريباً ان ينتصر الشر على الخير . فذلك امر رافق الاجيال. على مر الاجيال . والشر قد يكثر انصاره في كل زمن .. لكن صاحبه لامر يريده الله ولحسن حظ البشرية ، لا ينتصر على طول الخط ..

نعم . اعد ابن مرينا عدته ، واختـــرع اسباب القضاء على عدي ابن زيد .

وهي اسباب لا توجدها الا قريحة الشيطان ...

ففي ليلة من ليالي الربيع ، اختلى المتآمرون في قصر للاسود شقيق الملك ينظرون في ذلك الاختراع الجهنمي الهائل .

وهم خمسة رجال: الاسود ، واخوه عمرو بن المنذر، واثنان احدهما من بني لام والآخر من بني وهب . زعيمهم جميعا ودماغهم المفكر : عدي بن مرينا .

واغلقوا ابواب القصر ونحوا الخدم والعبيد .

فقال ابن مرينا لذاك الوهبي :

خذ هذا الرق واكتب ما امليه عليك .

فتناول الرجل الرق واصغى الى ذلك الداهية والقوم لا يعلمون ماذا يريد ان يكتب .

اكتب يا اخا وهب : ..

من عدي بن زيد كاتب ملك الملوك كسرى الى قهرمانه في الحيرة .

لم يأذن لنا مولانا الملك في السفر هذا العام . فاذا كان العام القادم، قدمنا الحيرة ونظرنا في امر زواج زيد ، ثم نزور بعد ذلك عاملنا النعمان ابن المنذر الذي وليناه امر العراق .

ثم رفع ابن مرينا رأسه قائلا :

لقد انتهى امر صاحبنا الآن فلا تنسوا ان تقولوا في مجلس الملك غداً ما تحدثنا به امس .

فقال الاسود : ولكن ما هذا الكتاب يا عدي ؟

ـ هو كتاب ارسله عدي بن زيد الى قهرمانه كما ترى . وهذا هو خاتمه .

ثم اخرج خاتما يشبه خاتم عدي فختم به ذلك الكتاب المزور وهو يبتسم .

فعجب القوم لهذه القريحة المتوقدة التي تخترع مثل هذه الاساليب .

اما عمرو بن المنذر فقال : ان الملك يعرف خط عدي يا ابن مرينا . فماذا يقول اذا رأى سطور هذا الكتاب ؟

فضحك الماكر وقال: ان الخط لاقيمة له ايها الامير فالعبرة للخاتم. ادخل يا بسطام .

فدخل على الجماعة عبد يمني طويل القامة وقال :

ها انذا يا مولاي .

فطوى ابن مرينا الرق وناوله اياه قائلا :

خذ هذا الرق فسلمه غدا الى ذلك الجعفري قهرمان عدي بن زيد قبل غروب الشمس .

فقال : واقول له اني قادم من المدائن ولا انتظر جوابه .

ـ اجل ، فقد حفظت ما قلته لك امس ؟ اذهب وفقك الله .

فخرج العبد الى غرفة له ضيقة في قصر الامير الاسود ، فاضطجع فيها وهو يراجع تلك الكلمات التي يقولها لذلك القهرمان المسكين .

ثم عاد ابن مرينا الى الكلام قال :

لقد احسن الينا عدي بن زيد واساء الى نفسه :

فقال الاسود : بماذا ؟

قال : ببقائه في المدائن هذا العام فكأنه يحفر قبره بيده .

قال : من يعلم فقد يتهيب النعمان كسرى فلا يمد يده الى كتابه .

فابتسم ابن مرينا ابتسامة الواثق المطمئن قائلا :

اذا ثار ثائر النعمان نسي كسرى ومن حوله ، وان فعلتم ما قلته لكم امس . فعدي بن زيد مقتول ولو ركب ظهر الفضاء واعتصم بالجوزاء. ولكن احذروا عصام بن شهبرة فهو صاحب الرجل لا يخونه ولا يخفي عنه شيئاً . واما شهاب بن يربوع وان يكن مخلصاً لعدي فهو لا يجرؤ على ان يحدث حدثا الا اذا حمت ظهره الرجال .

فقال عمرو : واذا جاء عدي وانكر الكتاب وقال ان الخاتم محفور في الحيرة وهو ليس خاتمه ؟

ـ يثبت كذبه فان الخاتم محفور في الحجاز والذي حفره قد مات.
ومع ذلك فالمجال لا يتسع للاثبات والانكار فمتى غضب النعمان ولفظ حكمه . فمعنى ذلك ان الرجاء قد انقطع والامل قد خاب .

ثم قال للاسود : اذا بدأت بالثناء على عدي في مجلس الملك . فلا تلس يا مولاي الامير ان تشاركني فيه . ثم ننتقل الى الاسلوب الذي نوغر به صدر الملك وينقضي الامر .

قال ذلك ونهض القوم فتفرقوا على ان يجتمعوا غدا في مجلس النعمان عندما يجلس للناس بعد الظهر .

***

اما الربيع فينقضي يا مليكة . كما سينقضي الصيف الذي بعده ، فلا يبقى امامنا الا ان يجيء ابي من المدائن فنجتمع ذلك الاجتماع الذي لا نفترق بعده .

قالت : وكلما قرب موعدالزواج يزداد خفقانا ، ونفسي كآبةوالماً.
آه اني اتصورك يا زيد في غرفةضيقة تسودها الوحشة والظلام وترقص على جدرها الاشباح . وعلى بابها الجنود في ايديهم السيوف . ومن عيونهم . اجل من عيونهم يتطاير شرر الانتقام والبغضاء .

كانت مليكة تتكلم كأنها تحلم .

ثم ارسلت نظرها الى الافق قائلة :

الا ترى في الافق البعيد يا زيد جثة محمولة على اجنحة السحب .وعلى جبين تلك الجثة وعنقها نقط من الدماء .؟ ويلاه انها جثة فتى وجهـــه كالصباح وخداه كالجلنار وشعره الاسود الجميل يتدلى على كتفيه كما تتدلى غدائر الحسناء . انها جثة زيد بن عدي . حبيبي زيد بن عدي ..

واغمضت عينيها كي لا ترى ذلك المشهد المؤلم ثم ارتمت بين ذراعي زيد وقد صرعتها الرؤيا .

اجل كانت مليكة تحلم وهي في اليقظة .

فجحظت عينا الفتى من الخوف . وترك شرفة القصر وهو ينادي : يا زياد ايا امزيادا! . ان مليكة غائبة عن الرشد .

فاقبل الوالدانوجواري القصر يعالجون الفتاة ساعة حتى استفاقت. فحملوها الى غرفتها ونظرها تائه في فضاء تلك الغرفة كـــأن ذلك المشهد الرائع لا يزال مطبوعا امامها بحروف من اللهيب .

وكانت دموع امها تتساقط على صدرها وهي لا تعلم اي نبأ غريب كاد يقضي على مليكة . وكأنها كانت تحاول ان تقرأ ذلك النبأ فيوجه الفتاة الاصفر . وعيني زيد الطافحتين بالدموع .

ولكنها لم تقرأ غير سطور الاسى ، ولم تسمع غير همس الزفرات .

فقالت وصوتها يرتجف :

ماذا جرى لك يا ابنتي ؟ قولي .

فحدقت الفتاة الى امها وهي تبسم ابتسامة الطفل . ثم اجالت نظرها في القوم حتى رأت زيداً . فمدت اليه يدها وهي تقول :

احمد الله فانت حي .

فأومأ هانىء الى الجواري يأمرهن بالانصراف ثم قال :

اتلعبين يا ابنتي مع زيد ولا تعلمين اذا كان حياً ؟.

فتنهدت قائلة : كانت يدي بيده ، ولكني رأيته جثة تصبغ وجهها الدماء .

فضحك الولد وقال : لقد دب في جفنيك الكرى فلم تري غير الاحلام . واين رأيت الجثة ؟

فاشارت باصبعها قائلة :

هناك .. وراء قصر النعمان فوق سحابة سوداء . ولم اكن نائمة يا ابي . بل كنت اراها الآن . وكما ارى . على سطح الخورنق . امام مقصورته العلية. رجلا قصير القامة ينظر الى الجثة وهو يضحك ضحك الساخر السكران . الا تراه يتمشى ويداه وراءظهره . وخلفه بضعةعشر رجلا يتغامزون ويتهامسون ؟. انظروا القاتل يتناول كأساً من الخمر . فيجرعها ثم يأمر الغمام فيتبدد فتهوي جثة زيد الى الحضيض .

وانظروا اولئك الرجال يقذفون بنفوسهم الى الارض ليحفروا قبرا للجثة وراء القصر النابت على ضفة الفرات . قتلهم الله لقد دفنوه وهم ينفضون ايديهم وثيابهم من رمال الشاطىء .

واطبقت مليكة عينيها وقد استسلمت الى النوم .

فأخذ الوالدان يسألان زيداً وهو يقص القصة ويشهق بالبكاء.

غير ان الامر لا يستوجب الخوف . فمليكة تحلم وما كان العاقل ليهتم للاحلام .

ذلك كان رأي ابي زياد . اما زوجته فلم تكن تصدق ان الفتاة تحلم

وهي تلعب على شرفة القصر .

فكان هانىء يقول للمرء ساعـــة يستولي عليه فيها اليأس بما يشبه الحلم المزعج بل بما يشبه الذهول .

فقال زيد : واي يأس يعرف قلب مليكة وهي كـــالزهرة النضرة تبسم لنور الشمس ؟

قال : لقد اصبحت كهلا يا بني ونسيت حياة العاشقين .

ومعنى ذلك ان الحادث كان في نظره حادث غرام .

ومن حقه ان يظن ، ان الغرام وحـــدههو الذي يخلق الالم في ذلك القلب .

فقال لأم زياد : الحادث عادي فلا تجزعي وستستعيد قواهـــا في ساعتين .

ووضع زيد رأسه بين يديه واستغرق في التفكير .

واستمر القضاء يلعب دوره لا تقف في وجهه قوة .

النعمان يزداد تغيراً وغضبا على عدي . وليس هنالك ما يحمله على الرضى .

والزمان نفسه واهل الزمان . اصبحوا خصوما لصهر الملك المنكود الحظ .

في تلك الليلة التي اجتمع فيها المتآمرون في قصر الاسودبن المنذر .

ففي الليلة نفسها كان النعمان يحدث نفسه قائلا : ان لم اقض عـــلى عدي بن زيد تهدم العرش .

وهو قول لو سمعه عديالمسكين لاضطربت اعصابه من شدةالذعر .

فقد كان حكما بالموت لا يقبل التعديل والتأويل .

وكان يقوم في ذهن النعمان العظيم . ان كسرى سينحيه عن العرش ويتوج عدياً ويبعثه ملكاً تحميه كتائب الاعجام .

ولو لم يكن النعمان واثقاً بتلك الروايات الكاذبة . التي يرددها على مسمع منه من حين الى حين . ابن مرينا وانصاره . لما كان خوفه على عرشه . بلغ من نفسه هذا الحد الذي يعقبه الحكم بالموت .

وخير البر عاجله . فاذا تردد النعمان في تنفيذ حكمه . فكأنه يمهد لعدوه ـ الذي هو صهره ومربيه ـ شبيل الوصول الى العرش .

ولقد كان الله ولم يكن عدي بن زيد . فاذا مات نشر السلام ظله في ربوع العراق . وان بقي حيا سادت الفوضى وفسد امر العرب .

واما هنـــد : فهي في السادسة والعشرين من العمر . وامراء العرب واشرافها يتهالكون في سبيلها . فان شاءت زوجناهـــا احدهم . واذا آثرت الاعـــتزال عن العالم فهذا ديرها ليس في العراق مثلـــه يصلح للاعتزال ..

وملك هذا التصور على النعمان جميع مشاعره . فنام نوما متقطعـــاً مزعجـــاً حتى كان الفجر . فعاد الى التفكير . وهو يرى ان يجلس في الصباح . ويتفرغ بعد الظهر . مع ابن مرينا امين سره وانصاره .للنظر في امر الرجل الخارج على مليكه .!

وخير للنعمان ان يجعل مجلسه بعد الظهر مجلس شراب . فلا يدخل احد الا الذي يختاره من الرجال .

هكذا كانت الاقدار حليفة لابن مرينا في مؤامرته .

وابلغ ما في هذه المحالفة ،ان النعمان نفسه كان يفكر في ابعاد عصام ابن شهبرة عن بابه فأمر عصـــام معروف ، ويجب ان يبقى قرار مجلس المتآمرين مكتوماً لا يعرفه احد .

وعلى هذا الامل جلس الملك للناس قبل الظهر. اي انه جلس للمظالم ومن الغريب، ان روح العدالة والحكمة ، كانت تملي عليه. تلك الاحكام العامة التي يعالج بها امور الناس .

اجل ، فضمير النعمان بن المنذر ، قاضي القضـــاة في العراق ، كان ضميرا ساميا وطاهرا جدا في ذلك اليوم .

فلما انصرف الناس قال لعصام :

تذهب الى ظاهر الحيرة فترى من يمر من العرب بين الغريين ومن لا يمر بينهما . وأتني باسمائهم ،انصرف وامكث الى المساء .

وانت ترى ؛ انه ابعد حاجبه دون ان يـــترك له او لسواه سبيلا الى الظنون .

فحنى عصام رأسه وخرج لا يلتفت الى احد .

فرقص قلب ابن مرينا وقلوب مشايعيه من الفرح .

ثم التفت الى ابن مرينا قائلا :

الا يطيب لك شرب الخمر يا عدي ؟

فقال : بل لا يطيب لي عيش يا مولاي الا اذا شربتها صرفا .

قال : نأذن لك اذن في اختيار النفر الذين يشربون معنا .

فاختار الماكر رجاله بينهم الاميران الاسود وعمرو .

ثم قال الملك : نشرب في مقصورتنا العليا حيث نسمع هدير الفرات

ونرى ذلك السهل الزاهي بازدهار الربيع .

ونهض قائلا : اتبعونا فنتغدى اولا ثم نبدأ بالشراب .

فمشت عصابة السوء وراء الملك . وذلك اللعين زعيم تلك العصابة ، يراجع في ذهنه ذلك الحديث الذي يبدأ به للوصول الى بغيته .

ولم يكن يدري ، ان الملك انما دعاه الى الشراب ، لمثل ذلك الغرض الذي يفكر فيه .

وما كادوا يجلسون في مقصورة الملك حتى كان الطعام قد بسط . فأكلوا هنيئاً كأنهم جميعا مدعوون الى عرس . !

ثم جاء دور الشراب . فقال الملك لعبيده وجواريه :

دعونا نشرب ولينصرف كل منكم الى عمله .

وعندئذ خلا لهم الجو ، فقال النعمان :

الا تحدثنا يا ابن مرينا بما في الحيرة من شؤون ؟

فقال : ليس في شؤون الحيرة ما يهتم له الملك الا زواج زيد ابن عدي.

فحدق اليه مليا ثم قال : الطفل زيد بن عدي يتزوج ؟ !

ـ نعم وعندما ينقضي الصيف المقبل ينقضي الاجل الذي ضربه ابوه لهذا الزواج . اما زيد فليس طفلا يا مولاي ، انه بعد بضعة شهور يدخل في عامه الخامس عشر وهو من عمر مليكة بنت هانىء عروسه الفتانة .

ـ اذن فالموعد عينه عدي قبل ان يذهب الى المدائن .

ـ اجل وانا اعتقد انه استشار الملك قبل ان يفعل .

فهز الملك رأسه قائلا : ما عرفنا شيئا عن هذا الزواج الا الآن . ان عديا لا يشاور الملك لانه اعظم منه .

فقال ابن مرينا : لقد عرفت عديا يـــا مولاي كما اعرف نفسي ، فهو لا يخطو خطوة واحدة الا اذا كانت من رأي الملك .

وقال الاسود : والملك يعلم ان عدي بن زيد من اصدق الناس في خدمته ...

فقال : كلما جئنا على ذكر صهرنا عدي بن زيد تصدى اخونا الاسود وصاحبنا ابن مرينا للدفاع عنه . اني اراكما اخبر من الملك في اموره الخاصة وامور اهل بيته !!

والتفت الى شقيقه عمرو قائلا : ادع هند بنت اخيك ايها الامير .

وقبل ان ينصرف الامير استوقفه النعمان وقال : لا تدع احداً ولكن اسألها عما تعلم من امر هذا الزواج .

وكانت هند لا تعلم شيئاً من ذلك الامر فزوجها عدي لم يخبر احد وقد ترك امر الاستشارة ريثما يعود من المدائن في سنة ٦١٠ .

فرجع الامير يقول للملك : ان هنداً خالية الذهن من امر الزواج .

فتمتم النعمان قائلا : ولم يشاور زوجته ايضاً . انه لزواج مبارك ان شاء الله ..

فقال ابن مرينا : ان الزواج لم يتم يا مولاي . فمتى قدم عدي الحيرة شاور الملك قبل كل شيء .

واخذ يثني على عدي والاسود يشاركه في ذلك الثناء حتى تميز النعمان غيظاً .

وفي تلك الساعة : انتهى الفصل الاول من الروايـــة وحان الوقت الذي يمثل فيه الفصل الاخير .

فقال احد بني لام : ليس بكثير على عدي بن زيد ان يستشير مولانا الملك قبل ان يعد بذلك الزواج .

وقال احد بني وهب : لو اعترف عدي بن زيد بان ملكه كان ملكاً لفعل ذلك .

فقال الملك : الا يعترف بنا خادم الفرس ؟

ـ بلى يا مولاي ، ولكن لا يعترف بك ملكاً بل يقول انك عامله .

ـ تلك نغمة قديمة سمعناها وسننظر فيها .

ـ بل نغمة جديدة يرددها عدي في كل يوم .

فانبرى ابن مرينا يقول : انك تبالغ في هذا فعدي بن زيد اول من يحترم سيادة النعمان .

قال الملك : اتفقوا في القول. ايعترف بنا ام لا ؟ قل يا ابن مرينا .

فقال : اما انا فاقول نعم .

وقال آخر : وانا اقول لا .

وقام الاسود فقال : اني ما غيرت رأيي في الرجل . فهو من اصدق الرجال واخلصهم . لولا ذلك المكر الذي هو فيه .

واشتد الجدال بين القوم . وهم يطاولون الملك ويماطلونه حتى تغرب الشمس .

ومعنى هـــذا : ان الكتاب المزور لا يسلم الى القهرمان الا عنـــد الغروب .

واخذ الملك يميل الى تصديق شقيقه وابن مرينـــا القائلين باخلاص الرجل وصدق طاعته ، وكاد يثق بما يقولون .

لكن القنبلة انفجرت في ذلك الحين .

فـــان ابن وهب عندما رأى الشمس تنحدر وراء الافق . رفـــع صوته قائلا :

اني اعرف من امر عدي ما لا يعرفون يا مولاي فالرجل لا يحترم مليكه ولا يحبه . ولولا خوفه من العرب لقال انك خادمه .

فأجابه النعمان وصوته يرتجف :

اثبت ما تقوله الآن والا فانت مقتول .

فحبس القوم انفاسهم لئلا تصيبهم شظايا تلك الصاعقة التي ستنقض.

قال ابن وهب : رأيت امس عبداً يحمل من عدي بن زيد رســـالة لقهرمانه .

ــ واي شأن لهذه الرسالة بما تقول ؟

ــ وفي هذه الرسالة اعتراف صريح كتب بخط عدي وختم بخاتمـــه بانك عامله على العراق ولست من الملوك .

وكانوا ينتظرون ان يثور ثائر النعمان ويرتفع صوته .

ولكن لم يروا شيئاً من هذا . فان جبين الملك قد اشرق ، وارسلت عيناه الى خارج المقصورة شعاعا من نار .

ثم قال بصوت هادىء :

واين هي الرســـالة الآن ؟

ــ انها مع القهرمان يا مولاي او في مـــنزله .

فالتفت الملك الى اخيه عمرو قائلا :

اذهب مع رئيس الشرط واحضر الزجل .. اسمع ، اذا رأيته يأكل فخذ اللقمة من يده ، واذا كان واقفاً فلا تأذن له في الجــلوس . وان عرض لك احد فارم عنقه بسيفك حتى ترجــع الساعة وهو معك .. إذهب .

فقام الامير فخرج . وابن مرينا يكاد يقرأ الحكم بالموت بادياً على شفتي النعمان .

* * *

كان القهرمان الامين واقفاً امام المنزل عند غروب الشمس .

فاذا بعبد طويل القامة ناحل الجسم يقف امامه ويقول :

أأنت قهرمان مولانا عدي بن زيد ؟

قال : نعم .

فمد العبد يده الى جرابه فاخرج رقاً مطوياً وقال :

كنت في المدائن فامرني مولاي عدي بان اسلم اليك هذا الكتاب .

فتناول القهرمان الرق وقال :

أمن العراق انت ؟

قال : لا بل من اليمن .

وهم بالرجوع . فقال له الجعفري :

اتبعني فانت ضيفي الليلة .

فقال : نحن عشرة رفـــاق نترك الحيرة الآن . ولولا ذلك لكنت ضيفك .

قال هذا وتراجع الى الوراء والقهرمان يقرأ كتاب مولاه .

ولكن لهجةالكتاب ليستلهجة عدي. وفي كتبه السابقة الىالقهرمان لم يذكر الملك . واذا ذكره مرة احاط اسمه بالفاظ الاحترام والتكريم .

فاخذ المسكين يعيد قراءته . وهو لا يدرك السبب الذي دعا عديا الى اهانة حميه ومليكه . وفي كتاب يرسله اليه .

وعدي بن زيد ، كتب من قبل الى هانىء بن قـــلام ، انه باق في المدائن حتى ينقضي العام .

اذن ففي الكتاب لغز . ومن اين للقهرمان الطـــاهر القلب ان يحل الطلاسم والالغاز .

فوضع الرق في قلنسوته . وانثنى يريد بيت هانىء ليسأله رأيه في ذلك الكتاب الغريب .

ولكن لم يخط خطوتين ، حتى سمع صوتاً يناديه : قف يا ابن جعفر واذا هو امام الامير عمرو ورئيس شرط النعمان ، وبعض رجاله .

فقال له الامير : امش امامنا بامر الملك .

غير ان الرجل لم يخف ، لان البريء لا يخاف ، فقال :

الى اين تذهبون بي ؟

ــ الى الخورنق فيسألك الملك سؤالا .

فمشى بينهم وهو يستعرض حوادث يومه وامسه فلم يجد ذنبا .

حتى اصبحوا في الخورنق ، فانصرف رئيس الشرطة ورجـــاله في شؤونهم وصعد الامير والقهرمان الى مقصورة الملك ، الجالس بـين وسائده والكؤوس .

فلما مثلا بين يديه امر اخاه بالجلوس ثم قال لابن جعفر :

دعوناك يا ابن جعفر لنسألك سؤالا واحدا لا نتجاوزه ولا نبحث في غيره ، وانتم معاشر الجعفريين قوم صادقون لا تخونون الملك ، فـاذا صدقتنا القول فقد حفظت رأسك ، والا فبتربة المنذر لنقذفن بك الى اسفل حيث تصبح كتلة من دم .

والجعفريون قوم اعزاء لايخافون النعمان وقد حاربوه غير مرة كما تقدم .

فقال للملك : سل ما بدالك يا مولاي ولا تخوفني بالموت .

قال : انك لثابت الجنان يا ابن جعفر ، فقل لنـا الان ، الم يرسل اليك صهرنا عدي بن زيد كتابا ؟

فتصاعد الدم الى وجه الرجل لانه عرف معنى ذلك السؤال ، فقال :

ان مولاي عديا يرسل الي في كل شهر كتابا او كتابين .

قال : لا نعني الا رسالة واحدة كان يحملها اليك امس عبد من عبيد اليمن ، فأين هي ؟

فتردد الرجل في الجواب . فقال الملك :

نراك تتردد في القول وانت لا تخاف كما قلت ، افلا تعلم ان الملـك يستطيع ان يقرأ رسالة مولاك ولو كانت في بطن الارض ؟ .

قال : ان في هذه الرسالة لسرا ايها الملك .

فقال : لقد اعترفت بها اذن فاين هي ؟

فقام في ذهن القهرمان عندئذ ان يد النعمان اقصر من ان تنال عديا بسوء فمد يده الى رأسه وتناول الرق وقال :

هذه هي الرسالة ايها الملك سلموها الي الساعة ، ولكن اعلم ان عديا لا يذكر الملك في رسائله ، فاتق الله .

فاخذها النعمان وجعل يقرأ سطورها ثم يقرأها وجبينه يزيد اشراقا وشفتاه ترتجفان ، وهو يضرب ركبته بعصاه ولا يحس الما .

واعمى الغضب بصيرته فلم ينتبه لما جاء في الكتاب من سطور ليس هنالك ما يدعو الى وضعها ، في ذلك القالب الغريب .

ثم التفت الى القهرمان واومأ اليه بان ينصرف وهو يقول :

لقد صدق مولاك اذ قال اننا لولاه لما جلسنا على عرش العراق .

فخرج الرجل وهو يلطم رأسه بيديه ويحدث نفسه قائلا :

اذا كان الكتاب مرسلا من عدي فقد اخطأ فيما كتب .

واطرق النعمان يفكر . اجل يفكر في ذلـــك الصهر العـــاق الذي يزدريه ويعبث بسلطانه .

وكانت الافكار تجول في ذهنه المضطرب ، لا رابط لها ولاقاعدة، حتى رفع رأسه اخيرا وقال لاخيه عمرو .

اكتب ايها الامير :

« من النعمان بن المنذر ملك العرب الى صهره عدي بن زيد »

« عزمت عليك الا زرتني فاني قد اشتقت الى رؤيتك »

ثم قال : علينا بمن يركب الليلة ناقته ويسير الى المدائن .

فقال ابن مرينا : اذا شاء الملك فليعطني الكتاب فانا ابعثه الى عدي.

قال : بل نريـــد ان نرى الرسول بعيننا ونعطيه الكتـــاب بيدنا . احضـــروه الان .

فخرج ابن مرينا يفتش عن ذلك العبد اليمني حتى وجده، فقال له: ستذهب الليلة بامر الملك الى المدائن . فان سألك ممن انت فقل من عبيد الحجاز .

ثم اقبل به على الملك قائلا : هذا هو رسولك يا مولاي .

فقال له : ما اسمك ايها العبد ؟

ــ بسطام يا مولاي .

ممـــن انت ؟

من عبيد الحجاز واقيم على شاطىء الفرات منذ سنوات خمس .

ــ ومن هو مـــولاك ؟

ــ الملك اولا ثم عدي بن مرينـــا .

ــ عافاك الله . اتعرف المدائن ؟

ــ كما اعرف الحيرة ولي فيها ابناء .

ــ لنا في المدائن صهر عزيز علينا يدعى عدي بن زيد ، اتعرفه.

فابتسم الخبيث قائلا : ومـــن لا يعرف صهر الملك الذي يقـــول اذلك عاملة .

فاجابه الملك والابتسامة على شفتيه قائلا : حتى العبيد يعلمون اننا ملكنا بفضل عدي بن زيد ، احسنت ايها العبد ونحن لكما تقول ، فخذ هذه الرسالة الى الرجل وقل له ان الملك مريض ويريد ان يراك ، ولكن لا تكن طويل اللسان في المدائن ، فاذا اذنا لك في القول هنا فلا نـــأذن

لك في ذلك هناك . والويل لك ان خالفت . اذهب الليلة ، بل في هذه الساعة . وان طاب لك ان تركب ناقة من نوق الملك فافعل . اعطه يا ابن مرينا ما يحتاج اليه من الزاد والمال في سترة ، وله عندنا جائزة نأمر له بها عندما يعـــود .

فجثا العبد على ركبتيه وقبل الارض امام الملك وانصرف ، وابن مرينا وراءه يقول له : لقد مثلت دورك يا بسطام احسن تمثيـــل .

وعاد الملك الى الخمر يملأ بهاجوفه العطشان ، ويرطب احشاءه الملتهبة.

* * *

كان هانيء بن قلام يداعب مليكة ، عندما قدم عليه قهرمان عدي.

وقد صحت مليكة من ذلك الذهول ، بل من ذلك النوم المزعـــج الذي رافقته الاحلام والاوهام .

فاقبل هانيء الى قاعة الجلوس يستقبل الرجل الذي يحبه كما يحب عدي بن زيد .

وكان الرجل يبكي والدموع تتدحرج على لحيته السوداء .

فبغت هانيء وقال : تبكي ؟ ماذا جرى لك يا عباس ؟

فاجابه قائلا وصوته يختنق في صدره : لقـــد قتلت بيـــدي اخـــي ومولاي عدي بن زيد .

فارتمى هانيء على احدى الوسائد وقال :

ما هذا الجنون يا عباس ، اتقتل عديا وهو في المدائن ؟

قال : اجل فقد بعث الي برسالة ثم لم يلبث الملك حتى اخذها .

ـ واي دخل لهذه الرسالة فيما تقول ؟

ـ انها رسالة يكمن فيها الموت .

فارتسم الذعر على وجه هانيء وقال اجلس وقص علي ما تعلم .

فجلس المسكين واخذ يروي رواية الكتاب وهو يقـــول :

قتلني الله فقد قتلته .

فاوما اليه هانيء بان يخفض صوته لئلا يسمع زيد ، وبدا امام عينيه ذلك الحلم المخيف الذي قصته مليكة .

ثم قال : الرسالة مزورة ويد ابن مرينا فيها ، الم تر عصام بن شهبرة في مجلس الملك ؟

ـ لا ، فالملك يشرب مـــع شقيقيه الاسود وعمرو ، وابن مرينـــا وبعض الرجـــال .

فنادي هانيء خادما له وامره ان يدعو عصامادون ان يشعربه احد .

وكان عصام قد عاد ، والملك لا يزال في مقصورته فلم يصعد الى تلك المقصورة لانه لا يطيق ان يرى ابن مرينا ينـــادم النعمان ويجالسه على شرابه .

فلما نقل اليه الخادم امر مولاه ، قال لبعض الحراس الذين رأوه : اذا سأل عني الملك فقولوا له انه لم يرجـــع .

ومشى يريد بيت صاحبه والخادم امامه حتى ادخله الى قاعة الجلوس .

فوقف عصام بباب القاعة واخذ يتفرس في الرجلين اللذين يبدو على

وجهيها الاضطراب والذعر .

فدعاه هانيء الى الدخول وهو يقول :

ادخل يا عصام فقد انقضت الصاعقة على رأس عدي بن زيد وانت لا تعلم .

فاستند حاجب الملك الى الجدار كي لا يسقط على الارض .

اما هانيء فاستطرد قائلا : لقد وردت على عباس رسالة مختومة بخاتم عدي . فما كاد يقرأها حتى اقبل الامير عمرو ورئيس شرط النعمان واخذاه الى الخورنق .

ــ وبعد ذلك ؟

ــ فقرأ الملك تلك الرسالة ونفذ القضاء ..

ــ اعد علي ما قرأته فيها يا عباس .

فلفظ المسكين كلماته كلمة كلمة لا ينسى منها واحدة .

فعض ابن شهبرة على شفتيه حتى كاد يدميهما . ثم قال: لقد زورها اللعين النمام ‥ وماذا فعل الملك ؟

ــ من يدري ماذا فعل الملك فقد امرني بالخروج من مقصورته ، فانصرفت واني اعلم اني الجاني على مولاي .

فلمع الاخلاص في عيني عصام وقال للرجل :

لا تيأس فساحبط مسعاه ‥ اتذهب الى المدائن ؟

ــ بل اذهب الى الجحيم اذا كان في ذهابي مصلحة عدي .

قال ابن قلام : اتبعثه ليقص الخبر على عدي ؟

قال : اجل ، فاما ان يظهر براءته واما ان يبقى في المدائن ما طاب له البقاء .

قال : لكن النعمان اذا غضب على عدي فقد شمل غضبه جميع اصحابه والذين ينتمون اليه .

قال : اصبت فان آثر عدي البقاء في بلاد الفرس رحلتم اليها جميعا فلا خير في بلاد لا يأمن المرء فيها على نفسه .

ــ اذن لا بد من ذهاب عباس .

ــ نعم وليترك الحيرة عند الصباح . وقص يا عباس ما سمعت على عدي فعساه لا يستخف هذه المرة بغضب الملك .

فقام القهرمان لساعته وانصرف الى منزله يعد معدات الرحيل عند الفجر .

اما عصام فعاد الى الخورنق يتلمس الخبر من وجوه المتآمرين وعيونهم. ولم يعرف احد من آل قلام ما دار بين الثلاثة من الحديث .

* * *

كانت ناقة بسطام تسابق الريح كما يقولون .

فهي من نوق النعمان التي تسبق الطير ، وقد اختارها عدي بن مرينا خفيفة نجيبة .

وبسطام يعرف مهمته كما يعرفها زعماء المتآمرين ، بل هو من ابطال الرواية العاملين على اعدام عدي بن زيد ؛ ليس لانه يبغض الرجل ويتمنى هلاكه . بل لانه يطمع بالمال يتدفق عليه تدفق السيل من سيده الداهية النمام ومن ذينك الاميرين الغنيين شقيقي النعمان .

وابن مرينا انما اشتراه لهذه الغاية . فماذا يهمه اذا قتل صهر النعمان

او النعمان نفسه . متى صفت ايامه واغدق عيشه .

وغاية ما يتمناه بسطام . ان يتعجل في الامر فتمتلىء جيوبـــه من الذهب الوهاج .

والرجل من اليمن واليمن في نظره جنة الله على الارض ، فاذاقبض ثمن نذالته وكذبه . حمل ذلك الثمن الى بلاده يشتري به المنزل في اعالي الجبال يعيش فيه مع طائفة من الجواري الحسان .

وكلما فكر بسطام في هذا ، ساق ناقته وحدا لها ؛ فطارت به عـــلى ذلك الطريق الطويل الذي يصل العراق ببلاد الاعجام .

وهو من اخبر الناس ببلاد العرب،ويعرف اسواق المدائن واحياءها كما يعرف اودية اليمن وجبالها .

فلما وصل اليها ، نام ليلته في منازل الغرباء النازلين بها ، ونهض في الصباح يسأل عن قصر عدي .

ويكفي ان تذكر في المدائن اسم عدي بن زيد ليخدمك جميع الناس.

فدلوه على القصر ، فلما اصبح امام بابه الكبير حسب نفسه امام قصر من اولئك القصور التي تقيم فيها الملوك .

وليس في ذلك موضع للغرابة ، فرجال كسرى جميعهم يسكنـــون القصور وهم يتمرغون في الترف والبذخ ؛ احتراما لمقام ذلك الملك العظيم الذي مد رواق حكمه فوق معظم اقطار الشرق .

فلما حاول بسطام الدخول ، تصدى له الحراس ووقفوا في وجهه .

فقال : اني احمل كتابا من ملك العرب .

فدخل احدهم فاستأذن له ثم عاد فأمره بالدخول .

فاجتاز العبد الاروقة وهو ينظر الى تلك النقوش والصور تشبه الصور في الخورنق حتى مثل بين يدي عدي .

فسلم وناوله الرق .

قال : أأنت رسول الملك العربي ؟

ـ نعم يا مولاي .

فنشر الرق وجعل يقرأ سطريه وهو يبتسم ابتسامة الرضى ويقول في نفسه : أقسمت اني لا اعود الى الحيرة الا اذا تملقني النعمان ، وهذا كتابه يدل على حاجته الي .

ثم قال لبسطام : كيف حال الملك ايها الرسول ؟

قال : انه مريض يا مولاي ، وهو يرغب في ان يراك لامر يهمه .

قال : أفرأيته انت ؟

ـ نعم وناولني الكتاب بيده الكريمة وهو يقول : عجل في السفر ما استطعت وقل لعدي ان يحضر في الحال .

ولكني لا اعرفك من عبيد الخورنق فكيف اذنوا لك في الدخول على الملك ؟

ـ بعثني الى الخورنق امير من امراء الحجاز مع عشرة من العبيد .

ـ واصبحت تدخل على النعمان ساعة تشاء ؟

ـ بل لا ادخل عليه الا اذا امرني . شفاه الله يا مولاي ان حياته في خطر .

ـ ويلك ماذا تقول ايها العبد ؟

ـ هذا هو الواقع يا مولاي فلا تعلم اني صادق الا متى قدمت الحيرة .

فأخذ عدي يردد قوله : النعمان مريض ابو قابــوس في خطر . انه مفدي بنفوسنا واموالنا ان شاء الله . نعم سنذهب ايها الرسول فهذا ملكنا لا ملك لنا غيره ولا يدوم لنا سواه، انتظرنا حتى نستأذن كسرى في السفر ام تسبقنا الى الحيرة ؟

قال : بل امشي بركابك يا مولاي .

ــ احسنت ، فهل تعرف عدي بن مرينا ؟

ــ اعرفه يا مولاي ولكني لا احبه لانه ماكر وبخيل .

ــ الا يعود الملك في مرضه ؟

ــ ما رأيت الملك يأذن له في الدخول عليه ، انــه كثير الضجر لا يطيق ان يرى غير الملكتين ، ومولاتي هند وشقيقيها قابوس والمنذر .

ــ ولم تذكر عصام بن شهيرة .

ــ ان ابن شهيرة يقيم ببابه لا يتركه ولا يسمح لاحد بالدخول.

فأخذ ذلك المسكين يتمتم قائلا : جعلنا الله فداك يا ابا قابوس .

ثم نادى احد غلمانه وقال له :

اكرم رسول الملك في النزول والضيافة حتى يغادر المدائن .

واخذ يرتدي ثيابه للذهاب الى ديوان الملك وقد حمل الرق في يــده وهو يظن ان في مثل ذلك الكتاب يعرف مقامه عند النعمان .

وعدي بن زيد ، ومن كان في منزلته وعزه ، لا يقوم في ذهنه . ان ملكا مثل النعمان يسند كسرى عرشه ويدافع عن هذا العرش ، اجل لا يقوم في ذهنه ان ملكا مثله يضمر له الشر ويوافق خصومه في القضاء عليه .

وهو على كل حال سيترك المدائن عندما ينقضي الصيف ، ويسير الى

الحيرة ليزوج ولده ويهتم لامر مستقبله .

فاذا اذن له كسري في الذهاب اليوم ، فقد خدم نفسه من جهة ، واثبت للنعمان من جهة اخرى ، انه عند حسن ظنه به لا يراجعه في أمر.

فلما انصرف الى ديوان الملك ، اخذ معه ذلك الكتاب ـــ العزيز على قلبه ـــ ليقرأه ملك الملوك .

وكان العبد قد اصبح في بيت الضيافة ، نازلا بين عبيد عدي وغلمانه ، على السعة والرحب .

* * *

في الليلة التي ترك فيها بسطام الحيرة ذاهبا الى المدائن، في الليلة نفسها كان عباس بن جعفر قهرمان عدي ، يستعد ايضا ليترك الحيرة عند بزوغ الفجر .

وقد مر يومان كاملان على وجود بسطام في عاصمة الفرس، وعباس لم يحضر .

مع ان الناقة التي يركبها هي من نوق سيده ، والنوق عند عدي بن زيد معظمها من عصافير النعمان .

فاذا سبقه بسطام . فلا يسبقه اكثر من مسيرة ليلة واحدة .

ثم انقضى اليوم الثالث والرابع ، ولم يسمع في المدائن خبر عن ذلك القهرمان المنكود الحظ .

فماذا جرى للقهرمان ؟!

انه اعد في تلك الليلة . عدة السفر كما تقدم . وقعد في فراشه يفكر في ذلك الكتاب المشؤوم لا يغمض له جفن، حتى تنفس الصبح .

فقام الى ناقته فشد رحلها والامل يملأ صدره . والدمع في عينيه .

لكن شبحا تشبه عيناه عيني النسر . كان يحدق اليه من وراء جدار قائم بالقرب من منزله ويرسل اليه نظرا احد من الحراب .

فلما ركب عباس ناقته . امتطى ذلك الشبح فرساً كانت الى جانبه . ودار بها دورة حول سوق الحيرة ، ثم مشى في زقاق ضيق تذبح فيه النوق ، وهو يرد سيفه من حين الى آخر يحاول اخفاءه تحت عباءته السوداء . حتى اجتاز ذلك الزقاق فأطل على السهل الذي ينتهي في أوله السوق الاكبر .

واذا بعباس على ناقته : وهو يغطي رأسه بذيل ردائه كما يفعل الرعاة في الصحراء .

فبرقت عينا الشبح وهز فرسه متتبعاً أثره في ذلك الطريق المؤدي الى المدائن .

وطلعت الشمس والاثنان سائران الواحد خلف الآخر . وراكب الناقة لا يلتفت الى راكب الفرس .

حتى وصلا الى اكوام من الرمال جعلتها الرياح الهوج جبالا صغيرة قائمة في ذلك السهل القاحل الذي لا تجد فيه شجرة ترسل ظلا .

وكان على الراكب ان يدور وراء هذه الجبال الرملية ليتخذ له طريقا آخر يؤدي الى بلاد الفرس وغيرها من بلاد الناس .

فوقف راكب الفرس فرسه واخذ ينظر الى سيفه تشع قبضته تحت

عباءته والقلق يبدو في عينيه .

حتى دار عباس دورته فحجبته الرمال عن الرجل .

ومرت دقيقتان كانتا في نظر الرجل اطول من يومين .

ثم صاح بالفرس فمرقت كما يمرق السهم ويـــده على قبضة السيف حتى صار وراء الجبل .

فسمعت عندئذ صيحتان ملأتا ذلك السهل ، صيحة ذعر تلتهـــا صيحة ألم . ثم ساد المكان سكوت رهيب تسمـــع معه صوت حفيف اجنحة الطير في الفضاء .

وانقضت ساعة لا ترى هناك احداً لا من الناس ولا من الحيوان . كانت الوحشة وحدها سلطانة ذلك البر.

واذا براكب الفرس قد اقبل وعلى عباءته وثيابه ويديه آثار واقعة جرت في الرمال .

وما زال سائراً حتى وصل الى منزل ابن مرينا فترجل عن فرســـه ودخل فصافحه وهو يقول :

لقد غاص صاحبنا في بحر من الرمال .

فقال : واين تركت ناقته ؟

ــ كان حظها مثل حظه فهي لا تفارقه حتى في الموت .

وكان الناظر الى وجه الفارس ، يرى وجه عبد يشبه وجه بسطام ، فمعظم رجال العصابة كانوا من العبيد .

اجل ، لقد فتحت الارض فاها وابتلعت عباس بن جعفر ، وكانت الرمال كفنا له وقبراً .

فلينتظر عصام بن شهبرة وهانىء بن قـــلام رجوع عباس ـــ ان غيابه لا يطول كما رأيت .

* * *

يا مولاي ، هذا كتاب ورد علي من عاملك النعمان بن المنذر .

فاخذ كسرى الرق من عدي وقرأه . ثم قال : اتستأذننا في السفر الى العراق ؟

ـــ اجل يا مولاي وسأزوج زيداً ثم يرافقني مع زوجته الى المدائن فيظهر طاعته وخضوعه للملك الا كبر الذي نشأ ابوه في ظله .

فقال : اهلا بالفتى الصغير الذي سننظر اليه بعين العنايـــة والرضى أيحسن الفارسية يا عدي ؟

ـــ نعم وكما يحسن لغته يا مولاي .

ـــ وماذا يريد منك عاملنا ابن المنذر ؟ أكلما اشتاق الى رؤيتـــك دعاك اليه ؟

ـــ انه مريض يا مولاي ويقول رسوله ان حياته في خطر .

فاستعاد كسرى قوله وهو يحسب لهذا الخطر حسابا .

ثم قال : أيقضي علينا القضاء باختيار ملك جديد من آل لخم ؟

فاجابه ذلك الرجل الصادق قائلا :

« لا قدر الله » يا مولاي فالعراق بحاجة الى النعمان وهو لم يجاوز

حد الكهولة .

ـــ ولكن ماذا نفعل اذا هلك ؟

ـــ اذا هلك فولي عهده في ربيـــع عمره وليس في اخوة الملك من الملك .

ـــ واذا ثارت العرب نطلب احدهم ولا نرضى بقابوس ؟

ـــ اما الثورة : فانصار قابوس اكثر عدداً من انصار اعمامه ، وهب انها نشبت في العراق فجندك القاهر يخمد نارها . ولكن لا اظن ان في العراق رجلا يجرؤ على الظهور بمظهر المطالب بالعرش اذا كان مولاي كسرى غير راض ، ومع ذلك فقد يشفى النعمان يا مولاي .

ـــ فابتسم كسرى وقال: نراك تحسن الدفاع عن النعمان وذرية النعمان.

فقال : لو اردت ان اخونه يا مولاي لما سألت اباك العظيم « هرمز ابن كسرى انوشروان » ان يوليه امر العراق . ولما سألتك يـــا مولاي « وهو كسرى ابرويز بن هرمز » وانت اعظم ملوك الارض ان تجدد له العهد . ان النعمان يامولاي اصدق عمالك واعظمهم نفوذا . واحفظهم لهيبتك بين قبائل العرب .

فقاطعه كسرى قائلا : لكنه لا يحب الفرس ولو استطاع لضم بلادنا الى بلاده وصيرنا له عبيداً. ولو لم تكن يا عدي من اشد الناس اخلاصاً لنا وانت صهر هذا الحمي المتكبر المستهتر . لنزعناه من عرشه كما ننزع بيضة النعام هذه من مكانها .

وتناول كسرى بيضة نعام كانت امامه وقذف بها بعيداً وهو يقول : اجل لو لم تكن صهر النعمان لما صبرنا على جوره وظلمه وابقينا التاج على رأسه ..

فأكبر عدي ان يقول كسرى عن حميه انه مستهتر وكأن كسرى قرأ افكاره فاستطرد قائلا :

اتظن يا عدي ان كسرى لا يعرف حياة النعمان في قصره . وفي صيده وجميع اسباب اللهو التي لا تليق بالملوك ؟ أفلا نعلم انه شراب للخمر حتى لا يرتوي وقد قتل نديميه ظلماً ثم بنى على قبريهما بناءين يطليهما بدماء الابرياء الذين يذبحهم في يوم بؤسه ، فدعتهما العرب « الغريين » لكثرة ما غراهما بدماء الناس ؟ افلا نعلم انه يتبع هواه فلا يبالي بما يفعل وبما يقال حتى انه ليقتل اخوته كلهم اذا راجعوه في قول وهو سكران ان هذا اللخمي لاقرب الى الجنون منه الى رصانة الملوك وعدالتهم ، وليس غريباً ان يغضب عليك يوماً انت الذي ربيته وجعلته ملكا فيغدر بك وانت في الحيرة بين قومك وأهل بيتك . اما دفاعك عنه فلأدب فيك عرفناه كما عرفه قبلنا والدنا الملك فلا تخون صاحباً ولا تنكث عهداً ، واما اننا نصبر على استهتاره فلأننا لا نريد ان نفسد امر العرب ونخلع عن العرش رجلا احبه ورباه كاتبنا عدي بن زيد .

وكان كسرى يتكلم ووجهه ينشر الهيبة والجلال في تلك القاعة العظيمة ـ قاعته الخاصة ـ التي تدهش الناظرين .

ثم قال : أرأيت يا عدي ان كسرى يعرف من امر هذا اللخمي ما تعرفه انت ؟

قال : بل انت احكم الملوك عقلا وابعدهم نظراً يا مولاي . وان النعمان لكما يقول الملك . لكنه لا يلبث حتى يعرف خطأه فيثوب اليه الرشد .

وذلك دفاع ضعيف كان على عدي بن زيد ان لا يقوله .

فضحك كسرى واجابه قائلا :

أجل يقتل البريء او يدفنه حياً ثم يندم بعد ذلك ! ! انها لخصلة من اسمى الخصال يا عدي . وماذا ينفع القتيل واهل القتيل اذا رجع الملك الى صوابه بعد القتل ! ؟ أيخرج القتيل حياً من قبره اذا نـــدم النعمان بن المنذر ؟ اما والله ان اليد التي تمتد الى بريء يجب ان تقطع. والملك الذي يشرب دم الناس كما يشرب الخمر يجب ان يعلق امام قاعة عرشه عبرة للملوك والمسلطين على الناس .

وكان كسرى ابرويز ، حفيد انوشروان ، من انفذ الملوك رأيـــاً وابعدهم غورا ، وقد بلـــغ من عظمة الملك وبسطة السلطان ما لم يتهيأ لملك اكثر منه .

ولذلك دعي ابرويز وتفسيره بالعربية « المظفر » .

ولو لم يكن كسرى هو المتكلم ، لدافع عدي عن النعمان ما طاب له الدفـــاع ، لكن ذلك الملك الحكيم كـــان يقول الحق ، والخروج عن الصواب في حضرته اهانة له وسوء سياسة وتدبير .

ورأى كسرى ان يكتفي بما ذكره : فقال لعدي :

انك ان ذهبت الى العراق فلا ترجع الا بعد انقضاء الشتاء ونحن لا نطيق ان تغيب عنا الصيف كله والشتاء كله .

قال : اذا اراد الملك فليأمر أخي « عمارا » بان يقوم مقـــامي في الكتابة ريثما أعود .

ــ واخوك عماراً يصلح لهذا ؟

ـ نعم يا مولاي وهو خبير بشؤون العرب .

ولقب عمار ، ابي ، وكسرى يعرفه ويحبه ويحسن اليه ، لكنه لم يكن يكتب في ديوانه .

فقال رضينا بعمار فانصرف ساعة تشاء واحذر ذلك اللخمي .

فخرج عدي وهو يقول في نفسه : ان كسرى يحصي عـــلى النعمان انفاسه غير انه يسيء به الظن .

* * *

٢٢

الحكم النافذ

في مساء ذلك اليوم : قال عدي لرسول النعمان .

نترك المدائن غداً يا بسطام فتزود واصلح امرك .

وكان الخبيث مستعداً وهو ينتظر الامر بالرحيل .

فلما كان الصباح ، ترك الاثنان عاصمة الفرس ، وقد رق نسيم ذلك اليوم ، وصفت سماؤه .

وعدي بن زيد يستحث مطيته ، وهو اكثر شوقاً الى الحيرة ، من ذلك العبد الذي لو استطاع ، لفرط شوقه اليها ، لركب متن الهواء .

وساعدهما الحظ في السفر ، فلم تعصف العاصفة ، ولم يعرض لهما شيء ...

وكان الفريقان في الحيرة ـ فريق الانصار وفريق المتآمرين ـ ينتظر كل منهما رجوع صاحبه ، وهو واثق بفوزه في المهمة التي بعثه لاجلها الى عاصمة الفرس .

وكان ابن مرينا لا يفارق الملك ، فقد كان يخشى اذا فارقه ان يصرفه ابن شهبرة عما هو فيه من الغضب ، فيسقط هيكل تلك المؤامرة الذي قام على النميمة والتزوير .

على ان ابن شهبرة لم يذكر شيئا لمولاه ، فخير له ان يتجاهل القضية

ويسترق الاسرار ، من ان يتصدى للدفاع عن صاحبه فينكأ الجراح .
والنعمان لم يزل على تغيره ، وصدره يغلي كما يغلي المرجل غضبا على صهره . لكنه كان يخجل . اجل ، كان يخجل من ان يقابل عديا وجها لوجه . وهو الذي احاطه بعنايته اكثر من اثني عشر سنة . كان فيها ولده بل اعز عليه من ولده .
وكيف يعاقبه على كبريائه دون ان يحاكمه ويعاقبه على ما ظهر من تلك الكبرياء .
فقال لابن مرينا : انعاقب ذلك الرجل الناكر الجميل دون ان نراه؟
وكان زعيم العصابة يرغب في هذا خوفاً من ان يفضح العتاب سره. فقال لمولاه :
ولماذا لا تدعوه الى مجلس تحضره العرب ؟
ــ لاننا لا نطيق النظر الى رجل ينسى ولي نعمته ويقابل احساننا بكبريائه .
فتظاهر الخبيث بالتفكير ثم قال :
اذن فليسجن قبل ان يصل الى الخورنق ثم تنظر في امره وهو بعيد.
فقال : احسنت وهذا هو الرأي . ولكن قد يقدم فجأة ويستحلفنا بماضيه بل قد يستجير بهند فتجيئنا مستعطفة باكية .
قال : لا بد من ان يتقدمه بسطام فتأمر بالقبض عليه قبل ان ينزل الحيرة .
قال : اذا كان هذا فقد انقضى الامر .
واذا بصوت عصام بن شهبرة يدوي في الرواق .

فقال الملك : هذا صوت حاجبنا ينتهر سائلا :
ثم سمع صوته وهو يقول : متى كانت العبيد مثلك تقابل الملوك ؟
فقال ابن مرينا : هذا بسطام يا مولاي فدعه يدخل .
فنادى الملك حاجبه وقال له : من بالباب يا عصام ؟
قال : عبد من عبيد الحجاز يا مولاي يستأذن على الملك .
قال : لا تمنعه فليدخل .
فدخل بسطام . نعم بسطام بطول قامته وضخامة رأسه . وقبل الارض بين يدي النعمان .
فقال له الملك : ما وراءك ايها العبد ؟
قال : لقد اقبل الرجل وهو لا يبعد عن الحيرة اكثر من فرسخين .
فقال النعمان وقد اشرق جبينه :
يا ابن شهبرة . ان الملك بحاجة الى رئيس شرطه الآن .
فصاح ابن شهبرة باحد الغلمان قائلا :
ليحضر رئيس الشرط الى قاعة العرش .
فتناقلت الغلمان امر الملك واذا برئيس الشرط قد جاء وهو يجر سيفه ، فسلم ووقف :
ففاجأه الملك بقوله وعصام يسمع :
يدلك هذا العبد على رجل يصل الى الحيرة بعد ساعة وهو راكب ناقة ، فاقبض عليه .
فمد ابن شهبرة عنقه وخفق فؤاده .
اما رئيس الشرط فقال : اثائر هو ام خليع ؟

فقطب الملك حاجبيه وقال : لماذا تسألنا ايها التغلبي ؟
قال : حتى اذا كان ثائراً خارجاً على الملك استعنت بشرطيين .
فاجابه قائلا : استعن بمن تشاء فالرجل هو صهرنا عدي بن زيد .
فمرت سحابة سوداء امام عيني رئيس الشرط .
اما عصام بن شهبرة فابتسم ابتسامة اليأس والقنوط .
ثم قال التغلبي : واذا قبضت عليه يا مولاي فماذا افعل به ؟
قال : في ضواحي الحيرة بناء يشبه القلعة يقال له « الصنين » تجعله في غرفة ضيقة مظلمة من غرفه وتطوق «الصنين» بالجنود ، والويل لك اذا رأى الرجل منفذاً يفر منه او يستنشق منه الهواء الحر ، وكن انت رئيس الحراس الذين يحرسون سجنه . اسمع ما اقوله لك يا ابن تغلب: لقد جعلنا امر الرجل بين يديك ، لا يدخل احد عليه بدون اذن الملك ولو كان ولي العهد ، واذا جاء وقت الطعام ناولته انت طعامه وشرابه حتى نرى فيه رأياً آخر . انصرف الآن قبل ان يجتاز ضواحي الحيرة .
فقام في ذهن رئيس الشرط ان الملك اخطأ في الاسم ، فقال : اسألك عن الرجل ثانية يا مولاي أهو عدي بن زيد ؟
فأومأ اليه الملك بالانصراف وهو يقول : اجل ايها الابله انه عدي ابن زيد .

***

عند ما اطل عدي بن زيد على عاصمة العراق رأى فريقاً من الشرط بينهم رئيسهم وذلك العبد ينتظرونه على بضع خطوات . فقال في نفسه اين اهل الحيرة الذين كانوا يخرجون لاستقبالي اذا قدمت ، بل اين وزير النعمان وخواص دولته اذا كان الملك مريضاً ؟! ان رئيس الشرط وبعض رجاله يستقبلونني وحدهم !. لا بأس فهذا يكفي .

وظل راكباً حتى قاربهم فأناخ ناقته واحاطت به الرجال .

ثم انحنى رئيس الشرط امامه وقال له وصوته يرتجف :

سلم الي سيفك يا مولاي .

فنظر اليه ذلك الرجل النبيل بأنفة وكبر قائلا :

سيفي يا ابن تغلب !!

ـــ نعم يا مولاي واسألك هذا باسم الملك .

وكان ذلك العبد يبتسم ابتسام الابالسة ، فاسودت الدنيا في عيني عدي .

وقال : النعمان بن المنذر يأمر رئيس شرطه بان يأخذ سيفي ؟

ـــ بل يأمره بالقاء القبض عليك يا مولاي .

فملأت الكآبة نفسه واحس بالنار تضطرم في احشائه ، فقال : أفعلها النعمان . أيغدر بي ابو قابوس ؟

فقال : يا مولاي يا اعظم رجل في العراق ، انك الملك نفسه امرني بهذا فلا تضطرني الى غير الرجاء .

فأجابه بعظمة قائلا : افعل ما امرك به الغادر .

قال : اعطني سيفك وارجع معنا الى الصنين .

قال : اما ان اعطيك سيفي فهذا ما لا افعله الا اذا عجز يدي عن حمله واما ان انقدمكم الى «الصنين» فذلك ما اتمناه لان الاقامة في القلاع بين اربعة جدران خـــير من السكنى في الخورنق . في بلاط ذلك الملك المقيم على عهد مربيه .

ثم اومأ اليهم وانثنى راجعاً الى الحصن الذي جعلوه سجنا له .

فهمس رئيس الشرط في اذن معاونه قائلا :

خذوا سيفه عندما نصبح في صحن الصنين .

واستمروا سائرين والمحكوم عليه مطرق ينظر الى الارض وهو يفكر في ذلك الموقف الذي صار اليه .

حتى اجتازوا عتبة الحصن العظيم وبعض اروقته ودهاليزه ووصلوا الى باحته الداخلية التي قامت فيها المنافذ الضيقة والمرامي وجميع اسباب الدفاع في ايام الحصار كبيوت المؤونة والمرابط وما يشبه ذلك .

فأحاط القوم بعدي واخذوا منه سيفه وهو يمانعهم ويدافـــع ولا ينفع الدفاع .

فنظر الى رئيس الشرط وقال : ان الجالس على عرش الحيرة علمكم الغدر ...

قال : لم اتعلم الغدر يا مولاي بل تعلمت الطاعة وتلك ارادة الملك.

ثم اشار الى غرفة مظلمة ضيقة قائلا :

ادخل يا مولاي فهذه سجنك حتى يرى الملك فيك رأيا آخر .

والغرفة من غرف المؤونة . لا تجد فيها من دلائل الحياة غير نافذتين في اعلى الجدار الغربي .

واذا ببعض الغلمان يحملون فراشا من « قش » ووسادتين وسراجا وقربة ماء .

فقال رئيس الشرط : أتحتاج الى غير هذا يا مولاي ؟

فابتسم عدي قائلا : الى دواة وقلم وبعض الرقوق .

ففكر رئيس الشرط مليا وهو لا يرى ما يمنعه من تنفيذ امره .

وكانت ساعة اعطوه فيها ما اراده .

فدخل المنكود الحظ الى ذلك السجن الهائل واومأ الى رئيس القوم بان يتبعه واغلق الباب .

فقال عدي: الا تذكر يا رئيس الشرط نعمة لعدي بن زيد عليك ؟

فانحنى ذلك الرجل امامه وقال : بل اذكر ان عديا سبب نعمتي .

ــ اذن اسألك قضاء حاجة لي .

فتردد الرجل قليلا في الجواب .

فقال عدي : لا اسألك ما يغضب مولاك . ان لي في الحيرة صاحباً هو هانىء بن قلام مربي ولدي. وغص عدي بالبكاء . ثم قال : تقول لهذا الرجل اني في الصنين . أتقدر على ذلك ؟

ــ نعم يا مولاي .

ــ اتقسم لي انك تفعل ؟

ــ اقسم لك برأس الملك .

ــ بل اقسم بشرف عشيرتك فرأس الملك لا يصلح لهذا .

قال : اقسم بشرفي وشرف آبائي اني سأفعل .

فتنهد السجين تنهداً طويلا واستلقى على فراشه الناعم واغمض عينيه.

* * *

السكون الرهيب يسود الصنين فلا يسمع في الحصن غير تنفس السجين وهمس حراسه من رجال الملك .

وكان الناظر الى اولئك الحراس يظن ان عدواً غازياً سيفاجيء الحيرة ..

ثلاثون شرطيا بينهم الجنود يقومون على حراسة رجل واحد لا يحمل سلاحا !! بل هو لا ينهض عن فراشه الا ليخطو في غرفته بعض خطوات ترتجف لها ركبتاه .

ولم يكن في العراق كله ، بما فيه عشائره ورجال البلاط في الحيرة . من يؤثر السلم والرأي ، على الخصومة والسيف ، مثل ذلك الرجل الذي تطوق سجنه الجنود .

اثنان على باب غرفته تحسبهما تمثالين من حجر ، وعلى كل منفذ من منافذ الصنين يقف جندي بسلاحه . والأروقة والدهاليز تغص بالحراس .

وليس من المعقول ان يفر عدي بن زيد . فاصحابه قلوا حتى لا تجد له صاحباً ، ورجال العراق جميعهم اصبحوا عيونا ورقباء عليه ، بعد ان كانت رؤوسهم موطئاً لقدميه .

وهو نفسه لم يكن يفكر في الفرار ، فكاتب كسرى وصهر النعمان

ابن المنذر لا يهرب كما يهرب الجبان . واذا كان لا بد من الموت فليمت عزيزاً خير له من ان يفر فتطارده القوة كما تطارد الخوارج والمتمردين .
لكنه لا يريد ان يموت قبل ان يرى، زيدا ويوصيه . ومن اين له ان يراه والصنين لا يطأ عتبته احد الا باذن الملك .
وكان يقول في نفسه : ان هانيء بن قلام وعصام بن شهبرة سيقتحمان ابواب السجن ومعهما زيد .
وكان الرجلان القائمان على حراسته، يأذنان له كل صباح في الخروج من غرفته الى تلك الباحة الواسعة التي تحدق فيها اليه العيون .
فيرسل السجين نظر التائه الى الحيرة . ثم يرتسم اليأس بكال معناه على جبينه وتدمع عيناه ، فيعود الى فراشه قبل ان تفضحه الدموع .
وكان يقول لحراسه من حين الى آخر :
من يذكر لي ذنبي فاعطيه نصف ما املك ؟
فكانوا يقولون : لا نعلم الا اننا حراس بأمر النعمان .
فقام في ذهنه ان ابن مرينا وانصاره اخترعوا للملك ما اخترعوه من الاكاذيب . فأمر به فوضع في سجنه ، دون ان يحاكم في مجلس الملك . ودون ان يعرف له ذنباً .
وأصعب شيء على البريء . ان يضعوه موضع المجرمين . وينظر اليه الناس نظرهم الى القتلة والاشرار .
اما رئيس الشرط فقد ترك الصنين ولم يعد ، والسجين يتوقع ان يراه ليسأله عن صاحبه ابن قلام . كأن الحياة في فم ذلك الرجل .

***

عندما مثل رئيس الشرط بين يدي الملك ، قال له والابتسامة على ثغره ..

افعلت ما امرناك به يا سيار ؟

ــ نعم يا مولاي وقد امسى عدي بن زيد في الصنين .

قالها على مسمع من رجال البلاط وعصام بن شهبرة في القوم . وابن مرينا بينهم يكاد يثب عن كرسيه من شدة الفرح .

فقال الملك : قص علينا كل ما سمعت ورأيت .

قال : لم اسمع ولم ار غير مظاهر السكينة والطاعة يامولاي.

ــ وماذا قال لكم عدي عندما اعطاكم سيفه ؟

ــ كان يردد ذكر براءته قائلا : انا البريء المغضوب عليه ظلماً .

فجاشت في صدر الملك عاطفة الندم وتمتم قائلا : مسكين عدي فقد يكون بريئاً . اين انزلتموه ؟.

ــ في احدى غرف الصنين العليا على فراش ووسائد من « القش »

فرفع النعمان صوتــــه يقول : ان عدي بن زيد لا ينام الا عـــلى فرش الديباج . خذوا له من الخورنق فراشه ووسائده ولا تمنعوه في سجنـــه شيئاً الا الفرار حتى ننظر في امره .

وكان ابن مرينا قد خرج من عزلته واستطاع بدهائه ونفوذ اخوة الملك ان يخضع النعمان لهواه فكانت ارادته في الخورنق الارادة العليـــا التي لا ترد . فقال :

اجل ايها الملك : ولتفرش ارض الصنين كلها بالخز والديباج . اجلالا لمقام رجل يكتب الى انصاره انك من عماله !! وانا ارى ان تأمر الجنود

فيخرجوه من سجنه وينادوا بهملكاً .. الا تعلم يا مولاي ان هذا السجين المسكين ! لا هم له الا الجلوس على العرش .

فتغيرت لهجته وقال : اتظن ان ابن زيد يطمع بتاجنا ؟

ــ بل اثق الوثوق كله يا مولاي ، وفي الساعة التي يخرج فيها عدي ابن زيد حراً من سجنه . نعم في تلك الساعة نفسها تجاهر كتيبة الفرس بالعصيان ويقوم قائدها في سوق الحيرة فيقول : ايها العرب ان عدي ابن زيد ملككم ، ولاه كسرى امور العراق وخلع « النعمان » ثم يخرج المتآمرون على الملك فيرددون ذلك النداء . فلا يبقى الا ان يجرد الملك سيفه ويخوض مجال الحرب ليستعيد تاجه بقوة الجنود .

فاهتزت اعصاب النعمان لقول كاتم سره وقال : اتعتقد يا ابن مرينا أن في الناس رجلا يجرؤ على ان يرفع صوته بهذا ؟ وهل يجد الطامعون بالتاج سبيلا الى الوصول ونحن احياء ؟ !

فاجابه اللعين بقوله : ان في الناس رجلا لا يخشى احداً ولا يهتم لأمر العرب ، هو كسرى ابرويز الجالس على عرش جـده انو شروان . وكتيبة الوضائع اذا هي نادت بعدي بن زيد ملكا فانما هي تنادي بـه باسم كسرى . وتحميه بسيوفها حتى يبغث الملك الفارسي بجيش آخر يغطي ارض العراق .

فاذا شاء الملك فليغامر بعرشه وليطلق عديا .

فنظر النعمان عندئذ الى رئيس شرطه وقـال له دون ان يـتردد : انصرف اذن الى عملك واعلم ان رأسك باق ما بقي عدي بن زيـد في الصنين ...

واطرق يفكر ، والناس لا يعلمون اذا كانت اكاذيب ابن مرينـــا اثرت في ذهنه ام هو يفكر في الامر من وجه آخر .

فخرج رئيس الشرط وهو يقول في نفسه : لقد دار الزمان دورته وامسى ابن مرينا سيد العراق الحاكم بامره.

ثم مشى يريد بيت هانىء بن قلام وهو لا يجد ما يمنعه من ذلك كما تقدم .

وكان يحترم عدي بن زيد ويحبه . ولكنه مثل معظم الناس اصحاب المصلحة الخاصة لا يبيعونها بموقف واحد من مواقف الوفاء .

فلما قارب المنزل ، خاف عاقبة عمله وتردد في الدخول .

واذا بعصام بن شهبرة يهمس في اذنه قائلا :

أتتردد في الدخول يا سيار وانت رئيس شرط النعمان ؟

فبغت وقال : عصام بن شهبرة ؟ !

ـ نعم عصام بن شهبرة المخلص الوحيد في بلاط النعمان لعدي بن زيد المنكود الحظ .

فقال : أتلومني اذا نفذت امر الملك وحفظت رأسي ؟

ـ اجل ان كل من يستطيع ان يطلق عدي بن زيد من سجنه ولا يفعل فهو خائن . أنسيت يا رئيس الشرط عديا ولولاه لما وضعت على صدرك علامة الرئاسة ؟

قال : ذلك واجبي يا عصام فلا اخون الملك .

قال : حسناً وهل جئت بأمر ابن مرينا تقبض على ابن قلام ؟

ـ بل جئت بأمر عدي بن زيد لاقول لهذا الرجل ان عديا سجين

في الصنين ..

فاطرق عصام مليا ثم قال له : اذن فاحفظ رأسك وارجع من حيث جئت وانا اتولى امر التنفيذ .

وتركه وطرق الباب واليأس يكاد يقضي حياته .

اما سيار فانثنى راجعاً وقد تصاعد دم الخجل الى خديه .

* * *

عجباً : ان عباس بن جعفر لم يرجع ..

قالها هانىء بن قلام وهو ينظر الى تلك الملامح الغريبة التي طبعها الهم على جبين ابن شهبرة .

فاجابه عصام قائلا : لنبك عباسا فقد طواه الثرى ولننظر في امر من هو اعظم من عباس .

فخفق قلب الرجل وقال : اتعني عدي بن زيد ؟.

ـ اجل ولا اعني سواه فهو سجين في الصنين .

فأحس هانىء ان السهم اخترق قلبه ، فقال : ويلك يا عصام افعلها النعمان بن المنذر ولم يخف كسرى ؟!

ـ بل فعلها النـــذل ابن مرينا الذي يأمر النعـــمان كما تأمر احدى جواريك .

واخذ يقص عليه ما قاله رئيس الشرط للملك . والدموع تتساقط من عيون الاثنين .

وكان عصام في تلك الساعة يرى الموت كامنا لعدي في دهليز من دهاليز الصنين ..

ثم قال : لقد ارسل عدي يقول لك انه في السجن .

ـــ ومن هو رسوله ؟

ـــ رئيس الشرط نفسه : فماذا ترى ؟.

فمسح هانيء دموعه قائلا: ارى ان يذكر عدي امره للملك الفرس. في كتاب نبعثه نحن الى المدائن . أتجسر يـــا عصام على مخاطبة النعمان بشأن عدي ؟

فابتسم الرجل ابتسامة اليأس وقال : ما ابالي اذا تعرضت لغضب النعمان ولكنه لا يسمع . ان ابن مرينا هو وحده صاحب السلطان الذي يحيي ويميت .

ـــ اذن ليس لنا الا كسرى وعليك ان تقابل عدياً في الصنين ليكتب رسالته .

قال : اما انا فلا يأذنون لي في الدخول عليه . وهب انهم اذنوا لي فلا اكاد اخرج من الصنين حتى يتخطفني الحراس بسيوفهم بأمر الملك، واني لا احب ان اموت الآن فحياتي تنفع عدياً .

ـــ أصبت ولكن يجب الحصول على رسالة بخط عدي فكسرى لا يهتم للأمر وقد لا يصدقه الا اذا رأى توقيع كاتبه .

فبرقت عينا عصام وقال : نسيت رئيس الشرط فهو نفسه يأتينـــا بالرسالة وسأراه الليلة .

ـــ وهل تثق بالرجل وهو الجلاد ؟!

قال اجل والويل له اذا لم يفعل ..

فاخذ هانىء يشهق بالبكاء ويقول : مسكين زيد من ينقل اليه الخبر وهو ينظر قدوم ابيه ؟.

قال : انا . فادع الاثنين مليكة وزيداً والاتكال على الله .

وكان زيد مع اخويه زياد ومليكة . جالسين حول حوض الماء في باحة المنزل يلعبون ويضحكون .

فقال لهم احد الغلمان : ان عصام بن شهبرة حاجب الملك يريد ان يراكم فخفق قلب الفتاة واستندت الى ذراع زيد وهي تخشى ان تصدق الرؤيا .

فقال زيد : عسى ان يبشرني حاجب الملك بقدوم والدي .

ومشى الثلاثة الى قاعة الجلوس .. ولكنهم وقفوا كالتماثيل على عتبة الباب عندما ابصروا الدموع تجول في العيون .

ففاجأهم عصام بقوله : اريد ان اعلم اذا كنت يا زيد رجلا وتصبر صبر الرجال ...

فارتجف جسم الفتى وعقد الخوف لسانه لأنه احس بالمصاب .

اما مليكة فحبست انفاسها لتسمع .

فاستطرد حاجب الملك قائلا : لقد جعلت الاقدار موعداً آخر لزواجك يا بني ...

فدمدم الفتى قائلا : أمات ابي ؟

فارتفع صوت مربيه قائلا : ليمت عدو ابيك يا بني ، ان اباك حي

ولكنه سجين .

والفتى يعلم ان اباه في اعلى مراتب العز والنفوذ ، فقال : سجين في المدائن ؟

قال عصام : بل في الحيرة ، وبهذا امر النعمان بن المنذر ، فاجلس يا بني اقص عليك كل شيء .

فجلس ذلك الغلام النبيل وهو يكفكف دموعه ، فقال عصام :

الا تعلم ان بين رجال النعمان رجلا يدعى عدي بن مرينا ؟

قال : اسمعهم يذكرونه فهو عدو ابي .

قال : اجل وهو الذي يسعى بابيك منذ خمس وعشرين سنة أي منذ تولى النعمان امر العراق . اما سبب هذا العداءفهو ان الاثنين كانا — بعد ان مات المنذر — يتنازعان النفوذ ، ابن مرينا من حزب الاسود شقيق للنعمان يريد ان يجعله ملكا . وابوك من حزب النعمان وهو الذي رباه ، غير ان النعمان فاز بالعرش وذلك بفضل ابيك فاضمر الرجل له العداوة من ذلك الحين واخذ يسعى به .

ثم روى له حكاية التزوير وما تلاه من حادث القبض على ابيه والفتى تلمع عيناه ببارق غريب تظهر فيه رجولته وصبره .

وكانت مليكة تبكي وقد قام في ذهنها ان هذا الحادث تفسير لحلمها المزعج الغريب الذي يشبه الوحي .

ولم يكن الرجلان هانيء وعصام ، يظنان ان زيداً يظهر من الجلد ما تعجز عن مثله الرجال ، ثم قال عصام : ولم يبق لابيك صاحب يستطيع ان يثني النعمان عن عزمه .

ـ اذن يبقى ابي في الصنـــين ؟ !

قال لا فسأبعث الى كسري برسالة يوقعها ابوك وكسرى وحـــده يقدر على اخراجـــه من السجن ؟

ففال : أينكر النعمان فضل ابي ولا يخـــاف الله ؟

قال : احذر يا زيد ان تذكر النعمان بكلمة فان للجدران آذانا ...

فنهض وقال : اصبت يا عم فيجب ان نرضى بالمـــوت ينعمنا بـــه الملك ولا نقول كلمة .

وماذا جرى للمسكين عباس ؟

ـ اما عباس فقد قتلوه وهـــذا ما يتضح لنا بعد حين .

مد زيد يده الى مليكة قائلا : لنصبر على الزمان يا مليكة اذا جار.

فصافحته وعيناها تدمعان قائلة : اذا لم نصبـــح زوجين · فسنظل اخوين بالرغم من هذا الزمان ·

* * *

٢٣

الفشل

سيسألك كسرى اطلاق عدي يا مولاي فماذا تقول له اذا ورد عليك كتابه ؟

فأجاب النعمان ابن مرينا قائلا : ما نقدر الا على اطلاقـه فعدي لا يستحق اكثر من هذا .

قال : انسيت عرشك المهدد يا مولاي ؟

فقال : ما نسيت شيئاً ولكني لا استطيع ان اراجع كسرى في امره.

قال : اترك الحيرة حتى لا يراك رسول كسرى اذا بعثه اليك .

فابتسم قائلا : ان هذا الرسول يلحق بنا الى آخر الارض .

قال : اجل ولكن تطول بذلك ايام سجن عدي وتموت اطماعه في صدره فلا يجرؤ بعد ذلك على القول انك من اتباعه .

قال : اذا كان هذا رأيك فنحن سائرون الى البحرين ويرافقنا ابن شهبرة .. ادخل يا عصام .

فلما دخل الرجل قال له الملك سنذهب الى البحرين بعد ثلاثة ايام فكن مستعداً .

فقال : لا شيء احب الي من السفر في مثل هذا الربيع . واخـذ يقول في نفسه : لا يطيب العيش لابن مرينا الا اذا ابعدني عن الحيرة .

ثم رأى ان يأخذ رسالة عدي قبل ان يسافر .

فقال للملك : أعد العدة من الآن ؟.

قال : لك ان تفعل ما تشاء :

فترك قاعة العرش الى تلك القاعة التي يقيم فيها رئيس شرط النعمان لدخل عليه واغلق الباب وراءه .

وبعد ساعـــة خرج الاثنان وعلى وجه عصام دلائل الرضى . فسار سيار في طريق الصنين . ومشى الآخر يريد بيت هانى بن قلام ليطلعه على كل شيء .

وكان عدي بن زيد فيباحة الصنين عندما قدم رئيس الشرط .فقال له عدي :

اقدمت اخيراً يا سيار ؟

قال : نعم يا مولاي قدمت لاسألك الدخول الى غرفتك لان هواء الربيع يؤذيك .

قال هذا واشار اليه بعينيه اشارة لم ينتبه لها الحراس .

فأجابه قائلا : احسنت فالنعمان ورجال النعمان لا يهتمون الالحياتي.

ثم دخل وسيار وراءه فاحتجبا في ذلك السجن الصغير الذي يسوده السكون . فقال سيار : اكتب يا مولاي ما تشاء الى ملك الفرس ففي الحيرة قوم يعملون على اخراجك من السجن .

فقال الرجل دون ان يتردد : لم يبق لي من الاصدقاء غير هـــانىء وعصام بارك الله فيهما . اما ان اكتب الى كسرى فليس عندي مـــا اكتبـــه اليه فاخرج وقل لابن مرينا الذي ارسلك اني اعرف غرضه من هذا ..

ومن حق عدي ان يسيء ظنه بجميع الناس .
فجثا رئيس الشرط على ركبتيه وقال : اقسم لك يا مولاي بشرف آل تغلب اني رسول عصام بن شهبرة حاجب الملك .
فوثق عدي عندئذ بما سمعه وقال : كافأ الله ذلك الحاجب الامين . أرأيت زيدا يا سيار ؟
قال : لم اراه ولكنه عرف كل شيء ، فاكتب رسالتك يا مولاي فابن مرينا يحصي علي الانفاس وقد تكون جواسيسه في الصنين .
فاخذ السجين رقاً وكتب الى اخيه ابي في المدائن يقص عليه خبره ويسأله ليتدارك امره عند كسرى .
ثم اخذ رقا آخر فكتب الى ولده زيد يقول له : اذا قتلت فاهجر الحيرة واحذر آل لخم ، واوصاه بالاركان الى هانيء بن قلام وعصام ابن شهبرة .
ثم نظر الى سيار قائـلا : سأكتب شعرا الى النعمان فاعطـه اياه واحفظ جوابه .
ولما خرج سيار من غرفة السجين كانت الرسائل الثلاث في كمـه ولم يعلم احد ما دار بينه وبين عدي .

***

فلما قرأ النعمان شعر عدي ندم عـلى حبسه اياه وارسل اليه يعـده ويمنيه ... لكنه كان يخشى اذا اطلقه ان يغير عليه قلب كسرى فيخسر تاجه وحياته .

اما زيد فقد بلت دموعه ذلك الرق الذي كتب ابوه عليه وصيته ، وكان قلبه يحدثه بأن اباه لا يخرج حيا من سجنه .

وفي اليوم الثاني سافر رسول عدي الى المدائن اما النعمان فغادر الحيرة في اليوم الثالث وشهاب بن قيس اليربوعي يقوم مقامه في ادارة الملك . ولكن بالاسم .

وكان أبيّ بن زيد في المدائن ينتظر اخبار اخيه . فلما وصل رسول عدي واعطاه كتابه ثار ثائره . وقام حالا فدخل على كسرى والكتاب في يده .

فأخذ كسرى يقرأه ولحيته ترقص من الغضب . ثم قال : هذا ما كنا نخشاه ونحذر عدياً منه . أكتب يا أبيّ :

من كسرى ملك الملوك الى عامله في الحيرة النعمان بن المنذر :

« هذا كتابنا يحمله اليك رجل من الخاصة. فاذا اخذته فاطلق عدي ابن زيد من سجنه وليقدم المدائن مكرما » .

واستدعى كسرى رجلا من حراس قصره وقال له: خذ هذا الكتاب الى النعمان بن المنذر عاملنا في الحيرة وافعل هناك ما يأمرك به أبيّ .

فخرج الرجل وابيّ يقول له : اذا قدمت الحيرة فادخل على عدي في الصنين وانظر ما يأمرك به . ثم اعطاه ابيّ من المال ما يكفيه دهره .

فانصرف الرسول قاصداً العراق . وقبل ان يصل اليـه ، عرف شهاب بن قيس ان رسولا يحمل من كسرى كتابا الى النعمان بشأن عدي.

فكتب الى مولاه يسأله رأيه . فرأى النعمان ان يعود الى الحـيرة . وعند وصوله اليها، اقبل عليه قوم من بني بقيلة وهم اعداء عدي يقولون له : اقتله الساعة فحياته خطر على العراق . اما النعمان فلم يفعل وكانت

الافكار تتناقض في ذهنه وهو مضطرب مهموم :

حتى قدم الرسول الصنين وسأل حراسه باسم كسرى ان يدخل على السجين المغضوب عليه .

فاذنوا له ، فلما اصبح بين يديه قال له :

لقد جئت بارسالك الى المدائن فما عندك ؟

قال : عندي الذي تحب ، ولكن اعطني الكتاب فانا ابعث بـه الى الملك وابق انت هنا فوالله ان خرجت من عندي لاقتلن .

فقال : لا استطيع الا ان آتي الملك بالكتاب واسمع جوابه .

وكان رجال ابن مرينا في ذلك الحين يملأون الصنين . فانطلق احدهم حتى اتى النعمان فقال له : ان رسول كسرى قد دخل على عدي وهو سيذهب به . فاذا خرج من سجنه لم يستبق منا احداً .

فغضب النعمان وكان خوفه قد ازداد . فقال لابن مرينا .

نبعث الليلة الى الصنين من يقتل الرجل .

ثم دخل الرسول على النعمان بكتاب كسرى . وفي تلك الساعة ، اجل في تلك الساعة خرج من الخورنق بضعة عشر رجلاً يتقدمهم ابن مرينا قاصدين ليقتلوا ذلك الرجل البريء الذي البس النعمان تاج اجداده.

وتظاهر النعمان بالتفكير وهو يقرأ كتاب الملك الفارسي . ثم قال للرسول سنفعل كل ما امرنا به الملك .. اعطـه يا غلام اربعة الاف مثقال من الذهب وجارية .. واستطرد قائلا : اذا اصبحت فادخل على السجين فأخرجه بنفسك .

وقضى ذلك الرسول ليلته ينادم النعمان والنعمان يشرب .. يشرب

ولا يرتوي .

غير ان الصنين كان قدبسط عليهملاك الموت جناحيه . فانالجلادين دخلوا على عدي وخنقوه وهو لا يستغيث ولا يقول كلمة .. وعندما لفظ روحه لفظ معها اسم زيد .

وفي تلك الليلةالمظلمة . حمل القوم ضحيتهم وخرجوا بها الى شاطىء الفرات ، وهناك .. بين القصب النابت في الرمال .. حفروا للجثة التي يحملون حفرة مستطيلة ضيقة .. وردوا عليها التراب بأيديهم الملوثة بالدماء ...

واصبح الصباح : وعصام بن شهبرة لا يعلم شيئاً وقد نام ملءجفنيه في ذلك الليل .

فركب رسول كسرى الى الصنين . فقال له الحراس:ماذا تريد ؟..

قال :أريد عدي بن زيد .. فأجابوه قائلين : انه قد مات منذ ايام ونحن نكره ان نخبر الملك .

فرجع الى النعمان وهو يرى انهم بدأوا يهزأون به . فقال له الملك : ماذا رأيت ايها الرسول ؟

قال : دخلت على عدي بن زيد امس وهو حي فلما اردت الدخول عليه اليوم قالوا لي انه مات منذ ايام .

فبان الغضب في وجه النعمان وقال : يبعثك الملك الينا فتدخل اليه قبلنا !! كذبت ، ولكنك اردتالرشوة والخبث وانا لا اسكت علىهذا. اتظن ايها الخبيث ان النعمان يجهلماذا يجري في العراق فوالله لأجعلنك طعاماً للاسماك في قعر الفرات .

ولكن الرسول لم يخف ولم يبال بما رآه من مظاهر ذلك الغضب .
فقال الملك : ألا تبالي ايضاً بما تقول ؟

فقال : ما ابالي اذا كان مولاي كسرى امرني بأن افعل ذلك ففعلت

ــ اكسرى امرك بهذا ؟

ــ نعم ايها الملك فاقتل رسول كسرى ان شئت .

فعمد النعمان عندئذ الى السياسة واللين . قال :

اذا كان هذا فقد عفونا عنك . لقد امرنا لك باربعة الاف مثقال وجارية والآن نأمر لك باربعة الآف اخرى وجاريتين .. ولكن يجب ان تقسم لنا برأس مولاك انك تكتمه ما رأيت .

ــ اي ان اقول له ان عدياً كان قد مات ..

ــ اجل : فان فعلت فلك مني جائزة في كل عام . أتعدني بهذا ؟
فأقسم له النذل ووعده .

وبعد ان مكث في الحيرة بضعة ايام انصرف عائداً الى المدائن وقال لكسرى : ان عديا مات قبل ان ادخل عليه .

فاظهر ابرويز اسفه لكن السياسة قضت عليه بالسكوت . فلم يشأ ان ينفر العرب او يحدث في العراق حدثاً انتقاما لكاتبه الذي مات .
وقام أبيّ مقام اخيه في ادارة شؤون العرب في ديوان الملك الفارسي .

***

مسكين زيد ... كان عامة الخامس عشر شؤماً عليه كما تنبأت

رفيقة صباه .

اما احلام الشباب وآمال الصبا . فقد تلاشت في صدره . والحياة بما فيها من بهاء ونور اصبحت في نظره وحشة وظلاما .

وكيف يتعزى الفتى المنكود الحظ وقد حرمته الاقدار امه واباه ..

اذا طلعت الشمس . وهب الهواء . وطـــار طائر في الفضاء كان اليتيم يذكر اباه ويبكيه وهو لا يعرف قبره ليبل بدموعه ثراه .

ولو لم تكن مليكة الى جانبه . يبسم له فؤادها الجريح . وتكفكف دمعه بيديها الناعمتين . لما عرف ذلك القلب الذي باركه الحب . بعض العزاء وبعض الرجاء .

اجل : كانت مليكة وحدها تبعث الى ذلك القلب السلوان والصبر. فكان الاثنان في غرامهما الطاهر . ويأسهما القاتل . ومصيبتهما الدهياء مظهراً بليغاً من مظاهر الحزن وكآبة النفس .

وكان هم عصام بن شهبرة . وهاني بن قلام ان يزوجاه . فقد تنسيه مليكة وهي زوجته . ذلك الحزن المبرح الذى يكاد يقتله .

فكان يقول لهم : اينصرف زيـــد بن عدي الى اللذة واللهو وهو لا يعرف قبر ابيه ؟!. والمسيح بن مريم لا اتزوج حتى اثأر بأبي .

وتلك كانت ارادة مليكة ، فاذا عجز زيد عن الاخذ بثاره فأحب شيء اليها ان تقوم بخدمته كما تفعل الاخت او الجارية .

والثأر عند العرب لا يموت . فان قصر العربي عن بلوغ غايته منه ، اوصى بنيه بأن يدركوا ثارهم بعد موته .

لا سيما وزيد بن عدي من صف النبلاء ، وهؤلاء القوم لا يدفنون

قتيلهم على الغالب قبل ان يقتلوا قاتـــله .. ولكن .. ماذا يفعل الفتى اليتيم لا حول له ولا قوة ، مع الملك العظيم الجبار تخضع الاقطار العربية لسلطانه ؟ انه يستطيع ان يقتل النعمان بضربة سيف واحدة لكنـــه اذا فعل قتلوه بعده وقتلوا رفيقة صباه واخاها وكل جارية من جواري آل قلام .. ومن يجسر على الوقوف في وجه بني لخم اذا هم عمدوا الانتقام من عدو ؟.

ان كسرى وحده يستطيع ان يثأر بكاتبه ولا يبالي بآل لخم وبجميع عشائر العرب .

اذن لا بد لزيد من ترك الحيرة والذهاب الى المدائن فبذلك اوصاه ابوه من جهة ، ولعل كسرى يعطف على قضيته فينظر في امر ثأره من وجه آخر .

هكذا كان الغلام الصغير يفكر في امره . وله في ذلك رأي الشيوخ وحكمتهم .

وقد وافقه في الرأي هانيء بن قلام ، فقد اصبحت الحيرة في نظره مدينة الفساد والشر ، ومقبرة الابرياء من نبلاء العرب ، وخير لهانيءان يهجر العراق ولو خسر نصف ما يملك فيه ، من ان يزداد مالـــه في كل يوم ثم يخسر حياته .

وكان ايضاً من رأي زيد فيما يعني ثاره . امـــا عصام بن شهبرة ، وان يكن زيد بن عدي احب الناس اليه ، فهو بالرغم من ذلك لا يخون مليكه . ومن رأيه ان تبذل الجهود للقضاء على عدي بن مرينا لا على سيده النعمان .

لكن زيدا كان يقول لمربيه عندما ينفرد به : مـــا كنت لاقتل بأبي رجلا من عامة اللخميين .

وقام في ذهن الفتى ، ان تلك الوسائل الخفية الهادئة التي اتخذها ابن مرينا وانصاره ليقتلوا اباه ، ان تلك الــوسائل سيلجأ زيد الى مثلهـــا ليقتل النعمان ولكنه لا يزور .

وكما كان ابن مرينا داهياًوحكيما في مؤامراته ، هكذا سيكون الفتى داهية وحكيما في انتقامه . كذلك كانت الاقدار التي ساعدت ابن مرينا تساعد هي نفسها زيداً على بلوغ غايته .

* * *

مرت الشهور وهند تبكي عديا . ليس لانها كانت متدلهة بهواه . بل لتلك العناية وذلك العطف اللذين احاطها بهما وهو حي .

وكانت تقول لامها : كأني بالملك يفتش عن نبيل عراقي آخر يزوجه هندا ثم يقتل هذا الزوج كما قتل عدي بن زيد .

فتقول فرعة : عندما ارادك الملك زوجة لعدي ، كان الرجل دعامة لعرشه كما تعلمين ، فلما نخر السوس هذه الدعامة قطعها الملك لئلا يسقط العرش على رأسه .

وهكذا كانت تعتقد الاسرة المالكة ان عـــدي بن زيد قتل وهو خائن . اما النعمان ، فقد ندم على قتل عدي ، اكثر من ندمه على قتل نديميه ! !

وكان يفكر في ان يرد للصغير زيد منزلة ابيه في بلاطـــه وفي بلاط كسرى وهو يتوقع ان تمر الايام على الحادث فتنصرف عنه الاذهان .

واجترأ اعداء عدي على الملك واستولوا في الخورنق على كل شيء. فخافهم النعمان خوفا شديدا واخذ يلهو بالشرب والصيد لا يهتم لشؤون رعيته وبلاده فقد ضيع موت صهره بعض عقله وافقـــده تلك الارادة الحديدية وذلك العز والدهاء .

وكان عصام بن شهبرة ، يسعى كما يسعى مولاه ، ليعيد الى اليتيم مجد ابيه وشأنه ويقربه الى النعمان .

وهو يعلم ان النعمان نادم على عمله ، فخير له ان يتعجل في الامر قبل ان ينسى الملك الندم .

وفي ذلك الحين ، في حين كان الملك وحاجبه يفكران في التكفير، كان هانيء بن قلام يتعجل في بيع ارضه وارض الغـــلام اليتيم ليهجر الحيرة الى الابد .

لكن الاقدار شاءت ان تجمع بين الملك القـــاتل وبين زيد .

فبينما كان النعمان يوما في بعض صيده ، وليس معه من رجال البلاط غير حاجبه واثنين من عبيده ، رأى في ارض عدي بن زيد ، فتى مليح الوجه كبير العينين. تمشي النضارة في خديه ، وتعلو جبينه الوضاح دلائل الشرف والجــلال .

فخفق قلب الملك لانه رأى فتى يشبه عديا .

اما الفتى فلما رأى عصام بن شهبرة على فرسه يتقدم رجلا تسعى العبيد امامه . خفق قلبه كما خفق قلب النعمان . وعــرف من حديث

ذلك القلب ان الرجل كان الملك .

والتقى النظران . فكاد الملك يذوب ندمـــا واشفاقاً والفتى حقداً وغضبا . .

فقال النعمان : من انت ايها الفتى ؟

فاجابه قائلا : انا زيد بن عدي بن زيد .

وهم بان يقول : ذلك الذي قتلته ظلماً وغـــدرا . لكنه ملك نفسه فوقفت الالفاظ عند شفتيه .

فسقطت دمعة حارة على خد النعمان وقال :

اتعرف من انا يا بني ؟

قال : ارى امامي رجلا تبعث عيناه الهيبة والوقار فلعلك الملك .

فالتفت النعمان الى حاجبه قائلا : رحم الله اباه انه حسن الشمائل مثله.

ثم قفز الى الارض ومد اليه يده فصافحه وهو يقول : نعتذر اليك يا زيد عن امر ابيك فقد كاد له اعداؤه واوغروا صدرنا حتى نسينا فضله . كيف انت يا بني ؟

فظهرت الدموع في عيني الفتى وقال : اني بخير بعد موت ابي. اتسأل اليتيم عن حاله ايها الملك ؟

قال : لست يتيماً يا بني فالملك ابوك وهو سيتولى امرك .

فعمد الفتى الى الدهاء فقال : ولماذا قتلوه وهو لم يجن ذنبا ؟

ـ لقد كانت ثورة جنون فدع الماضي فلا خير في الرجوع اليه . .

فقال زيد في نفسه : اما انت فقد تنسى الماضي ايها الجـــلاد . . ثم رفع رأسه قائلا : لقد نسيته يا مولاي فليسلم رأس الملك . .

فضمه النعمان الى صدره وقال : باركالله بكيا بني انك ستخلف اباك في بلاطنا وفي بلاط الفرس .. الا ترافقنا الى الخورنق ؟

قال : وماذا افعل في الخورنق واعداء ابي يملأون مجالسه وقاعاته؟.

فتساقطت عندئـــذ دموع الملك وقال : اعلم يا ابن عدي ان الملك سيجعل اعداء ابيك عبيداً لك .

فرأى عصام ان يمـــد اصبعه فقال : ان زيداً يفعل كل ما يأمر به الملك .

فأجابه زيـــد قائلا : اجل اني من عبيد الملك ولكن لا اجرؤ على الاقامة في بلاط ترسل الي رجاله نظرات احد من السهام .

فقال الملك : اتخشى رجال البلاط يا زيد ونحن احياء ؟!.

قال : لقد علمني الزمان ان اخاف كل شيء .

ــ واذا بعثنا بك الى المدائن لتقوم مقام ابيك ؟

ــ حفظت لك هذا الفضل وكنت اشد اخلاصا لك من ذلكالقتيل البريء ..

ــ اذن نعدك بهذا فاستعـــد للسفر ولا تنس ان الملك ينتظرك غداً وسنبعث اليك حاجبنا عصاما فهو صديق ابيك .

ثم عاد الى ظهر جواده وهو يقول : الى اللقاء يا احب الناس الينا بعد عدي .

فأخذ زيد يحدقالى الجواد الاحمر ينهب السهل وهو يشهق بالبكاء .

***

لقد رأيت الملك القاتل وجعل يحدثني عن ابي .

فبغت هانيء بن قلام لما سمع وقال : اتزور الخورنق يا زيد وانـــا لا اعلم ؟.

قال : بل رأيته راكباً جواده وقوسه في يده يفتش عن السباع .

ــ وماذا قال لك ؟

ــ اعتذر لي عما مضى وضمني الى صدره فشعرت بانفاسه الناريـــة تحرق جبيني ... ثم دعاني الى المثول غداً بين يديه .

فصاحت مليكة قائلة : ايدعو الولد ليقتله كما قتل اباه قبـــله ..؟ ان في الخورنق غولا يبتلع الناس فلا تذهب .

فابتسم الفتى قائلا ؟ سيبعثني الى المدائن بكتاب منه فاقوم مقام ابي وسنرى بعد ذلك من يكون ذلك الغول .

ــ وهل تجسر على الذهـــاب وحـــدك الى الخورنق وهو مقـــبرة الاحيـــاء ؟! .

ــ سيجيء عصام غداً فيرافقني . فاعـــد العدة يا ابي فسنكون في المدائن بعد شهر ان شاء الله .

فقال هانيء : ولكن احذر هذا الملك المتقلب الخداع فقد يكون سكران وشرير ثائره .

فاجابه قائلا : لقد رأيت دموعه تنحدر من عينيه فهو لا يضمر لي شرا ، ان الله مع اليتم الذي عدروا بابيه .

فدخلت مليكة الى غرفتها وجثت على ركبتيها امام صورة المسيح ابن مريم تسأله ان يحفظ حياة زيد .

اما هو فانصرف الى فراشه وهو يفكر في ابيه وقد عـــاد الى قلبه الرجاء .

وفي اليوم الثاني ، قبل طلوع الشمس ، اقبل عصام وعلى وجهـــه دلائل الفرح والاستبشار .

فقال لهانىء بن قلام : أرأيت يا هانىء عطف النعمان على زيد ؟

قال : اخشى ان يصفو الجو قبل العاصفة .

فقال : والله ما رأيت النعمان اشد ندما على امر منه على قتل عدي . ان دموعه تشهد على ذلك في كل ليلة .

فضحك هانىء قائلا : تلك دموع يقذف بها السكر الم يبك في مساء اليوم الذي قتل فيه نديميه كما تبكي النساء ؟ . اني لا اعرف الا ان تضمن حياته ..

فقال: واني لفاعل فقم يازيد ندخل على الملك قبل ان يجتمع الناس.

فقام زيد الى «ام الروض» فرس قابوس فركبها وهو كما يعلم القارىء لا عهد له بمجالس الملوك .

وكان النعمان قد خبر هندا فنشرت هند الخبر في القصر فاقبل اعداء عدي بن زيد ينتظرون ذلك الغلام وقلوبهم ترتجف من الخوف .

وبعد ساعة اصبح زيد في الخورنق ، بين جماعات الحراس ورجال البلاط القائمين صفين في الرواق .

واذا بالنعمان قد اقبل ، فتقدم زيد ليصافحه ففتح الملك له ذراعيه وبدأ الناس يتهامسون ..

ثم اومأ اليه بالجلوس عن شماله ، بالقرب من الامير المنذر ورفـــع

صوته قائلا : يا معاشر الرجال ، من احب الملك فليحترم ولدنا زيدا كما يحترم ولي العهد واخاه . لقداعدنا اليه منزلة ابيه في الخورنق وسنرسله الى المدائن ليلي ما كان يليه ابوه من ادارة شؤون العرب. فمن كان منكم صاحب رأي فليبد رايه .

فلم يسمع جوابا ..

فعرف النعمان ان اعداء الوالد لا يزالون اعداء للولد ، فاستطرد قائلا :

ان الملك يعلم ان بينكم من لا يرضى بهذا ، ولكنه ماض في امره لا ينظر الا الى صالح دولته ومصلحة العرب، فاسمعوا واطيعوا خير لكم من هذا الهمس الذي نراه .

فامتلأت قلوب القوم حقدا وقال ابن مرينا في نفسه : ان هذا الفتى سيكون جلادك يا ابا قابوس .

ثم قال الملك لقهرمانه : لقد امرنا لزيد بعشرة آلاف مثقال من الذهب وعشرة افراس من افراسنا وثلاثمائة ناقة من العصافير . وأمرنا بمثلها يأخذه الى المدائن هدية الى الملك الاكبر . فأعد له كل هذا ايها القهرمان فان موعد سفره الى بلاد الفرس قريب .

والتفت الى اخيه الامير عمرو قائلا : اكتب يا عمرو : الى ملك الملوك كسرى ابرويز من النعمان بن المنذر ملك العرب :

« ان عدي بن زيد كان ممن اعين به الملك في نصحه . فأصابه ما لا بد منه وانقضت مدته ولم يصب به احد اشد من مصيبتي !! واما الملك فلم يكن ليفقد رجلا الا جعل الله له منه خلفاً لما عظم الله له من ملكه

وشأنه . وقد ادرك لعدي ولد ليس دون ابيه فسرحته الى الملك ، فأن رأى الملك ان يجعله مكان ابيه فليفعل .

ثم تناول الرق ونهض عن سريره قائلا :

اتريد يا زيد ان ترى هنداً زوجة ابيك ؟

فقال في نفسه : انها زوجـــة ابي ولكن لا تعرفني .. ثم قـــال : ان الرأي للملك .

ـ اذن فاتبعنا واجعل يدك بيده يا قابوس .

ومشى الجميع يتقدمهم عصام الى حجرات الملكة فرعـــة حيث تقيم هند . . .

وكانت هند مضطربة جداً وقلبها يملأه الحزن .

وقـــد استندت الى ذراع امها الملكة وهي تبكي ، ووقفت زينب الملكة الاخرى بباب القاعـــة وخلفهن اكثر من ثلاثين جارية ينتظرن اليتيم الصغير فلما وصل القوم ، قال النعمان للملكتين : هذا زيد بن عدي.

فأجال الفتى نظره باولئك النساء فعرف من بينهن زوجة ابيه التي كانت تبكي فانحنى امامها ومد اليها يده قائلا : انت زوجة ابي عرفتك من هذه الدموع .

فأقبلت عليه هند تقبله وهي تشهق بالبكاء .

ثم قبلته الملكتان واتجهت اليه انظار الجواري الحسان .

ولما امر الملك بالجلوس قال الفتى وهو يخاطب هندا : سأسافر بأمر مولاي الملك الى المدائن وقد لا ارجع الى الحيرة . ولكن سأذكرك دائماً يا سيدتي واذكر هذه الدموع التي تذرفينها حزنا على ابي رحمه الله .. اجل

سأهجر الحيرة وانا احمل منها ذكرى صباي ولا انسى ان ابي دفن في ارضها في موضع لا اعرفه .

اني لست جباناً يا سيدتي لانسى ثـــار ابي لكن مولاي الملك امرني بنسيان الماضي فتركت المـــاضي لاهله . وانا اسأل الله ان يغفر لاولئك الاعداء الذين قتلوه فجعلوني يتيماً .

فارتجفت اعصاب الملك وتساقطت دموعه .

اما هند فتمتمت قائلة وصوتها يرتجف الا تدعوني امك يا زيد؟..

فابتسم الفتى قائلا : خير لك يا سيدتي ان لا تكوني اماً ليتيم يترك العراق الى الابد .. ولكني اذا رجعت الى نفسي عرفت ان الزمان لم يبق لي ابا الا مولاي الملك . ولم يترك لي اما غير ابنته هند .

فكان جواب زيد : ابلغ مظهر من مظاهر الدهاء ..

غير ان الملك لم يكن يحب ان يجدد احزانه . فقال : ان اباك النعمان يريد ان تكون رجلا يا زيد .

فأجابه الفتى قائلا : وستثبت لك الايام يا مولاي اني ذلك الرجل.

* * *

٢٤

من اخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ

في الشهر الاخير من صيف سنة ٦١٠ وصل زيد بن عدي الى المدائن مع هانيء بن قلام وزوجته وولديه زياد ومليكة ، وجميع عبيده وغلمانه .

ولم يترك القوم في الحيرة شيئا فقد هجروها على امل ان لا يعودوا اليها.

وقد اصبحت اخلاق زيد ، في الشهور القليلة التي مرت على موت ابيه . اخلاق شيخ خبر الزمان وهذبته التجاريب . لا اخلاق فتى في الخامسة عشرة من العمر يبسم لكل شيء .

نزلوا المدائن في اول الليل، فلم يلبثوا حتى عرفوا منزل ابيّ بن زيد، فمشوا اليه بعبيدهم واموالهم وكل ما يحملون .

ففرح العم كثيراً برؤية ابن اخيه ، وانزل رفاقه في احسن جناح من منزله الرحب . لانه كان يعلم ان هانئاً هو الذي رباه . وان مليكة هي التي يهواها وستكون زوجة له .

وباتوا ليلتهم يتحدثون عن القتيل البريء والقاتل الظالم ، حتى كان الصباح وهم جالسون .

فقال ابيّ لابن اخيه : اصلح من امرك يا بني فسندخل على كسرى. ثم غدا به ذلك القصر العظيم الذي تضيق ساحاته واروقته بوفود الاقطار فقيل لكسرى : زيد بن عدي بن زيد بالباب .

فامر بان يدخلوه وقد مد عنقه ليري ذلك الغلام الذي كان ابـــوه احب رجال البلاط اليه .

فدخل ابي اولا ووراءه زيد ، وعندما خر عمه ساجدا سجد مثله على اقدام العرش . وهو لا يتلفت ولا يرفع بصره كما يفعل الفتيان تبهر عيونهم جواهر العرش والذهب المتلألىء في سماء الايوان الاعظم وعلى جدره ومقاعده من الجانبين .

فامر كسرى فنهضا .

فاستدنى زيدا ومد اليه يده فقبلها الفتى باحترام وناوله كتاب النعمان فاومأ الملك الى ابي ليترجمه ، ففعل .

فهز كسرى راسه قائلا : ان النعمان بن المنذر يوصينا باعز الناس.

اجلس يا زيد .

فجلس الفتى وهو يحبس دمعه .

فقال كسرى : كان ابوك يقول لنا انك تحسن الفارسية .

فاجابه بالفارسية قائلا : نعم يا مولاي .

قال : اتعلم ماذا كان يفعل ابوك في ديواننا ؟

ــ نعم يا مولاي كان يخدم الملك في شؤون العرب .

ــ وانت اتخدمنا مثله ؟

فقال : ليس لي ان اقول اني اشد اخلاصاً من ابي . ولكني مثله في هذا الاخلاص ، اما اذا رأى الملك اني لا أليق بديوانه فذلك لاني لا ازال فتى لا ينطبق صدره على مثل الخبرة التي كانت لابي رحمه الله .

فاعجب كسرى جوابه وقال لوزيره : يخيل الي ان عـدياً لم يمت .

ثم قال لزيد :

نسألك عن النعمان بن المنذر كيف هو ؟

قال : ما عرفت النعمان الا منذ شهور يا مولاي فهو احسن الملوك.

ـ ولكنهم يقولون لي ان العرب ليست راضية عنه .

ـ اما انا فلا اعلم شيئاً يا مولاي .

ـ الا تسمع ما يقول عنه اهل الحيرة ؟

ـ اسمعهم يقولون انه الملك الجواد لم يقم بين ملوك آل لخم اكثر جوداً منه .

ـ لكن الجود وحده لا يكفي فقد يكون في عشائر العرب من يسبقه في هذا المجال .. انا اذا سألنا عن ملك فانما نسأل عن عدله لا عن بذله المال فحدثنا بما سمعت عن هذا ..

قال : كنت اعيش قبل موت ابي بعيداً عن الخورنق . فلما مات استدعاني اليه وقربني واعطاني وكتب الى الملك يسأله ان يعطف علي رحمة بي وكنت ارى الناس يخرجون من الخورنق وهم يدعون للنعمان الذي رد قويهم وانصف ضعيفهم واعطى فقيرهم ، ان في ذلك يا مولاي دليلا على حب العرب ملكها وايثارها اياه على جميع الذين تقدموه من الملوك .. وهل يستطيع مثلي ان يجحد فضل النعمان ولولاه لم اقدم المدائن ولم ينظر الي الملك بعين رضاه ؟

فابتسم كسرى قائلا: لو جعلك النعمان سيد العرب جميعها لما اعطاك بعض الذي تستحق الا تعلم يا زيد ان العرش العربي الذي يتربع فيه ابن المنذر لم تثبت قوائمه تحته لو لم يسندها عدي بن زيد ؟؟. أيعطيه ابوك

التاج فيعطيك مثقالين من الذهب ويكون صاحب الفضل ؟؟. الا فاعلم ان ذهب كسرى كـــله هو لك لا نبخل بما في خزائننا في سبيل ذلك النبيل العربي الذي خدم دولة الفرس بنبالته واخلاصه . ثم طواه التراب وهو على ذلك الاخلاص ما نسي للفرس فضلا وما نكث لهم عهدا .. اجل ان ذلك النبيل هو ابوك ونحن اقرارا بفضل ابيك نأمرك بالجلوس على كرسيه ونعطيك فوق ما اعطيناه . ونجعلك منذ الآن مرجعا للعرب لا يرتفع لعربي صوت الا باذنك ولا نحدث في العرب حدثا الا برأيك.

فانطرح زيد على قدمي الملك يقبلهما ويذرف الدموع .

فانهضه كسرى بيده . وتلك اليد المقدسة كان صاحبها ارفــع من ان يمدها الى الملوك .

ثم قال له : يا زيـــد . تنصرف الآن الى القصر الذي كان لابيك فالقصر بما فيه من عبيد وغلمان هو لك ، وانت .. انت ايهـــا الغلام الصغـــير تدخل على الملك بدون اذنه . كما يدخل عليه وزيره الاكبر وصاحب سره . واذا جلست في الايوان فهذا مكانك .

واشار الملك الى مكان عدي واستطرد قائلا لخواص دولته : يجب ان يعلم كل من حضر ان عدي بن زيد لم يمت بل هو ماثل بشخص ولده. فاعرفوا مقام زيد كما عرفتم مقام ابيه ، واذا حدثتموه فكما كنتم تحدثون ذلك الصاحب الوفي الذي لا ننساه .

ثم التفت الى عمه قائلا : اما انت يا ابي فقد صرفناك الى عمل آخر لا تدخل فيـــه شؤون العرب ، الا يطيب لـــك ان يرث الابن اباه في كل شيء ؟..

قال : بل يطيب لي ان ارى هذا الابن في سمـــاء السؤدد والعز بظل الملك .

ـ احسنت فارع امره ونحن نرعى امور الاثنين .. وانت يا زيد . كيف قدمت من الحيرة ومن هم رفاقك ؟

فقال : هانيء بن قلام الذي رباني وزوجته وولداه .

ـ واي شأن لهم في المدائن ؟

ـ لا شأن لهم يا مولاي غير الاقامة فيها اذا اراد الملك .

ـ أيهجرون العراق ويقيمون بيننا ؟

ـ نعم يا مولاي كما هجرته انا ؟

لكن العربي لا يترك قومه وبلاده الا لأمر .

ـ اجل ولاجل هذا الامر تركوا الحيرة . ان هانئـــا يحبني كما يحب ولديه . وانا احب بنته مليكة كما احب نفسي .

فذكر كسرى ان عديا كان حدثه بهذا .

فقال : اظن ان اباك كان قد عين موعد الزواج .

ـ نعم يا مولاي وقبل ان يشهد زواجنا خطفـــه الموت ولم نشهد دفنه ...

ـ اذن نشهد نحن هذا الزواج ونحسن الى مليكة ، واين يقيمون الآن ؟

ـ في بيت عمي ريثما يأذن لهم الملك في الاقامة معي .

ـ لقد اذنا لهم وسيتبعهم احساننا الى حيث يقيمون .

وكان زيد قد نسي هدية النعمان . فقال : اني احمـــل لمولاي الملك

هدية عامله النعمان .

فضحك كسرى ضحكة الاستخفاف قائلا : ماهي هدية ابن المنذر ؟

ـ عشرة افراس ، وعشرة آلاف مثقال من الذهب ، وثلاثمائة ناقة من العصافير .

فقال : لك منها مائة ناقة ولعملك مائة والمائة الاخرى لابن قلام ، ووهبنا لك من الذهب اربعة آلاف مثقال . وللمليكة اربعة آلاف ولأخيها الفين . اما الافراس فخذها كلها فلا حاجة لنا بها .

ثم اومأ الى قهرمانه قائلا : اعد لزيد ورفاقه ما يحتاجون اليه في القصر . واجعل الحراس على بابه كما كانوا على باب ابيه .

كان عصام بن شهبرة ، في كل فصل من فصول السنة ، يبعث رسوله الى المدائن يستطلع احوال اصحابه .

وقد عرف كما عرف النعمان ، ان السنتين اللتين مرتا على وجود زيد ابن عدي في المدائن ، كانتا كافيتين لتجعلا زيدا واسع النفوذ كأبيه . بل هو اكثر انصارا وابعد صوتا .

وقد وفى كسرى بكل ما وعد به زيدا ، فكان الغلام يدخل عليه بدون اذنه ، وشؤون العرب في يده اذا كتب في شيء منها نفذ له الملك ما كتب لا يسأله عنه .

اما تقاليد الفرس وعاداتهم ، وشروط وظيفته واسرارها . فقد تعلمها زيد في شهرين اثنين . وكلما مرت الايام يزداد كسرى حباً واعجاباً بذلك الغلام الذي كانت له كل صفات الرجال .

والزمان قد صفا وطاب ... فآل قلام يعيشون في قصرهم كما تعيش

الملوك . ومليكــة ، في كل يــوم ، تلبس حلة جديدة من حلل البهاء والجمال .

لكنها كانت تخشى ان ينقلب الزمان فلا تزف الى زيد . والغلام لا يحنث في يمينه ولا يتزوج قبل ان يثأر بابيه .

ومتى يتم للفتى ما اراده ؟ النعمان ملك العرب يقيم في الحيرة والغلام الذي يطلب ثاره يقيم في المدائن ، وبــين البلدين ارض قفــار وسهول وجبال ...

وليس لزيد في بلاط النعمان صاحب واحد غير عصــام بن شهبرة وعصام لا يخون مولاه . كما رأيت . فكيف يبر الفتى بيمينه ويثــأر بابيه وهو بعيد عن القــاتل لا يهتم الا لخدمــة كسرى وادارة شؤون القطر العربي ؟ !

اذن فلا يعلم غير الله متى يكون ذلك الثأر ... وقد تنقضي الشهور والسنون وابو قابوس في اوج عظمته ومجده ، فتبقى اليمين التي حلفها زيد . حاجزاً منيعا يبعد الواحد عن الآخر . ويحول دون ذلك الزواج الذي ينتظره الاثنان .

ان ذلك الفكر وحده ، كان يعكر صفو تلك الحياة الهادئة ، التي تتمتع بها مليكة في عاصمة الفرس .

وقد بلغ الاثنان السابعة عشرة من العمر فيجب ان يوضع حد لذلك القلق المستمر الذي لا يعرف له آخر .

وكانت مليكة وزيد . على عادتهما في العراق . يركبان جواديهــما كل مساء ، فيطوفان راكبين حول المدائن يتغنيان بأناشيد الغرام .

فقالت له يوماً : اراك نسيت ثارك ايها الحبيب !!

فاهتز الفتى على جواده قائلا : لا ينسى ثاره الا النذل وابن عدي لا يصير نذلا .

ــ اذن نسيت اليمين التي حلفت .

ــ لا والله ما نسيت شيئاً ولكني اتذرع بالدهاء للوصول الى ذلك الرجل الجالس على العرش ، اتظنين يا مليكة ان السيف الذي يتناول العامة يستطيع عندما يشاء ان يتناول رأس الملك الجالس على عرشه ؟ ام تحسبين كسرى آلة في يدي وعبداً من عبيد قصري ارسله للقضاء على الملك العربي في ظلام الليل ؟! ام تريدين ان اركب فرسي فأسير الى الحيرة وادخل على النعمان في مجلسه فاضرب رأسه امام قواده ورجاله واعود الى المدائن على اجنحــة الغمام ؟! الا فاعلمي ان رأس الملك اعز من رؤوس الناس واذا طلبت ثاري طلبتــه من وراء الستار حيث يكون كسرى السيف القاطع . وانا القوة الدافعة التي حكمت باعدام النعمان من حيث لا يعلم .. فانتظري يا مليكة ، انتظري القضاء الذي يلعب بهذا الكون ليلفظ حكمه على الملك القاتل . ان ذلك اليوم اقرب ممـــا تظنين ، وما تعود القضاء ان يعرف تاجاً او يحترم رب عرش ..

فتمتمت مليكة تقول : من يعلم ماذا يفعل هذا القضاء ايها الحبيب.

قال : لقد دنت الساعة التي يسقط فيها ابن المنذر عن عرشه .

فاشرق وجه الفتاة وحدقت اليه تسأله عن ذلك بعينيها الفاترتين .

اما هو فاستطرد قائلا وقد برقت عيناه : وسيعلم المتآمرون الخونة الذين يعيشون في بلاط الحيرة ، بل سيعلم النعمان القاتل نفسه ، ان هذا

الغلام الصغير الذي قتلوا اباه لا ينام على ضيم . وان رأس الملك اللخمي سيكون ثمناً لذلك الدم الزكي المسفوك في دهاليز الصنين .

ـ اراك تقول هذا وانت واثق .

ـ اجل كما اثق بنفسي وبرحمة الله ، اتظنين اني تركت ثاري ، وابطرتني نعمة كسرى فنسيت ابي ؟ لا يا مليكة ، ان السنتين اللتين انقضتا على وجودي في البلاط كانتا درسا للغلام الذي انتقل فجأة ، من اللعب على شاطيء الفرات الى اعلى مراتب المجد والعز عند اعظم ملك ، اجل لقد انتهى الآن ذلك الدور ، ودرست اخلاق كسرى كما درست اخلاق رجالهوعاداتهم ، وها انالملكيثق بي كما يثق بشيرويهولي عهده فلم يبق علي الا ان اذكر امري واضرب الملك العربي كما ضربني فأبر في اليمينالتي تبعدني عنك يا مليكة القلب ..

ـ وعلى ماذا عولت الآن ؟

ـ اني افكر في امرين اثنين اذا خانني الحظ في احدهما عمدت الى الآخر ...

فأصغت مليكة الى ذلك الحديث الخطير الذي سيفضي به زيد .

قال : اما الامر الاول فسأسأل النعمان ان يزور كسرى ، فاذا قدم ذكرت للملك امري ودعوت النعمان الى البراز في ساحة القصر الملكي فاما ان انصرف الى الآخرة وانا مطمئن واما ان ابعثه الى الحيرة محمولا كالشلو على ناقة عرجاء ...

فصاحت مليكة قائلة : انه لرأي الموت اهون علي منه ووالله ان فعلت لاقتلن نفسي ..

ـ اذن الجأ الى الرأي الآخر فهو اقل خطراً واسلم عاقبة .
ثم اخذ يقص عليها ذلك الرأي وهي تقول :
احسنت يا زيد فسيرفض النعمان ويثور لهـذا الرفض ثائر كسرى وينتهي الامر ...
قال : واذا صبرنا عاما آخر فلا بأس .
فقالت : اذا كان لا بد من ذلك فلنفعل .
وهكذا اتفق الاثنان على الانتظار كما سيجيء .

* * *

من عادة ملوك الفرس في ذلك الزمان . انهم كانوا يملأون قصورهم بالجواري الحسان ، ترسل اليهم كل سنة من مختلف الاقاليم .
وكانت لهم صفة من النساء مكتوبة عندهم ، فيبعثون بتلك الصفة الى عمالهم في الاقطار ، فتحمل اليهم النساء على تلك الصفة ، الا القطر العربي فلم يكونوا يطلبون نساءه لاعتقادهم ان ذلك الجمال المكتوبـة صفته في اوراقهم لا وجود له بين نساء العرب .
وفي كل عام ، عندما ترد طوائف النساء على المدائن ، او عندمـا تصل تلك البضائع البشرية التي « يشحنونها » لتلك المـلوك . . ا يعمد كسرى بنفسه الى اختيار القماش الجيد من تلك البضائع الواردة عـلى قصوره . ثم يوزع الباقي بسخاء لا مثيل له . عـلى اولاده ومرازبتـه ورجال بلاطه . حتى يبلى هذا القماش في السنة الثانيـة ، فيكتب الى

عماله وولاته يستورد غيره من جديد . وهكذا على التوالي . !

وقد عرف زيد بن عدي هذه العادة ، ورأى كسرى مرتين يكتب بتلك الصفة الى الاقطار الخاضعة له . فانفسح له في ذلك مجال الانتقام من قاتل ابيـــه وشاور في الامر عمه ومربيه ، فوافقاه في الرأي ،ولبثوا ينتظرون .

حتى كانت سنة ٦١٣ . فبدأ الملك في طلب النساء . وامر رجال الديوان فكتبوا الى سائر الاقطار وذكروا الصفة على العادة التي يعرفون.

اما تلك الصفة فطويلة ، وهذه بعض الفاظها اثبتهـــا انوشروان في دواوينه :

«معتدلة القد ، بيضاء الوجه ، نقية اللون والثغر ، عريضة الصدر كاعب الثدي ، حسنة المعصم لطيفة الكف،عظيمة الركبة، مفعمة الساق، رزينة حيية كريمة الحال . احكمتها الامور في الادب فرأيهـــا رأي اهل الشرف وعملهـــا عمل اهل الحاجــة الى آخر ما هنالك من الالفـــاظ الخلابة ...»

وكان زيد يعلم ان العرب يبخلون بنسائهم ولـــو طلبهن كسرى . وليس اعز على العرب من العرض الطاهر والشرف المصون .

واذا كانت هذه حال العرب ، فالاولى ان يكون النعمان بن المنذر هو الملك الذي يضرب به المثل بالعز والاباء . اول من يرد طلب كسرى وينكر على الفرس الاجلاف هذه العادة القبيحة التي هي ابلغ مظهر من مظاهر الصغارة والعار .

فدخل على كسرى فحدثه في بعض شؤونه ثم قال :

رأيت الملك يكتب في نساء يطلبهن من الاقاليم وقد قرأت القصة.

فقال كسرى : تلك صفة اثبتها في ديوانـــه جدنا انوشروان . الا ترى في قصورنا طوائف النساء من جميع الانواع والاجناس ؟.!

قال : بلى يا مولاي ولكني لم ار بينهن عربية .

فضحك الملك ضحكة الاستخفاف وقال : ان هذه الصفة لا توجد في نساء العرب واذا وجدت فبواحدة او اثنتين بالرغم من سعـــة بلادكم وكثرة نسائكم .

فقال : لقد اصاب الملك نساؤنا لسن على شيء من الجمال .. ولكن عند عبدك النعمان من بنات عمه واخوته واهله اكثر من عشرين امرأة على الصفة المكتوبة .

قال : افي الحيرة نساء يصلحن لقصورنا واولادنا ونحن لا نعلم ؟

ـ اجل يا مولاي وهن اميرات الجمال في القطر العربي .

ـ اذن تكتب فيهن الآن وتبعث رسولا .

قال : ان النعمان يا مولاي يزعم في نفسه انه اعظم منك ، فاذابعثت اليه رسولا حجب نساءه عنه وعرض عليه غيرهن على غير الصفة التي يريدها الملك .

ـ وماذا نرى ان نفعل اذا ؟

ـ اري ان تبعثني اليه وتبعث معي رجلا من رجالك يحسن العربية فاذا قدمت انا عليه لم يقدر على ذلك .

ففكر كسرى ملياً ثم قال : نختار فلانا فهو افضل من سواه وهو يعرف لغتكم .. قل له ان يحضر .

فدعاه زيد ، فقال له كسرى : سنكتب الى عاملنا في الحيرة ليبعث الينا بمن عنده من النساء على الصفة التي تعلم ، ونجعل زيدا رسولنا اليه وانت معه فاقرأ للنعمان صفة النساء وليفعل ما نأمره به .. أتفهم كل ما يقال بلغة العرب ؟

ـ نعم يا مولاي الا القليل من الالفاظ العربية .

ـ احسنت فتهيأ للسفر : واذا قدمت بالنساء فاعرف مقامهن ... متى تتركان المدائن يا زيد ؟

ـ عندما يشاء الملك .

ـ اري ان تذهبا غدا فليس ما يمنعكما ذلك .. اكتب ما تراه الى النعمان .

فكتب اليه زيد كتاباً رصين اللهجة يقول فيه : ابعث الينا من النساء من يصلحن للبلاط الفارسي .

فختم الملك للكتاب بخاتمه فأخذه زيد وخرج مع رفيقه ليعد كل منهما عدة الرحيل .

فقالت مليكة لزيد : اراك تركت البلاط قبل المساء .

قال : نعم ايتها الحبيبة وسأسافر غدا الى الحيرة لأحمل الى المدائن رأس النعمان .

وروى لها ولمربيه ما جرى بينه وبين الملك وقلبه يرقص في صدره من الفرح .

اجل ان زيدا كان يشتهي تلك الساعة التي يأخذ فيها ثمن الدم المسفوك زوراً وظلماً .

وعند الصباح خرج مع رفيقه الفارسي يريدان الحيرة وهو يفكر في تلك اليمين التي حلفها بعد قتل ابيه، في حين كان الرفيق الآخر لا يفكر الا في تلك البضائع البشرية التي سيشحن بها المدائن تنفيذا لرغبةمولاه.

وجعل زيد في ايام سفرهما . على مر الدقائق والساعات . يصانع رفيقه ويداريه ، ويكرمه ما شاء التكريم حتى بلغـا الحيرة . قبل ظهر يوم من ايام الخريف .

وكان النعمان قد نسي كل شيء الا الصيد والخمر .. والا ذلك العز العربي الذي ورثه عن اجداده وتغلغل في اعماق نفسه الكبيرة .

وقد استبد ابن مرينـا وانصاره من اعـداء بن زيد بكل شأن من شؤون الدولة ، والنعمان يغضي على القذى ويصبر على ذلك الاستبداد ، خوفاً من اولئك الخونة الذين مد اليهم يده فيما مضى فوثبوا الى كتفيه . لكنهم كانوا يعرفون هواه فلا يثيرون غضبه . احتفاظاً بنفوذهم في البلاط ولكي يبعدوه عن الخورنق الى امـاكن صيده ولهوه فيخـلو لهم الجو .

اما عصام بن شهبرة فلم يكن يهتم الا لأمر واحد هو ملازمـةالملك والعمل على خدمته . ناظراً الى كل ما يجري حوله من تدابير وسياسات نظره الى شيء لا يعنيه .

وكلما رأى هندا حدثته عن عدي وذكرت له زيدا . وكانت تقول له : اذا كتبت اليه فاذكر له امه التي لا تنساه .. وهي تعني نفسها .

فلما اصبح زيد ورفيقه في الحيرة توجها الى الخورنق يقصدان الملك وزيد يعلم ان النعمان يجلس للناس قبل الظهر ، اذا لم يكن غادر الحيرة

الى الصيد في ذلك السهل البعيد .

وكان بعض الحراس يعرفون زيدا ، فعندما رأوه مقبلا تقدموه الى قاعة العرش ، الى حيث يقف عصام بن شهبرة .

فتساقطت دموع عصام وفتح ذراعيه للغلام الذي احبه اكثر مما احب مليكه وولي نعمته .

وكان يحدق اليه وهو لا يصدق انه زيد .

وزيد بلباسه العربي وقامته الطويلة ، ووجهه الذي يتدفق منه النور والبهاء ، وقد ارخى جدائل شعره علي كتفيه فكان فتنة للناظرين .

فسأله عصام قائلا : اتقدم الحيرة يا زيد وانا لا ادري ؟ !

فقال : اني سفير كسرى ولست سفير نفسي ولم اكن اعلم اني قادم.

ــ اذن فلشأن خطير ارسلك الملك !

ــ اجل وقد اراد ان يشرف العرب. أنستطيع ان نقابل النعمان الآن؟

ــ بل تقابله ساعة تشاء . أفي خلوة تراه ام في المجلس ؟

ــ ليس لي في ذلك رأي فاستأذن لنا عليه .

فاجتاز عصام باب القاعة ورفع صوته قائلا :

بالباب سفيران من قبل كسرى احدهما زيد بن عدي .

فبغت رجال البلاط عند سماعهم اسم الغلام الصغير .

ما النعمان فنهض عن سريره يستقبل الفتى ونسي انه اعز العرب ..

فتهامس اخوته يقول احدهم للآخر : لقد جن النعمان ؟ !

ثم قال وت عال : ادخل يا زيد .

فوقف الفتى بباب القاعة فرأي النعمان قائما ينتظره وهو يبتسم ،

ورأى عن جانبي العرش نجلي النعمان واخوته الامراء وشهاب بن قيس وعدي بن مرينا ومن يتبعهم من انصار وقد احاطوه بنطاق من العيون .

فمشى بعظمة الملوك وجلالهم والفارسي يتبعه حتى قارب الملك فاكب على يديه يقبلهما والبغض مطل من عينيه .

فضمه النعمان الى صدره وقد ذكر اباه ...

ثم اومأ الى الفارسي بالجلوس وقد وقف كل من حضر احتراما للنعمان نفسه.

وكأن زيدا اراد ان يقهر اعداءه . فقال :

اني مرسل من قبل كسرى يا مولاي لشأن من الشؤون الخاصة ...

فالتفت الملك الى رجاله قائلا : انصرفوا جميعاً .

وخلت القاعة ، فقال النعمان : في اي شيء قدمت يا زيد ؟

فقال : ان كسرى قد احتاج الى نساء لاهله وولده واراد كرامتك فبعث اليك .

قال : وما هؤلاء النساء ؟

قال: هذه صفتهن . واعطاه كتاب كسرى. ثم قرأ عليه الصفة والنعمان يسمع حتى اتى على اخرها .

فبان الغضب في وجه الملك وشق عليه ذلك فقال : « امــا في عين السواد وفارس ما يبلغ به كسرى حاجته » ؟

« فقال الرسول لزيد بالفارسية : ما معنى العين ؟

فأجابه بالفارسية : كاوان ، اي البقر ؟

فأمسك الرسول : اما زيد فقال للنعمان :

انما اراد كسرى كرامتك يا مولاي ولو علم ان هــذا يشق عليك لم

يكتب اليك به .

فأخذ النعمان يبتسم ابتساماً مغتصباً وقد احمرت وجنتاه وأشرق وجهه. ثم قال لهما :

انزلا عندنا يومين ثم تأخذان الجواب .

فمكثا في الخورنق يومين كاملين وزيد لا يفارق ابن شهبرة وقد زار هنداً وكان يدعوها امه .

ثم ارادا السفر فكتب النعمان الى كسرى بعدما شاور رجاله :

« ان الذي طلب الملك ليس عندي »

وقال لزيد : اذا اتيت كسرى فاعذرني عنده .

فوعـــده خيراً وانصرف الاثنان عائـــدين الى المدائن وزيد يقول للرسول الذي قدم معه :

«اصدق الملك ما سمعت فأني سأحدثه بمثل حديثك ولا اخالفك فيه»

وانت ترى ان الأمر قد تم لزيـــد كما اراد وسيغضب كسرى على الملك العربي ولا مفر له من هذا الغضب .

فلما وصلا الى المدائن : دخلا على كسرى فقال له زيد هذا كتاب النعمان اليك يا مولاي .

فقال : واين الذي كنت خبرتني به ؟

« قال : كنت خبرتك يا مولاي أنهم يبخلون بنسائهم على غيرهم وان ذلك من شقائهم واختيارهم الجوع والعري على الشبع والرياش . وايثارهم السموم والرياح على طيب ارضك هذه حتى انهم ليسمونها السجن فسل هذا الرسول الذي كان معي عما قال النعمان :

فأجابه الرسول قائلا : لقد قال : « اما كان في بقر السواد وفارس ما يكفي كسرى حتى يطلب من عندنا »

فرقصت لحية الملك من الغضب ووقع في قلبه من النعمان ما وقع لكنه لم يزد على ما قال :

« رب عبد قد اراد ما هو اشد من هذا ثم صار امره الى الهلاك »

ونهض كسرى فخرج من الايوان وهو لا يبصر طريقه من شدة الغضب.

اما كلامه فقد شاع ، وانتشر في بلاد فارس ثم جاوزها الى العراق بسرعة البرق حتى بلغ النعمان ، فخاف خوفاً شديدا وجعل يستعد ويتوقع وهو يعلم ان كسرى لا يقف عند حد الوعيد والتهديد .

* * *

وصبر كسرى على ذلك اشهراً . اما مليكة فكاد يقتلها الصبر .

وكيف تصبر على ذلك وقد يتناسى كسرى امر النعمان حفظاً لسياسته في العراق فتنقضي الايام وهي بعيدة عن زيد !

والصبر من الوجه الآخر لا يرضي زيداً ، فهو اكثر شوقاً الى مليكة وابعد نظراً في شؤون الملوك والسياسات .

ولكن ماذا يقول لكسرى وهو يراه ساكتا ، وكسرى وحده صاحب الحق وصاحب السلطان ...

غير ان الغرام يقوي الجنان. وينفخ الجرأة والاقدام في صدر الجبان فمثل يوماً بين يدي الملك وقال له :

أيجسر النعمان ان يقول فيك ما قاله وتصبر عليه ؟ . اذن فالنعمان لا يخافك يا مولاي وهو يقدر اذا شاء على الانفراد بأمر العرب والخروج على الملك ...

فوضع ذلك الملك العظيم يده على رأس زيـــد وابتسم ابتسامـــة الاستخفاف ثم قال : اتظن يا زيد ان حفيد انو شروان لا يغضب لعزه الذي اهين ؟ ؟ واي صعلوك من صعاليك الفرس يطعنه النعمان في كرامته ولا يسأل ؟. ان كسرى لا يغفر الاهانات يا بني ولا يتسامح الى هذا الحد ، ولكن اذا سكتنا اشهرا فالموت يكمن وراء هذا السكوت وسيأتي يوم نحاسب فيه صاحب الحيرة على كل لفظة خرجت من شفتيه ازدراء واستخفافا بمولاه ... ايطيب لك يا زيـــد ان تنتقم من النعمان وقد كنت بالامس ـ امام المرازبة والقواد ـ تثني على سياسته وتدافع عنه ؟!

قال : ان النعمان صاحب الفضل على آل زيد فلا انساه . ولكن عندما يقوم في ذهنه انه اعظم من كسرى فقد نسيت فضله .. لقد كان قوله كافيا لان يجعلني عدوا له بعد ان كنت من رجاله بل من عبيده . واذا اراد مولاي ان يتناسى ذنبه فليسمح لي بان ادعوه بامره الى المدائن فابارزه على مرأى من الملك فاما ان يقتل وهذا بعض ما يستحق واما ان يقتلني فتذهب حياتي وانا عبد من عبيد الملك ـ في سبيل الدفاع عن شرفه .

فقهقه كسرى وهو يقول : ما عجزنا بعد عن الدفاع عن شرفنا يا زيد . انا لو اردنا هذا لارسلنا الجيش الى الحيرة يخرج النعمان من قصره بقوة السيف ويعود به الى المدائن وفي عنقه سلسلة يمسك بها عبدان . .

ولكن هذا هو الخطأ بعينه انقتل عشرين الفا من الرجال للوصـــول الى رأس عبد من عبيد الفرس ؟

ـ ولكن تفعل غير ذلك يا مولاي . . تكتب الى النعمان فتأمـــره بالحضور .

قال : لو فعلنا ذلك على الاثر لفر النعمان من الحيرة لاجئا الى قبائل العرب واضطررنا الى ارسال الجند . اما اليوم فقد نسي ما فعل على ما نظن . خذ هذا الرق واكتب اليه : « اذا اتاك كتابنا فاقبل فان للملك حاجة اليك » .

فكتب زيد ما املاه الملك . فقال كسرى :

ابعث هذا الكتاب واعلم ان امره قد انقضى .

فخرج زيد رهو يقول في نفسه : لقد ثأرت بأبي وتزوجت مليكة .

* * *

ولم يكن النعمان قد نسي قوله كما ظن كسرى .

فلما اتاه كتابه قال للرسول : سنمتثل امر الملك بعد بضعة ايام .

ثم جمع اخوته ورجاله وقال لهم : ان كسرى يدعونا اليـــه والشر في صدره فماذا تقولون ؟

فاجابه الامير الاسود قائلا : خير لك ان تذهب ايهـــا الملك فان كسرى لا يراجع في شؤونه .

قال : لقد نقل اليه اللعين زيد بن عدي مـــا سمعه منا فاذا قدمنـــا

المدائن كان نصيبنا القتل .

فهز ابن مرينا رأسه قائلا : ولقد كنت تريد ان تبقي اباه حيا ! !

فعض الملك شفته وقال : لقد اخطأنا ولم ننظر الى العاقبة . . كان يجب ان يقتل هذا اللعين الصغير كما قتل ابوه .

وكانت اعصابه ترتجف من الغضب والخوف ، ثم قال : من يشير علينا بالذهاب ايها الناس ؟

فانقسمت اراء القوم : هذا ينصح له بالسفر والآخر يشير بالعدول عنه وهو ينظر الى القائلين بالسفر نظره الى اعداء له يريدون ان يبعثوه الى الموت فيستبدوا بامور الملك .

وقد ملأت الكآبة قلب عصام بن شهبرة ذلك الحاجب الامين الصادق في خدمة النعمان . وكان يرى ان العرش صائر الى غير مولاه، سواء اذهب الى المدائن ام بقي في الخورنق .

لكنه لم يكن له رأي يبديه في مجلس ملكه مغلوب على امره ،ورجاله لا يسمعون له . . .

وسكت القوم ينتظرون رأي النعمان ، وكان مستنداً الى قائمة العرش وولداه بين يديه ينظران الى جبينه المكفهر وعينيه الحمراوين .

ولم يطل انتظارهم : فقد رفع رأسه وقال بصوت مضطرب :

يا عصام : اذهب مع قابوس والمنذر واجمعوا سلاح الملك لا تبقوا منه شيئاً ، وانت ايها القهرمان اعد لنا بعض الذهب نأخذه معنا في سفر طويل لا نستطيع ان نعد ايامه . . . اليس في بيت المال ما نستعين به ؟.

فقال القهرمان : المال موجود يا مولاي . .

فالتفت عندئذ الى وزيره والرجال القائمين حوله : سنطوف في بلاد العرب فنرى من يجيرنا من السادات والامراء الذين احطناهم بالعناية والاحسان اما رجالنا في الحيرة فليسوا اهلا لهذا ولا تجول الخيل جولة حتى يتفرقوا عنا ويعينوا علينا جنود الفرس ... اسمع يا شهاب بن قيس : ان ولي العهد والمنذر سيرافقان الملك . فأحسن ادارة الأمور حتي نعود ولا تستسلم لهؤلاء الرجال الخونة الذين يحصون على الملك انفاسه فليس فيهم الا من يهتم لنفسه ... « واشار الى اخوته وعدي بن مرينا» .واذا اعوزتك القوة فاستنجد بقومك فانهم ينجدونك ويحفظون راسك ...

ثم مد يده اليسرى فأخذ التاج عن رأسه ووضعه الى جانبه على السرير وهو يقول : لقد كتب للنعمان بن المنذر اعظم ملوك العرب ان يخلع نفسه عن العرش العربي ويترك قصره لاجئا الى من كانوا يلجأون اليه .. لقد ذكرنا عدي بن زيد وهو في الصنين، امر من هلك قبلنا من الملوك فلم نسمع له ... ويا ليتنا سمعنا لذلك الرجل الذي كان وحده المخلص للملك ...

وكأنه اراد ان يخطب برجاله ويودع عرشه ولكن خنقته الدموع فخرج من قاعة العرش لا يلتفت الى ورائه وتبعه ولداه والقهرمان وعصام بن شهبرة وهم يبكون . ثم لحق به وزيره ، فأومأ اليه بالرجوع قائلا : عد الى مجلسك يا شهاب فالملك لا يحتاج الى احد .

وصدرت الأوامر للعبيد والغلمان فأعدوا عدة الرحيل واخذت الملكتان وهند جواهرهن وبعض حاجاتهن وخرج موكب الملك الهائم على وجهه ، تاركاً الحيرة الى جبلي بني طيء .

وبنو طيء قوم زينب وفرعة ، ولولا النعمان لم يقم لآل حارثة قائمة في اسواق الحيرة ، كما مر .

وكان النعمان يظن ان اهل زوجتيه يدخلونه جبلهم ويمنعونه ، فلما قص عليهم قصته قالوا له : لا نستطيع ان نجيرك ولولا صهرك لقاتلناك فانه لا حاجة لنا الى معاداة كسرى ولا طاقة لنا به .

فأقبل النعمان العظيم يطوف في البلاد ليس احد من القبائل يقبله غير بني رواحة من بني عبس ... ولكنهم ضعاف وكسرى قوي . فقال لهم النعمان : ما احب ان اهلككم . ثم تركهم ونزل سرا بذي قار في بني شيبان وسيد القوم هانيء بن مسعود وكان بطلا منيعا ومن اعاظم الابطال .

وكان النعمان يعلم ان كسرى اعطى آل مسعود خراج ناحية تدعى الابلة فكره ان يدفع اليه اهله فيحرج موقفه .

فقال له هانيء : مرحبا بمولاي الملك « لقد لزمني ذمامك وانا مانعك مما امنع نفسي واهلي وولدي منه ما بقي من عشيرتي رجل . ولكن ذلك لا ينفعك لانه مهلكي ومهلكك .

فقال : ما الرأي ؟

«قال: عندي رأي لست اشير به عليك لادفعك عما تريده من مجاورتي ولكنه الصواب » .

قال : هات رأيك . .

قال : « كل امر يجمل بالرجل ان يكون عليه الا ان يصبح بعد الملك صعلوكا . والموت نازل بكل احد يا مولاي . ولان تموت كريما

خير من ان تتجرع الذل او تمسي من العامة بعد ان كنت ملكا . هذا ان بقيت .. فامض اذن الى كسرى . واحمل اليه هدايا ومالا والق نفسك بين يديه . فاذا صفح عنك عدت ملكا عزيزا . واذا اصـــابك فالموت خير من ان يتلعب بك صعاليك العرب ويتخطفك ذئابها وتاكل مالك وتعيش فقيراً مجاوراً او تقتل مقهورا ... »

فدمعت عينا الملك ، صاحب الحول والطول بالامس ، والطريــد الذليل اليوم . ثم قال :

« وماذا افعل بحرمي ؟

فاجابه ابن مسعود قائلا : هن في ذمتي وجواري لا يصل اليهن احد حتى يصل الى بناتي .

فقال : هذا وابيك الرأى الصحيح ولن اجاوزه .

ثم اختار خيلا وحللا من عصب اليمن وجوهرا وطرفا كانت عنده ووجه بها الى كسرى مع رسول وكتب اليــه يعتذر له ويعلمه انه صائر اليــه .

وانتظر عودة الرسول .. فقبل كسرى هـــداياه وامره بالقدوم . ويد زيد تتلعب من وراء الستار ..

فعاد الرسول الى ذي قار « ذو قار ماء لبكر بن وائل بين الكوفة وبين واسط » واخبر النعمان بما رآه عند كسرى وقال له : انه لم ير في بلاط الملك الفارسي سوءاً .

فقام الملك العربي يودع اهله ويوصي بهم هانئا . وخرج يريد المدائن مع عبدين اثنين تاركا عصام بن شهبرة عند ولده ونسائه .

وكان زيد : يذهب في كل يوم الى موضع يقال له « قنطرة ساباط» ينتظر فيه قدوم النعمان قاتل لبيه .

حتى اقبل النعمان يوما على ناقته ، فلقيه زيد وقال له : انج نعيم اذا استطعت النجاء ؟

فقال له : « افعلتها يا زيد اما والله لئن عشت لاقتلنك قتلة لم يقتلها عربي ولالحقنك بأبيك» فقال له زيد : « امض لشأنك نعيم فقد آخيت لك آخية لا يقطعها المهر الأرن » (١)

ثم مشى زيد وراءه حتى بلغوا الايوان . فدخل زيد على الملك يقول له : النعمان بن المنذر بالباب يا مولاي .

فبرقت عينا ابرويز وقال لحرسه : قيدوا الملك المغرور وابعثوا به الى سجن خانقين فيموت فيه .

واذا بالحراس يطوقون عنق النعمان ويديه سلاسل الحديد ، وانثنى اعز ملك في زمانه ، يجر سلاسلـــه وقيوده كما كان يجر ذيول العظمة والعز . .

وكان سجنه في خانقين ، اضيق واكثر ظلاماً ووحشة ، من سجن عدي بن زيد في الصنين .

* * *

يا مولاي : اتأذن لي في السفر الى الحيرة فافتش في ترابها عن قبرابي واسكب عليه دموعي ؟

---

(١) معنى الآخية الحلقة تشد بها الدابة . والارن القوي .

فقال كسري لزيد : نخشى ان نأذن لك في هذا فتصير الى ما صار اليه ابوك قبلك .. ان للنعمان اخوة واهلا فقد يغدرون بك ، فامكث في المدائن واترك اهل القبور .. فرأى الفتى ان الرأي فيما قاله الملك . فقال: افلا تأذن لي في الزواج ؟ قـال : بلى وكسرى نفسه يحتفل بزواجك ثم امر فلبست قصور الامراء والمرازبـة والقواد ثوبا خلابا من صنوف الازاهـير وزفت مليكة الى زيد في حفـلة كسرى نفسه ، ودارت فيها حول العروسين عظماء فارس ورجال المشورة والجيش .

وعندما كان الكاهن النصراني يبارك زواجهما كان زيد يذكر اباه فتتساقط دموعه على خديه ، وكانت مليكة تهمس في اذنه قائلة : اترك البكاء ايها الحبيب فقد بسم لنا الدهر ...

اما النعمان فمات في السنة نفسهـا بمرض الطاعون وهو في سجنه ، في اواخر سنة ٦١٣ . فاستعمل كسري اياس بن قبيصة مكانـه حتى سنة ٦١٨ . ثم ولى رجلا فارسياً يدعى زاديه . حتى سنة ٦٢٨ . وآخر ملوك الحـيرة كان المنذر بن النعمان المعروف بالمغرور . وقـد قتل في البحرين سنة ٦٣٢ .

صدر من سلسلة

روايات تاريخ العرب والاسلام

- الحارث الأكبر الغساني
- النعمان الثالث
- بلقيس ملكة اليمن ١ / ٢
- زينب ملكة تدمر ١ / ٢
- حسناء الحجاز ١ / ٢
- الحارث ملك الأنباط
- هند والمنذر
- هند أسيرة كليب
- اليتيمة الساحرة ١ / ٢
- فتاة الشام
- محمد وأم كلثوم
- فاجعة كربلاء
- خيانة وغدر
- لقاء المحبين
- السفاح والمنصور
- الأمير العاشق



دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

الثمن
١٥
ل.ل.